الْـــكَـوَاكِـبُ الْـوَمِـيـضِـيَّـةُ

في

شَـــرْحِ الْمُـقَـدَّمَـةِ الْـعَـقـدِيَّـةِ

لِرِسَالَةِ ابْنِ أَبِي زَيْدٍ الْقَيْرَوَانِي

تأليف

أَبِي زكريا أحمد بن أبي بكر آل مصطفى

الرِّغَاسِي

مُقَدَّمَةُ الْمُؤَلِّفِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نَحمَدُه ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد: فإن لأبي محمد عبد الله بن أبي زيد القَّيْرَوَانِي دَوْرا فَعَّالا إيجابيا في نشر عقيدة أهل السنة والجماعة، وقد سلك مَسْلَكَ السلف الصالح في ذلك من الصحابة ومن بعدهم كمحمد بن سِيرِينَ، وأخيه أنس بن سِيرِينَ، وسَعِيد بن الْمُسَيِّبِ، وسعيد بن جُبَيْرٍ، والْحسن البَصْرِيِّ، وإبراهيم بن يَزِيدَ النَّخَعِي، وعبد الرحمن بن أبي لَيْلى، ومحمد بن شِهاب الزهري، ورَبِيعَة بن أبي عبد الرحمن « ربيعة الرأي » وعَطاء الْخُرَاساني، وحماد بن أبي سُلَيمَانَ، والحكم بن عُتَيْبَةَ، وسُفيَانَ بنِ سعيد بن مَسْرُوق الثوري، وعبد الله بن شُبْرُمَةَ، وعُثمَانَ البَتِّيِّ، وعبد الله بن المبارك، وأبي حنيفة النُعمانَ، بنِ ثَابِتٍ، ومحمدِ بن عبد الرحمن بن أبي ذِئْبٍ العَامِرِي، ومالك بن أنس، وعبد الرحمن الأَوْزَاعي، وعبد الملك بن جُرَيْجٍ، واللَّيْث بن سعد، والشافعي محمد بن إدريس، وأحمدَ بن حنبل الشيباني، وأبي النَّضر إسحاق بن إبراهيم بن رَاهُويَه الْحَنْظَلي، وأبي يوسفَ يعقوب بن إبراهيم الأنصاري ومحمد بن الحسن الشيباني صَاحِبَي أبي حنيفةَ، وأبي

عبيد القاسم بن سَلَّامٍ، وأبي عبيد مَعْمَرِ بْنِ الْمُثَنَّى، وأبي ثَوْرٍ إبراهيم بن خالد الكَلْبي الفقيه، ومحمد بن إسماعيل البخاري، ومسلم بن الحجاج، وغيرهم من كبار التابعين وتابعيهم، ولا شك أن من تتبع مقدمة أبي محمد يرى ذلك، فإنه لا يَعدِلُ عن مذهب هؤلاء الأعلام في المسائل الاعتقادية كما يفعل غَيرُه ممن ينتمي إلى هؤلاء الأعلام يقلدونهم في المسائل الفقهية ويخالفونهم في المسائل الاعتقادية ويتمسكون بمذهب الأَشَاعِرَةِ وَالْمَاتُرِيدِيَّةِ والمتكلمين المبني على ظلمة التَّخْمِينِ والتَّخَيُّلَاتِ العَقْلِية، وقد سمعت بعض مدعي التصوف الدجاجلة في نيجيريا يرمي أبا محمد بالبدعة لأنه أثبت لله ما وصف به نفسه من صفة العلو، مع أنه يَدَّعِي التَّبَحُّرَ في علم الحديث رِوَايةً ودِرايةً! فأنى له هذا، هل يُعَدُّ من أثبت لله ما أثبته لنفسه في كتابه وأثبته له نبيه ﷺ في أحاديثه الشريفة من عِدَاد المبتدعين؟ وإنما حمله على ذلك اتباع الهوى والمحاولة على تحريف ما أنزل الله تعالى من الحق بالتأويلات التي لا أساس لها، ولا تنفق في سوق المناظرة تكبرا وعنادا!

وقد بذل كثير من العلماء أقصى جهدهم في إخراج ما في طيات هذه الْمُقَدَّمة من زبارج الفوائد الاعتقادية، وأَنَا أَتْبَعُ آثارَهم سائل المولى جل وعلا أن ينفع بعملنا هذا الإسلامَ والمسلمين ويهدي به من ضل عن سبيله، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، ويُسَجِّلَه في مِيزَان حسناتنا، وهو على ذلك قدير.

أخوكم في الإسلام: أبو زكريا الرِّغَاسِي.

حُرِّرَ يوم السَّبتِ اليوم الخامس والعشرين (25) من شهر جِمَادى الآخرة (6) سنة (1442) هـ الموافق (23) من الشهر الأول (1) سنة (2021) م.

تَرْجَمَةٌ مُخْتَصَرَةٌ لِابْنِ أَبِي زَيْدِ الْقَيْرَوَانِيّ

اسْمُهُ، وَكُنِيَّتُهُ، وَنَسَبُهُ: عَبد الله بن أبي زيد، واسمه: عبد الرحمن (أي أبو زيد) كما حكاه القاضي عن الأَمِيرِ ابنِ مَاكُولَا في « تَرْتِيب المدارك » ويُكَنَّى أبا مُحمدٍ، النِّفْزِي نَسبا، و(نِفْزَةُ) [1] بكسر النون قبيلة كبيرة، وهو المُرَادُ هنا كما حكاه يَاقُوتُ الْحَمَوِيُّ صاحب مُعْجَمِ الْبُلْدَان عن أبي طاهر السِّلَفِيّ. ثُمَّ الْمَالِكِي مذهبا، السَّلَفِي عقيدةً، القَيْرَوَانِي [2] مَولِدًا.

مَوْلِدُهُ: وُلِدَ رحمه الله تعالى في القَيْرَوَانَ، وهي تقع على بُعْدِ سِتِّينَ وَمِائَةِ كِيلُومِتْرٍ عَنْ وِلَايَةِ تُونِس العاصمةِ الْاتِّحَادِيةِ لِلْجُمْهوريةِ التُونِسِيَّةِ التي تَقَعُ بِشِمال الإفريقية الغربية، وذلك في السَّنَةِ العَاشِرَةِ بعد ثَلَاثِمِائَةٍ (310) هـ.

---

[1] – (نفزة) بكسر النون قبيلة كما تقدم، وبفتحها، مدينة بتونسية تقع على بُعْدِ أربعين (40) كِيلُومِتْرًا عَنْ وِلَاية بَاجَةَ وَتابِعة لها، فإن قلت: (النفزي) بالفتح نَسَبْتَهُ إلى هذه المدينة، وإن قلتَ بالفتح نَسَبْتَهُ إلى القَبِيلة، وهو الذي ذهب إليه جماهير العلماء، ولعل هذه القبيلة هي أول من قَطَنُوا الْمَكانَ فَأَسَّسُوا الْمَدِينةَ فَسُمِّيتْ باسمها، والله أعلم.

[2] – (القيروان) بفتح القاف وإسكان الياء وفتح الراء، وهذا هو الصحيح في ضبط هذه الكلمة خلافا لما يَنطِق به البَعْضُ من كَسْرِ القاف فيقولون: (القِيروني) تأثيرا بالعامية، وهذا خطأ، والصحيح ما ذَكَرْتُ لك وهو المعروف عند أهل الْخِبْرَةِ بهذه المدينة من سُكَّانها، والكلمة في الأصل فارسية (كَارَوَان) فَعُرِّبَتْ، وتعني بالفارسية مَنزِل الجيش والقافلة، والقيروان ولاية مستقلة في الجمهورية التونسية حاليا، والله تعالى أعلم.

شُيُوخُهُ: ولأبي محمد القَيْرَوَاني عدة شيوخ دَاخِلَ بلدِه وخَارِجَهُ، ومن شيوخه: أبو بكر بن اللَّبَّادِ، وسَعْدُونُ الْخَوْلَانِي، وَحَبِيبُ مَوْلَى ابن أبي سُليمانَ، وعُبَيْدُ الله بن مَسْرُورِ بن الْحَجَّامِ، وأبي العَرَبِ، وخلق سواهم.

تَلَامِيذُهُ: وله تلاميذ كثيرة منها على سبيل المثال: أبو محمد مَكِّيُّ الْمقرِئ، وأبو القاسم البَرَادِعِيُّ، وأبو عبد الله الْخَوَّاصُ، وأبو عبد الله بن الْحَذَّاءِ، وخلق سواهم.

مُصَنَّفَاتُهُ: وله مصنفات عديدة منها على سبيل المثال:

1- النوادر والزيادات على المدونة: وهو نفس كتاب المدونة الذي يعتبر مصدرا ثانيا من مصادر المالكية بعد الموطأ، وإنما جاء المصنف فيه بالزيادات.

2- الرسالة القَّيْرَوَانِية، الشهيرة برسالة ابن أبي زيد القيرواني، وهي التي نحن بصدد شرح مقدمتها، وكتاب الرسالة من أشهر تصانيف ابن أبي زيد على الإطلاق.

3- الاقتداء بأهل السنة.

4- التنبيه على القول في أولاد المرتدين.

5- رسالة في الرد على القدرية. وغيرها كثيرة من التصنيفات المفيدة.

مَكَانَتُهُ الْعِلْمِيَّةِ: ويُعَدُّ أبو محمد في ضِمن كِبار علماء المتقدمين، وكان إمام أهل زمانه في الفقه جامعا لمذهب مالكٍ وشارحا لأقواله، وَيُلَقَّبُ بمالك الصغير لِسَعة علمه وكثرة حفظه.

وَفَاتُهُ: وتوفي رحمه الله تعالى سَنَةَ سِتٍّ وَثَمانين وثلاثمائة (386) وهو ابنُ سِتَّةٍ وَسَبْعِين عَامًا (76) فرحمة الله عليه وجعل قبره رِيَاضا من رياض الجنة.

نَصُّ مُقَدَّمَةِ الرِّسَالَةِ الْقَيْرَوَانِيَّةِ

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الشَّهِيرُ بِابْنِ أَبِي زَيْدٍ القَيْرَوَانِي:

« بَابٌ: مَا تَنْطِقُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ وَتَعْتَقِدُهُ الْأَفْئِدَةُ »

مِنْ ذَلِكَ الْإِيمَانُ بِالْقَلْبِ وَالنُّطْقُ بِاللِّسَانِ، أَنَّ اللهَ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا شَبِيهَ لَهُ، وَلَا نَظِيرَ لَهُ، وَلَا وَلَدَ لَهُ، وَلَا وَالِدَ لَهُ، وَلَا صَاحِبَةَ لَهُ، وَلَا شَرِيكَ لَهُ، لَيْسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ وَلَا لِآخِرِيَّتِهِ انْقِضَاءٌ، لَا يَبْلُغُ كُنْهَ صِفَتِهِ الْوَاصِفُونَ، وَلَا يُحِيطُ بِأَمْرِهِ الْمُتَفَكِّرُونَ، يَعْتَبِرُ الْمُتَفَكِّرُونَ بِآيَاتِهِ وَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِي مَاهِيَّةِ ذَاتِهِ، «**وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**»[3] الْعَالِمُ، الْخَبِيرُ، الْمُدَبِّرُ، الْقَدِيرُ، السَّمِيعُ، الْبَصِيرُ، الْعَلِيُّ، الْكَبِيرُ، وَأَنَّهُ فَوْقَ عَرْشِهِ الْمَجِيدِ بِذَاتِهِ، وَهُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِعِلْمِهِ، « **خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَيَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** »[4] « **وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي**

[3] - سورة البقرة: (255) وهذا اقتباس من سورة البقرة، وقد أكثر المصنف رحمه الله تعالى استعمال هذا الأسلوب في هذه المقدمة الميمونة، والاقتباس هو أن يَتضَمَّنَ كَلامُ المتكلمِ نَثرًا أو شِعرا شيئا من القرآن أو الحديث أو أقوال الحكماء المشهورة أو الأمثال السائرة بدون أن يعزو الْمُقتبِس إلى القائل كَصَنِيع المصنف هذا، وهو جائز في مثل هذا المقام، ومن المحسنات البديعية، والله أعلم.

[4] - سورة ق: (16)

ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ »[5] عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى وَعَلَى الْمُلْكِ احْتَوَى، وَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتُ الْعُلَى، لَمْ يَزَلْ بِجَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ، تَعَالَى أَنْ تَكُونَ صِفَاتُهُ مَخْلُوقَةً وَأَسْمَاؤُهُ مُحْدَثَةً، كَلَّمَ مُوسَى بِكَلَامِهِ الَّذِي هُوَ صِفَةُ ذَاتِهِ لَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَتَجَلَّى لِلْجَبَلِ فَصَارَ دَكًّا مِنْ جَلَالِهِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ فَيَبِيدَ، وَلَا صِفَةً لِمَخْلُوقٍ فَيَنْفَدَ.

وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حُلْوِهِ وَمُرِّهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ قَدْ قَدَّرَهُ اللهُ رَبُّنَا، وَمَقَادِيرُ الْأُمُورِ بِيَدِهِ وَمَصْدَرُهَا عَنْ قَضَائِهِ، عَلِمَ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلَ كَوْنِهِ فَجَرَى عَلَى قَدَرِهِ، لَا يَكُونُ مِنْ عِبَادِهِ قَوْلٌ وَلَا عَمَلٌ إِلَّا وَقَدْ قَضَاهُ وَسَبَقَ عِلْمُهُ بِهِ، أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ، يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ فَيَخْذُلُهُ بِعَدْلِهِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَيُوَفِّقُهُ بِفَضْلِهِ، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ بِتَيْسِيرِهِ إِلَى مَا سَبَقَ مِنْ عِلْمِهِ وَقَدَرِهِ مِنْ شَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، تَعَالَى أَنْ يَكُونَ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يُرِيدُ أَوْ يَكُونَ لِأَحَدٍ عَنْهُ غِنًى أَوْ يَكُونَ خَالِقٌ لِشَيْءٍ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعِبَادِ وَرَبُّ أَعْمَالِهِمْ وَالْمُقَدِّرُ لِحَرَكَاتِهِمْ وَآجَالِهِمْ، الْبَاعِثُ الرُّسُلَ إِلَيْهِمْ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ خَتَمَ الرِّسَالَةَ وَالنِّذَارَةَ وَالنُّبُوَّةَ بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ ﷺ فَجَعَلَهُ آخِرَ الْمُرْسَلِينَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ الْحَكِيمَ وَشَرَحَ بِهِ دِينَهُ الْقَوِيمَ وَهَدَى بِهِ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ.

---

[5] – سورة الأنعام: (59)

وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ يَمُوتُ كَمَا بَدَأَهُمْ يَعُودُونَ، وَأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ ضَاعَفَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَسَنَاتِ، وَصَفَحَ لَهُمْ بِالتَّوْبَةِ عَنْ كَبَائِرِ السَّيِّئَاتِ وَغَفَرَ لَهُمُ الصَّغَائِرَ بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ، وَجَعَلَ مَنْ لَمْ يَتُبْ مِنَ الْكَبَائِرِ صَائِرًا إِلَى مَشِيئَتِهِ، « **إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** »[6] وَمَنْ عَاقَبَهُ بِنَارِهِ أَخْرَجَهُ مِنْهَا بِإِيمَانِهِ فَأَدْخَلَهُ بِهِ الْجَنَّةَ، «**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ**»[7] وَيَخْرُجُ مِنْهَا بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ شَفَعَ لَهُ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِهِ، وَأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ خَلَقَ الْجَنَّةَ فَأَعَدَّهَا دَارَ خُلُودٍ لِأَوْلِيَائِهِ، وَأَكْرَمَهُمْ فِيهَا بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَهِيَ الَّتِي أَهْبَطَ مِنْهَا آدَمَ نَبِيَّهُ وَخَلِيفَتَهُ إِلَى أَرْضِهِ بِمَا سَبَقَ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ، وَخَلَقَ النَّارَ فَأَعَدَّهَا دَارَ خُلُودٍ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ وَأَلْحَدَ فِي آيَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَجَعَلَهُمْ مَحْجُوبِينَ عَنْ رُؤْيَتِهِ، وَأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا لِعَرْضِ الْأُمَمِ وَحِسَابِهَا وَعُقُوبَتِهَا وَثَوَابِهَا، وَتُوضَعُ الْمَوَازِينُ لِوَزْنِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، «**فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**»[8] وَيُؤْتُونَ صَحَائِفَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَأُولَئِكَ يَصْلَوْنَ سَعِيرًا.

وَأَنَّ الصِّرَاطَ حَقٌّ يَجُوزُهُ الْعِبَادُ بِقَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَنَاجُونَ مُتَفَاوِتُونَ فِي سُرْعَةِ النَّجَاةِ عَلَيْهِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَقَوْمٌ أَوْبَقَتْهُمْ فِيهَا أَعْمَالُهُمْ.

وَالْإِيمَانُ بِحَوْضِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَرِدُهُ أُمَّتُهُ لَا يَظْمَأُ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ، وَيُذَادُ عَنْهُ مَنْ بَدَّلَ وَغَيَّرَ.

---

6 - سورة النساء: (116)

7 - سورة الزلزلة: (7)

8 - سورة المؤمنين: (102)

وَأَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ وَإِخْلَاصٌ بِالْقَلْبِ وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ، يَزِيدُ بِزِيَادَةِ الْأَعْمَالِ وَيَنْقُصُ بِنَقْصِهَا فَيَكُونُ فِيهَا النَّقْصُ وَبِهَا الزِّيَادَةُ، وَلَا يَكْمُلُ قَوْلُ الْإِيمَانِ إِلَّا بِالْعَمَلِ، وَلَا قَوْلٌ وَلَا عَمَلٌ إِلَّا بِنِيَّةٍ، وَلَا قَوْلٌ وَلَا نِيَّةٌ إِلَّا بِمُوَافَقَةِ السُّنَّةِ.

وَأَنَّهُ لَا يَكْفُرُ أَحَدٌ بِذَنْبٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَأَنَّ الشُّهَدَاءَ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ وَأَرْوَاحَ أَهْلِ السَّعَادَةِ بَاقِيَةٌ نَاعِمَةٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، وَأَرْوَاحَ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ مُعَذَّبَةٌ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ وَيُسْأَلُونَ، « **يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ** »[9] وَأَنَّ عَلَى الْعِبَادِ حَفَظَةً يَكْتُبُونَ أَعْمَالَهُمْ وَلَا يَسْقُطُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَنْ عِلْمِ رَبِّهِمْ، وَأَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ يَقْبِضُ الْأَرْوَاحَ بِإِذْنِ رَبِّهِ.

وَأَنَّ خَيْرَ الْقُرُونِ الْقَرْنُ الَّذِينَ رَأَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَآمَنُوا بِهِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، وَأَفْضَلَ الصَّحَابَةِ: الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْمَهْدِيُّونَ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، وَأَنْ لَا يُذْكَرَ أَحَدٌ مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ إِلَّا بِأَحْسَنِ ذِكْرٍ وَالْإِمْسَاكِ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَأَنَّهُمْ أَحَقُّ النَّاسِ أَنْ يُلْتَمَسَ لَهُمْ أَحْسَنُ الْمَخَارِجِ وَيُظَنَّ بِهِمْ أَحْسَنُ الْمَذَاهِبِ.

وَالطَّاعَةُ لِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ وُلَاةِ أُمُورِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ، وَاتِّبَاعُ السَّلَفِ الصَّالِحِ وَاقْتِفَاءُ آثَارِهِمْ وَالاسْتِغْفَارُ لَهُمْ، وَتَرْكُ الْمِرَاءِ وَالجِدَالِ فِي الدِّينِ، وَتَرْكُ كُلِّ مَا أَحْدَثَهُ الْمُحْدِثُونَ.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

---

[9] – سورة إبراهيم: (27)

شرح هذه المقدمة الذهبية

قوله رحمه الله: « بَابٌ » بالرفع لأنه خبر للمبتدأ محذوف، والتقدير: هذا باب، وأصل ألفه واو، فقُلِبَتْ أَلِفًا، وهو في الأصل الطريق إلى الشيء، ويطلق على الأجسام حقيقة وعلى المعاني مجازا، وهو المراد هنا، فكأنه هو الطريق الذي يَسْلُكُ فيه القارئُ للوصول إلى ما تضمنه الموضوعُ من المعاني، ويُجْمَع على أبواب.

قوله رحمه الله: « مَا تَنْطِق بِهِ الْأَلْسِنَةُ » ما موصولة هنا وما بعدها صلة الموصول، والمعنى الذي تنطق، ولفظ « تَنْطِقُ » مأخوذ من المنطق بفتح الميم وإسكان النون وكسر الطاء، وهو الكلام، و« الْأَلْسِنَةُ » جمع لِسان، يُذَكَّر ويُؤَنَّثُ، وفيه المجاز العقلي، وهو إسناد الفعل إلى غير ما هو له، لأن الذي ينطق هو صاحب اللسان لا لسان نفسه.

قوله رحمه الله: « وَتَعْتَقِدُهُ الْأَفْئِدَةُ » تَعْتَقِد مَأَخُوذٌ من الْعَقْدِ بفتح العين، وهو شَدٌّ وشِدَّةُ وُثُوقٍ كما قال صاحب المقاييس،[10] ويُطلَقُ على الاتِّخَاذ وَالاقْتِنَاءِ، يُقَال: اعْتَقَد فلانٌ مالا، أي اتخذه واقْتَنَعهُ، و« الْأَفْئِدَةُ » جمع فُؤَادٍ، وهو مُرادف للقلب. والمعنى: الأشياء التي يَعْقِدُ عليها الإنسانُ قَلبَه بحيث يَرْسَخُ فيها ولا يَنْزِعُ عنها، فالعقيدة الإسلامية هي الأمور الدينية المكتسبة من أدلتها اليقينية التي يجب على المرء المسلم أن يؤمن بها ظاهرا وباطنا بحيث لا يُمَازِجُها شك ولا ريب، ولذلك شُقَّ اسمها

---

10 – انظر: (مقاييس اللغة) لأحمد بن فارس بن زكريا القَزْوِيني: ج (4) ص (86) بالتصريف.

من العقد الذي يعني الشد وشدة الوثوق، فكأن الْمُعْتَقِدَ أَوْثَق قلبَه بها بشدة بحيث لا تَنْفَكُّ عنه، والله تعالى أعلم.

وعلم الاعتقاد هو العلم بالمسائل الشرعية الاعتقادية المكتسبة من أدلتها اليقينية: الكتاب والسنة الصحيحة وفق فهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

قوله رحمه الله: « مِنْ وَاجِبِ أُمُورِ الدِّيَانَاتِ » أُمُور جمع أمر، وهو الشأن والحال، و « الدِّيَانَاتِ » جمع دِينٍ، وهو واحد عند الله كما قال: « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ» آل عمران: 19} وإنما جُمِعَ لاعتبار أنواع العبادات، والله تعالى أعلم.

الْكَلَامُ عَنِ الْإِيمَانِ

قوله رحمه الله: « مِنْ ذَلِكَ الْإِيمَانُ بِالْقَلْبِ، وَالنُّطْقُ بِاللِّسَانِ » أي من هذه الأمور الدينية التي يجب على المرء المسلم أن ينطق بها ويعتقدها: الإيمان بالقلب، والنطق باللسان، أي التلفظ بالشهادتين، والإيمان مصدر آمَنَ يُؤْمِنُ، واللفظ مشتق من الأَمْنِ بفتح الهمزة، وهو ضد الخوف، أي سكون القلب، ويطلق على التصديق، وقيل: هو الثِّقَةُ وإظهار الخضوع وقبول الشريعة، قاله الفَيْرُوزآبَادِيُّ في القاموس، والمشهور عند اللُّغَوِيِّينَ وغيرهم من العلماء أنه هو التصديق فقط، وبه جزم الزمخشري في أساس البلاغة وحكى الزُّبَيْدِيُّ اتفاق اللُّغَوِيينَ على ذلك في تَاجِ العَرُوس، وهذا هو المشهور عند مُعظم الناس في تعريف الإيمان، أعني: الإيمان هو التصديق فقط، لكن شيخ

الإسلام تقي الدين ابن تيمية ذكر في كتاب الإيمان أن هناك فرقا بين لفظي الإيمان والتصديق من وجوه، وأن الإيمان ليس هو التصديق فقط:

أحدها: أن بينهما فرقا من جهة التَّعَدِّي، وذلك أنه يقال لِمُخْبِرٍ: صدقه ولا يقال آمنه بل آمن به أو آمن له، فالصدق يتعدى بنفسه بخلاف الإيمان، فلا يقال آمنته إلا من الأمان الذي هو ضد الإخافة، فاقتضى ذلك عدمَ تَرادُفِهما.

الوجه الثاني: أن لفظ الإيمان ليس مرادفا للفظ التصديق في المعنى، فإن كل مُخْبِرٍ عن مُشاهدة أو غيب يقال له: صَدَقْتَ كما يقال له: كَذَبْتَ، وأما لفظ الإيمان فلا يستعمل إلا في الخبر عن غائب، وذلك أنه مشتق من الأمن، فإنما يستعمل في الأخبار عن الأمور الغائبة ونحوها مما يدخلها الريب، ولهذا لم يُوجَد قَطُّ في القرآن وغيره لفظ آمن له إلا في هذا النوع.

الثالث: أن لفظ الإيمان في اللغة لم يقابل بالتكذيب كلفظ التصديق، بل المعروف في مُقَابَلةِ الإيمان لفظ الكفر، يقال: هو مؤمن أو كافر، والكفر لا يختص بالتكذيب، بل لو قال: أنا أعلم أنك صادق لكن لا أتبعك بل، أُعَادِيك وأُبْغِضُك وأُخَالِفُكَ ولا أُوَافِقُك لَكَانَ كفره أعظمَ، فلما كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التكذيب فقط، عُلِمَ أن الإيمان ليس هو التصديق فقط.

الرابع: أن الإيمان في اللغة مشتق من الأمن الذي هو ضد الخوف، فهو متضمن مع التصديق معنى الائتمان والأمانة كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق، أما التصديق فلا يتضمن شيئا من ذلك. ثم قال: تعريفه بالإقرار أقرب من تعريفه بالتصديق، لأن الإقرار يتضمن أمرين اثنين هما قول القلب وهو التصديق، وعمل القلب وهو الانقياد، أي تصديق الرسول فيما أخبر، والانقياد له فيما أمر.[11] وقد استوفى الكلام عن هذه المسألة في الفتاوي، قلت: ومن دَقَّقَ النظر في هذه الأوجه الأربعة التي ذكرها تقي الدين شيخ الإسلام بِعَيْنٍ مُنْصِفَةٍ وقلب خاشع يتبين له أن ما ذكره تقي الدين في هذه المسألة هو التحقيق، والله تعالى أعلم.

ومعنى الإيمان بالقلب والنطق باللسان، هو تصديق الرسول فيما جاء به من الأخبار، والانقياد له في ذلك باطنا، والتلفظ بالكلمة التي تتضمن في طَيَّاتِها جميعَ ذلك، وهي التي عَبَّرَ عنها المصنفُ بقوله: « أن الله إله واحد لا إله غيره... » والكلام عن كلمة الشهادة: « لا إله إلا الله » يَسْتَدعِي مُجَلَّدا ضخما، فبالاختصار هي أصل الإسلام ومِفْتَاحُه ورَكِيزَةُ دعوةِ المرسلين وفارقة بين الإيمان والكفر وبها يُحْقَنُ الدِّمَاءُ، وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ

---

[11] – انظر: (مجموع الفتاوي لشيخ الإسلام ابن تيمية) مجموعة ابن قاسم النجدي، ج: (7) ص: (529 ...)

النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ »[12] الحديث، وهي أول دَعائم الإسلام الخمس التي لا يقوم إلا بها، وفي الصحيحين عنه رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ »[13] الحديث.

وأما معنى هذه الكلمة الطيبة: « لا إله إلا الله » أي لا معبود بحق إلا الله، وكل معبود سواه فهو باطل، فالكلمة مُتَضمِّنةٌ للنفي والإثبات، فلفظ « لا إله » يَنْفِي العبادة عن كل ما سوى الله تعالى، و« إلا الله » يُثْبِتُ جَمِيعَ العبادةِ لله جل ثناؤه وحده بدون شريك، والنفي والاستثناء في مثل ما ذهب إلا زيد يُفِيدُ الحصرَ باتفاق أهل العلم بالعربية، ولفظ: «إله» بكسر الهمزة وفتح اللام من أَلَهَ بفتح الهمزة واللام بمعنى عَبَدَ، ومنه اشتقاق لفظ « الله » وقد تضمنت كلمة الإخلاص ما تضمنه الإيمان بالله من أنواع التوحيد، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

---

[12] – أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ التوبة: (5) برقم: (25) ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله: (22)

[13] – أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم: (8) ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام: (16) واللفظ له.

الإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ

وقد ذهب السلف الصالح قَاطِبَةً من الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى أن الإيمان قول وعمل، وأن الأعمال داخلةٌ في مُسَمَّى الإيمان، وحكى الشافعي إجماعهم على ذلك، وكذلك حكاه ابن عبد البر عن الفقهاء والمحدثين في التمهيد، وحكى الْلَّالَكَائِيُّ في أصول اعتقاد أهل السنة عن الإمام البخاري أنه لقي أكثر من أَلفِ رَجُلٍ أهلِ العلم أهلِ الْحِجازِ ومكةَ والمدينةِ والكُوفَةِ والبَصرَةِ وواسِطٍ وَبَغْدَادَ والشامِ ومِصْرَ، لقيهم كَرَّاتَ قَرْنًا بعدَ قَرْنٍ وذكر أسماءَ بعضِهم فما رأى أحدا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل، وكذلك حكى عن أبي ثَوْرٍ إبراهيمَ بنِ خالدٍ الكَلْبِيّ الفَقِيه وسُفيَانَ الثَّوْرِي وأبي حَاتِمٍ وجماهير السلف الصالح من التابعين ومن بعدهم، وكذلك حكاه أبو عُبَيْدَ القَاسم بن سَلَّامٍ في الإيمان عن كثير من السلف، وكذا محمد بن نَصرٍ الْمَرْوَزِيُّ في السنة، ورواه عبد الرزاق في الْمُصَنَّف عَنْ سُفيانَ الثوري، ومالك، والأَوْزَاعي، وابن جُرَيْجٍ، ومَعْمَر، وخلق سواهم من الأئمة الأعلام، وذِكْرُ أسماء من تمسك بهذا المذهب من سلف الأمة يستدعي مجلدا ضخما لأنه أمر متواتر مشهور عنهم، وذهب الْكَرَّامِيَّةُ على رأسهم زَعِيمهم محمد بن كَرَّامٍ إلى أن الإيمان هو النطق فقط، وقالت الْمُرْجِئَةُ: هو الاعتقاد والنطق فقط، وقالت الْمُعْتَزِلَةُ على رأسهم: زعيمهم وَاصِل بن عَطَاءٍ الْغَزَّال: هو النطق والاعتقاد والعمل، فالكَرَّامِيَّة أَسْقَطوا الإقرار والعملَ، والمرجئة أسقطوا العمل، والْمُعتَزلة قالوا كأهل السنة، وقالت الْجَهْمِيَّةُ على رأسهم: جَهْمُ بنُ صَفْوَانَ: الإيمان هو المعرفة بالقلب، وهذا باطل فاسد مخالف لظواهر النصوص الشرعية

وليس بصحيح لأنه يسلتزم أَنَّ فِرْعون وهامان وأبا لَهبٍ وأبا جهلٍ وأمثالهم كانوا مؤمنين كَامِلِي الإيمان، وخالف أبو حنيفةَ جماهيرَ العلماء وقال الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالْجَنَانِ كما قالت المرجئة، وذكر ابن أبي العِزِّ الْحَنَفِي أن الاختلاف الذي بين أبي حنيفة والجمهور اختلاف صوري، لأنهم جميعا مُتَّفِقون على أن مُرتكِب الكبيرة لا يخرج عن الإيمان، وأنه في مشيئة الله تعالى، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه، فالنزاع نزاع لفظي لا يترتب عليه فساد اعتقاد، قلت: والحق ما ذهب إليه جماهير السلف الصالح، وقد تظاهرت النصوص التشريعية على ما ذهبوا إليه، وسيأتي ذكرها في مواضعه، وأما ما ذكره ابن أبي العز الحنفي رحمه الله من أن الاختلاف الذي بين أبي حنيفة وجماهير العلماء اختلاف صوري لفظي ليس على إطلاقه، بل يكون صوريا لفظيا من جهة، واعتقاديا من جهة أخرى،[14] لأنه يترتب عليه أشياء.[15] ثم إن من السلف من زاد الاعتقاد في تعريفه، وزاد بعضهم النية، وكل ذلك صحيح

---

14 – ووجه تسميته بالصوري كون الأعمال من لوازم الإيمان عند الجمهور وعند أبي حنيفة وأصحابه المتقدمين، فإنهم متفقون على أن الإيمان يزيد بزيادتها وينقص بنقصها، والإخلال بها مما يترتب عليه الوعيد كما سيأتي الكلام المستوفى عن هذه المسألة إن شاء الله تعالى، فصار الخلاف من هذه الحيثية صوريا لفظيا، إذ أن الخلاف في جانب الأعمال وثمرتها لا في الجانب الاعتقادي، وأما كونه اعتقاديا، فالمرجئة ينكرون زيادة الإيمان ونقصانه بزيادة الأعمال والعكس، فجعلوا مسألة الولاء والبراء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما في معنى ذلك مما لا محل له من الاعتبار في الإيمان، فصار الخلاف من هذه الحيثية اعتقاديا، والله تعالى أعلم.

15 – ومن أكبر ما يترتب على ذلك عدم الاعتبار بالأعمال الصالحات في مسمى الإيمان من حيث الزيادة، وبالسيئات من حيث النقصان، فيؤدي ذلك إلى إهمال القول بزيادة الإيمان ونقصانه، ونفي

لا مُعَارَضَةَ فيه كما قال تقي الدين في الفتاوي، ومما يؤيد هذا المذهب ما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[16] ووجه دلالة الحديث على ذلك نفي الإيمان بارتكاب إحدى هذه الكبائر، فاقتضى ذلك أن تركها من مسمى الإيمان، وسيأتي ذكر الأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه في موضعه، والله تعالى أعلم.

الْفَرْقُ بَيْنَ الْإِيـمَانِ وَالْإِسْلَامِ

وقد اختلفوا في الفرق بين الإيمان والإسلام اختلافا كبيرا وصنفوا في ذلك التصانيفَ، فذهب جماعة من السلف إلى أن الإيمان والإسلام شيء واحد لا فرق بينهم وبه جزم الْمُزَنِيُّ صاحب الشافعي وأبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، وذهب فريق منهم إلى أن هناك فرقا بينهما وبه جزم أحمد بن حنبل، قلت: والحق ما ذهب إليه من رجح القول بالتفريق، وهم المحققون، وقد تظاهرت النصوص الشرعية على ما ذهبوا إليه،

ذلك مما يخالف مقضى ظواهر النصوص الواردة في الإيمان كما فعله المرجئة وغيرهم، فإذن لا يجوز التساهل في مثل هذا حتى يُفتَحَ باب إنكار ما وردت به النصوص الشرعية السماوية ويُدْخِلُ في ذلك كُلُّ ذي رأي رَأْيَهُ، والله أعلم.

[16] – أخرجه البخاري في كتاب المظالم والغصب، باب النُّهْبَى بغير إذن صاحبه: (2475) ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي: (57)

قال تعالى: « قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ » الحجرات: 14}

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ، قَالَ: مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ، قَالَ: مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، قَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الْأَمَةُ رَبَّهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الْإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبُنْيَانِ فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ تَلَا النَّبِيُّ ﷺ "إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ" لقمان: 34، الآية. ثُمَّ أَدْبَرَ فَقَالَ: رُدُّوهُ، فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا فَقَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ »[17] وفي حديث عمرَ رضي الله عنه: « بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ

---

[17] – أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان: (50) ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان: (9)

الْإِسْلَامِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ »[18] الحديث، فجعل النبي ﷺ الدين ثلاث درجات، أدناها الإسلام وأوسطها الإيمان وأعلاها الإحسان فاقتضى ذلك تَغايُرَها وأنها ليست بأمر واحد، فكل محسن مؤمن مسلم، وكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنا وكذلك ليس كل مؤمن محسنا، ومما يؤيد ما ذهب إليه من رجح القول بالفرق ما رواه أحمد في المسند ومحمد بن نصر الْمَرْوَزِيُّ في السنة من طريق حَمَّاد بن زيد عن أيوبَ عن أبي قِلَابَةَ عن رجل من أهل الشام عن أبيه: « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: أَسْلِمْ تَسْلَمْ، قَالَ: وَمَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: أَنْ تُسْلِمَ قَلْبَكَ لِلَّهِ وَأَنْ يَسْلَمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدِكَ، قَالَ: فَأَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: الْإِيمَانُ، قَالَ: وَمَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَبِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ » الحديث، وظواهر هذه النصوص المذكورة تدل على أن هناك فرقا بين الإيمان والإسلام، وأن بينهما عموما وخصوصا، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم

---

[18] – أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان: (8)

مؤمنا، وهذا هو التحقيق في هذه المسألة إن شاء الله تعالى، والأدلة على ذلك غير محصورة وما ذكرنا هنا غَيْضٌ من فَيْضٍ، والله تعالى أعلم.

أَرْكَانُ الْإِيمَانِ

وللإيمان سِتَّةُ أَرَكَانٍ، وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وقد جاء ذكر هذه الأركان في الكتاب والسنة في عِدة مواضع، منها قوله تعالى: « لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُم قِبَلَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالمَلَائِكَةِ وَالكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ » البقرة: 177}

وقوله تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا » النساء: 136}

وجاء ذكر الركن السادس في قوله تعالى: « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » القمر: 49}

وقد تقدم لك حديثُ جبريلَ عليه السلام حيث سَأل النَّبِيَّ ﷺ عن الإيمان فقال: « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ »

وهذه هي أصول الإيمان وأركانه الستة التي لا يصير الإنسان مؤمنا بل مسلما إلا بها، والكفر ببعضها يستلزم الكفرَ ببقيتها، وسيأتي التعريف بِكُلٍّ منها والكلام الْمُسْتَوْفَى عَنهُ على الترتيب إن شاء الله تعالى.

الْكَلَامُ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللهِ تَعَالَى

ومن أعظم أصول الإيمان وأهمها الإيمان بالله تعالى، وهو الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء ومَلِيكُه وخالقه ورَازِقُه ومُحْيِيه وَمُمِيتُه، وأنه هو الذي يستحق أن يُفرَد بالعبادة وحده من صلاة، وصوم، وحج، ودعاء، ورجاء، وخوف، ورغبة وما في معناها من خصائصه تعالى، وأنه الْمُتَّصِفُ بصفات الكمال كلها الْمُتَنَزِّه عن كل نقص.

ومن خلال دِراسة هذه الْجُملات الآنفة الذكر يتبين لنا أن الإيمان بالله تضمن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وسيأتي الكلام الْمُسْتَوْفَى عن كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة على التفصيل، وبالله توفيق.

أ- تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ:

لفظ الربوبية مشتق من اسم الرب، والرب يُطلق على المالك والسيد، والتَّرْبِيَةُ مصدر رَبَّاهُ يُرَبِّي، وهي تَبْلِيغُ الشيء إلى كماله شيئا فشيئا، سُمِّيَ اللهُ رَبًّا لأنه خالق كل شيء ومُرَبِّيه، ونُسِبَ هذا التوحيد إليه لأنه يعني إفراد الله تعالى بخصائصه الربانية، فتوحيد الربوبية إذن هو إفراد الله تعالى بخصائصه الربانية من الخلق، والملك، والإحياء،

والإماتة، والتصوير، والإرْزاق، والإنعام، والعطاء، والمنع، والنفع، والضر، والتدبير التام، والسيطرة التامة، وغير ذلك من تصرفاته التي لا يشاركه فيها أحد، ولا يصير العبد مؤمنا حتى يؤمن بأن الله هو الذي تفرد بذلك كله، وقد تظاهرت النصوص الشرعية على ذلك، منها قوله سبحانه وتعالى: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُم تَعْلَمُونَ » البقرة: «21 . 22»

وقال تعالى: « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُوْلِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » آل عمران: (26 . 27)

وقال تعالى: « قُلْ أَئِنَّكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ العَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ » فصلت: (12 . 9)

وقال ﷺ في وصيته لابن عباس رضي الله عنهما: «وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[19] أخرجه الترمذي في صفة القيامة من طريق اللَّيْثِ بن سعد، والأدلة من الكتاب والسنة على ربوبية الله تعالى أكثر من أن تُحْصى، فَقَلَّمَا تجد سورةً من السور القرآنية خالية عن ذكر هذا النوع من التوحيد أو الإشارة إليه.

وهناك أدلة عقلية على ربوبية الله تعالى، منها التَّفَكُّر في آيات الله الكونية، لا شك ولا ريب أن من تَفكَّر في آيات الله الكونية من السماء وما اشتملت عليه من الكواكب والنجوم والشمس والقمر، والأرض وما اشتملت عليه من الجبال الشامخات والأشجار، والبحار وما اشتملت عليه من المخلوقات، وتَعَاقُب كُلٍّ من الْمَلَوَيْنِ[20] الآخر، ونزول الماء من السماء وغير ذلك من الآيات الكونية يتبين له من ذلك أن لهذا الكون مُوجِدًا له مُدبرًا لشؤونه مُنفردًا بالربوبية، ويؤيد ذلك قوله تعالى: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالصَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»

[19] – أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة، باب: (2516)

[20] – قوله: (الْمَلَوَيْنِ) بفتح الميم واللام مثنى الْمَلَوِ، وهو في الأصل امتداد شيء إلى زمان ما، يقال: أملا عليه الزمان إذا طال به، وأملاه الله أي أمهله وطول له، والمراد بالْمَلَوَيْنِ هنا: الليل والنهار، وَسُمِّيَا بذلك لأن كُلًّا منهما يَمتد إلى مدة مضروبة له، والله أعلم.

البقرة: 164} أي إن في ذلك لعلامات الدالة على انفراد الله تعالى بالربوبية لكل ذي عقل سليم.

ثم إن هذا التوحيد لا ينفع وحده، ولا يَخْرُجُ الإنسانُ من دائرة الكفر إلى دائرة الإيمان بالإقرار بالربوبية فقط، بل لابد من الإقرار بتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات إضافةً إلى ذلك، لأن توحيد الربوبية ليس هو الغاية من إرسال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، فإن كثيرا من الكفار والمشركين أقروا به ومع ذلك لم يُخْرِجْهُم من دائرة الكفر إلى دائرة الإسلام، لأنهم لم يُوَحِّدوا الله في ألوهيته وفي أسمائه وصفاته فأشركوا به في العبادة وجَحدوا أسماءَه وصفاتِه، ولذا قال الله تعالى: « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » يوسف: 106}

أي يؤمنون بالله في ربوبيته ولا يُوَحِّدونه في ألوهيته وفي أسمائه وصفاته، بل يعبدون غيره ويَجْحَدُون أسماءه وصفاته، ويؤيد ذلك ما روى ابن أبي حاتم الرازي في تفسيره (12885) عن ابن عباس عن تفسيره لهذه الآية: « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » أَيْ إِنْ « تَسْأَلْهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ؟ وَمَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ يَقُولُونَ: اللهُ، فَذَلِكَ إِيمَانُهُمْ وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ » وروى عن مجاهد (12886): « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » قَالَ: « يَقُولُونَ: اللهُ رَبُّنَا، اللهُ يُمِيتُنَا، اللهُ يَرْزُقْنَا » وقد تظاهرت الآيات القرآنية على أن هؤلاء الكفار يُقِرُّون بربوبية الله تعالى، منها: قوله تعالى: « قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

* قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ » المؤمنون: (84 – 89)

وقال تعالى: « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ » العنكبوت: (61) وغير ذلك كثير، فتبين من ذلك أن الإقرار بربوبية الله تعالى لا يُدْخِلُ صَاحِبَه دائرةَ الإيمان، لأنه أمر مَرْكُوزٌ في الفِطَرِ البشرية، بل لا بد من الإقرار بألوهية الله قولا وفعلا، والله تعالى أعلم.

2- تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ:

والنوع الثاني من أنواع التوحيد الثلاثة المذكورة هو توحيد الألوهية، والألوهية مأخوذة من الإله، يقال: أَلَهَ وَتَأَلَّهَ إذا تَعَبَّدَ، وسُمِيَّ اللهُ إِلَـهًا لأنه معبود، ويشهد عليه قول رُؤْبَةَ:

لِلَّهِ دَرُّ الْـغَــانِـيَـاتِ الْـمُـدَّهِ[21] سَـبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأَلُّهِي.

فتوحيد الألوهية هو إفراد الله تعالى بالعبادة، بأن يعتقد العبد أن الله تعالى هو الذي يستحق وحده أن يُفْرَدَ بالعبادة من الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، والذبح، والتوكل، والخوف، والرجاء، والرهبة، والرغبة، والاستغاثة، والاستعانة فيما لا يقدر عليه أحد سوى الله، وغير ذلك من خصائصه الإفرادية، وهذا النوع هو أساس دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم والغاية القُصوى من إرسالهم والمقصود من إيجاد

[21] – قوله: (المده) بضم الميم وفتح الدال المشددة جمع الْمَدْهِ على وزن المدح لفظا ومعنى، يقال: مَدَهَهُ يَمْدَهُهُ، أي مَدَحَهُ يَمْدَحُهُ، وقيل: المدح خاص بالنِّعةِ والْهَيْئِةِ والجمال، والمدح عام في كل ما يدعو إلى الْمَدْحِ كما حكاه صاحب اللسان، والمراد بِالْمُدَّهِ: أي الْمَمْدُوحَات، والله تعالى أعلم.

الثقلين الجن والإنس، والنصوص الشرعية مُتظاهرة على ذلك، قال تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » الذاريات: 56}

وقال تعالى: « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » الأنبياء:25}

وقال: « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » النحل: 36}

وروى البخاري من طريق هَمَّام عن قتادة عن أنس عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: « بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ ﷺ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا أَخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: يَا مُعَاذُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ »[22]

وهذه النصوص تدل على وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة القولية والبدنية، وأن ذلك هو الغاية من إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام والمقصود من إيجاد البشرية، وعليه يقع الجزاء والثواب يوم المعاد، وهو مِحْوَرُ الخصومة بين الرُّسُل وأُمَمِهم، ولأجله شُرِع القِتال وكانت العاقبة لِجُنْدِ الله، وانهزم جُنْد الشيطان فانقلبوا هنالك خاسرين.

[22] – أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب إرداف الرجل خلف الرجل: (5967) ومسلم: (30)

الْكَلَامُ عَنِ الْعِبَادَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا

لفظ العبادة في الأصل يدل على الذُّلِ والْخُضوع، ومنه بَعِيرٌ مُعَبَّدٌ، أي مُذَلَّلٌ، قال طَرَفَةُ:

إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا وَأُفْرِدْتُ إِفْرَادَ الْبَعِيرِ الْمُعَبَّدِ.

أي الذَّلُول الْمُذَلَّل، ومن ذلك طريق مُعَبَّدٌ، أي مَسْلوك مُذَلَّل بِوَطْئَةِ الأَقدَام، قال تعالى: « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا » الملك:15}

وأما معنى العبادة شرعا: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، كذا عرفها تقي الدين ابن تيمية، وتُبْنَى هذه العبادةُ على ثلاثة أساس، وهاك قائمةً بها:

1- إخلاص المحبة للمعبود المولى جل وعلا: لا شك ولا ريب أن المحبة هي أصل الأصول في العبادة، بل، هي أصل الدين كله، فبكمالها يكمل وبنقصها ينقص، فلا بد من إخلاص المحبة لله تعالى، ولا يجوز للعبد أن يشرك بالله في المحبة بأن يتخذ نِدا يحبه كما يحب الله تعالى أو يحبه أكثر مما يحب الله، ومن فعل ذلك فقد ضل عن سواء السبيل، ولذا نَبَّه الله على ذلك فقال: « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذَ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ » البقرة: (165) وقد ذكر الحافظ ابن القيم في الداء والدواء أن كل إرادة تمنع كمالَ المحبة لله ورسوله ﷺ فهي

مُعارضة لأصل الإيمان أو مُضْعِفَةٌ له، فإن قَوِيتْ حتى عارضت أصل الحب كانت كفرا أو شركا أكبرا.[23]

وحقيقة إخلاص المحبة لله تعالى، تقديم محبته ولوازمها على محبة كل شيء سواه، وأَنْ يَكُون الْجَالِب لِمَحبة كل ما سواه مَحَبَّتُه، أي لأن الله يحبه، وهذا هو أعظم أساس العبادة، فلا تتحقق إلا به، والله أعلم.

2- كمال الرجاء: قال تعالى عن عباده الصالحين: « وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ » الإسراء: (57)

3- كمال الخوف: قال تعالى: « وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ » الإسراء: (57) فهذه هي الْأُسُسُ التي تُبْنَى عليها العبادة، فلا تقوم العبادة بدون واحد منها، ثم لا بد أن تكون العبادة خالصة لله تعالى، وأن تُوَافِقَ سنةَ النبي ﷺ، وهَذَانِ شَرطَانِ لا بد من تَوَفُّرِهِما في العبادة، فإذا فُقِد شرطٌ منهما فالعبادة باطلة فاسدة.

---

[23] – انظر: الداء والدواء ص: (228، 229) بتصريف يسير.

أَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ

وقد تقدم لك أن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه قوليا كان أو فعليا. ثم إنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام بحسب ما تقوم به الأعضاء، وهي:

1- العبادة القَلْبِيَّةُ: وهي أعمال القلب من المحبة، والبغض، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والإنابة، ونحو ذلك.

2 – العبادة اللِّسَانِيَّةُ: وهي كل ما ينطق به اللسان من أعمال الطاعة، كالتحميد، والتسبيح، والتكبير، والتهليل، وتلاوة القرآن، والاستغفار، ونحوها.

3 – العبادة الجوارحية: وهي كل عمل يقوم به الأعضاء من الصلاة والصيام والحج والجهاد وإماطة الأذى عن الطريق ونحوها. ثم إن للعبادة أنواعا كثيرة نذكر لك بعضها فيما يأتي.

الأول: التوكل، وهو في الأصل الاعتماد على الشيء، والمراد به هنا: تفويض الأمور إلى الله سبحانه ظاهرا وباطنا اعتمادا عليه وثِقةً به مع الأخذ بالأسباب لتحصيل المنافع ودفع المضار، قال تعالى: « وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ » المائدة: {23} والتوكل على الله تعالى من لوازم الإيمان، فبِكماله يَكْمُل وبنقصه ينقص، والتوكل على الله لا ينافي الأخذ بالأسباب، وهو الأفضل من التفويض مطلقا بخلاف ما زعمه الحافظ في الفتح من أن التفويض أفضل تبعا لغيره، وهذا غير صحيح، وكل من تتبع سيرة النبي ﷺ وسيرة أصحابه يجدها مملوءة بالأخذ بالأسباب وترجيحه على

التفويض، بل، معظم الأمور البشرية تجري بالأسباب طَبِيعَةً وعادةً، فالماء سبب لإنبات النباتات التي فيها الرزق للناس، والنار سبب لإنضاج الأطعمة، ولو شاء الله لأنبت هذه النباتات في لحظة واحدة بدون إسقائها الماء، فيأكلها الناس بدون الاحتياج إلى طبخها، ففهم من هذا أن التوكل أمر مطلوب من الشارع، وأيضا التفويض قد يؤدي إلى التكاسل بحيث يُضْعِفُ هِمَّةَ صَاحِبِه عن القيام بما ينفعه في عِيشَتِه الدُّنْوِيَّةِ، والإسلام عبادة واجتهاد، وتجارة وكسب، والله تعالى أعلم.

الثاني: الدعاء: والدعاء نوعان: دعاءُ مَسألةٍ ودُعاءُ عبادةٍ، فدعاء المسألة هو سؤال العبد الله في قضاء حوائجه الدنوية والأخروية، وأما دعاء العبادة، فهو القُرْبات الظاهرة والباطنة من صلاة وصيام وحج وإنفاق المال في الطُّرُقِ المشروعة وما شابه ذلك من الطاعات، وكل هذا لا يَستحق لأحدٍ إلا الله، ولا يجوز أن يُشْرَك به شيء في ذلك، قال تعالى: « فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » غافر:14}

وقال تعالى: « وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ » يونس: 106}

وقال ﷺ: « إِذَا سَأَلْتَ فَسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ » أخرجه الترمذي في صفة القيامة من طريق اللَّيْثِ بن سعد. وفي هذا الحديث الأمر بإفراد الله تعالى بالدعاء بنوعيه، ففي قوله: « إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ » الأمر بإفراد الله تعالى بدعاء المسألة، وفي قوله: « وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ » الأمر بإفراد الله تعالى بدعاء العبادة، والله أعلم.

الثالث: والرابع، والخامس: المحبة، والخوف، والرجاء، وهذه الثلاثة من أهم أنواع العبادة، وقد تقدم لك أنها هي الأُسُسُ التي تُبْنَى عليها العبادة.

السادس: الاستغاثة: مأخوذة من الغَوْث بفتح الغين وإسكان الواو، وهو النُّصْرة والمعونة، والاستغاثة على وزن استفعال، وهي طلب الغوث، كالاستنجاد طلب نَجْدٍ، والاستسقاء طلب سَقْيٍ، وزيادة همزة الوصل والسين والتاء على الفعل الثلاثي يدل على طلب حصول هذا الفعل. ولا يجوز للعبد أن يستغيث بغير الله تعالى فيما لا يقدر عليه أحد إلا الله، وأما الاستغاثة بمخلوق فيما يقدر عليه فهو جائز مع الاعتقاد أن النفع والضر كلاهما بيد الله تعالى، قال تعالى: « وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ».

السابع: الاستعانة: مأخوذة من العَوْن، وهو الْمُسَاعدة، والاستعانة طلب العون، أي المساعدة، ولا يجوز ذلك إلا من الله تعالى، قال تعالى: « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » الفاتحة: 4} وقال ﷺ: « وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ »

الثامن: الاستعاذة: مأخوذة من العَوْذِ، وهو الالتجاء إلى الشيء، والاستعاذة هي طلب اللُّجُوء إلى الشيء، والمراد بها هنا طلب الْحِمَاية من الله تعالى من المكروه، قال تعالى: « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » الناس: 1}

التاسع: الذَّبح: وهو إِزْهاق الروح بإراقة الدم على وجه الخصوص تقربا إلى المولى جل وعلا، قال تعالى: « قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِيَ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ » الأنعام: 162}

العاشر: النَّذْر: وهو إلزام المسلم نفسه عمل طاعة لله تعالى لم يكن له لازما بأصل الشرع، قال تعالى في مدح عباده الصالحين: « يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا » الإنسان: 7}.

وهناك أنواع كثيرة لم نذكرها خشية التطويل، ولا يجوز صرف أي نوع من أنواع العبادة إلى غير الله تعالى، ومن فعل ذلك فقد ضل ضلالا بعيدا، وقد بالغ النبي ﷺ في حِمَاية جَنَابِ هذا التوحيد وسد كل ذريعة مُؤدِّية إلى ما يُناقِضُه من الشرك وما شابهه، وهذا مَبسوط في كتب التوحيد والعقيدة، فنسأل الله تعالى أن يُثَبِّتَ أقدامنا على توحيده واجتناب كل ما يُنَاقِضه.

3 – تَوْحِيدُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ:

والنوع الثالث من أنواع التوحيد المذكورة هو توحيد الأسماء والصفات، وهو إثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه العزيز، وأثبته له نبيه ﷺ في سنته الْمُطَهرة، من أسمائه الحسنى وصفاته العُلْيا بدون تَشْبِيهٍ ولا تَمْثِيلٍ ولا تَكْيِيفٍ ولا تَعطِيلٍ، لأن إثبات وجود الله أصلا وإفراده بالعبادة يستلزم إثبات أسمائه وصفاته، إذ أنه لا يتصوَّر وجُود ذَاتٍ بدون أسماء وصفات، وهذا لا يكون إلا في حق الْمُمْتَنِعَاتِ والْمَعْدُومَاتِ.

ومن خلال قراءة هذا التعريف يتبين للعزيز القارئ أن توحيد الأسماء والصفات يقوم على ثلاثة أُسُسٍ، ولا يصح إلا بإثباتها، وهي:

الأول: تنزيه الله سبحانه وتعالى عن مُشَابَهةِ الْمَخلوقات، وأنَّ الاشتراك بين الخالق والمخلوق في الاسم لا يدل على الاشتراك بينهما الحقيقية والكيفية، لأن صفات الله

وأسمائه لا تَتَماثَل مع غيرها من الأسماء والصفات، قال تعالى: « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ» الشورى: 11}

الثاني: الإيمان بكل ما جاء في القرآن الكريم والسنة الصحيحة الشريفة في إثبات الصفات والأسماء لله المولى جل وعلا، وإمرار هذه النصوص كما هي من غير تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تكييف كما كان السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم يَمُرونها كذلك، وهم أعلم الناس بمراد الله تعالى ورسوله ﷺ بكلامهما.

الثالث: قطع الطمع عن إدراك حقيقة كيفية هذه الصفات بإثباتها لله على الوجه الذي يليق بعظمته وجلاله سبحانه وتعالى، وأن يتبادر إلى أذهان القارئ أو السامع ما يليق بجلال المولى جل وعلا، لا ما يليق بالمخلوقات.

فلا بد من هذه الأسس الثلاثة في هذا التوحيد، ولا يقوم بدون أحدها، فينبغي للمسلم أن يجتنب التمثيل والتشبيه والتكييف والتعطيل في آيات الصفات، فالتمثيل هو تشبيه صفات الخالق بصفات المخلوق، كأن يقول قائل: يد الله كيد فلان! تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، قال تعالى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ» فنفى الله سبحانه أن يُمَاثِلَه شيء، وأثبت لنفسه صفتي السمع والبصر، فتبين من ذلك أن إثبات ما أثبته الله لنفسه لا يستلزم تشبيهه بخلقه. والتكييف هو تعيين كيفية الصفة والهيئة، كأن يقول قائل: كيفية سمع الله كذا وكذا! وأما التعطيل فهو نفي صفات الله تعالى بالكلية كصنيع بعض الجهمية قَبَّح الله وجوههم.

قال نُعَيْمُ بْنُ حماد الْخُزَاعِيُّ شيخ الإمام البخاري: « مَنْ شَبَّهَ اللهَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ أَنْكَرَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَيْسَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولُهُ تَشْبِيهًا »[24] وسيأتي الكلام عن صفات الله تعالى في موضعه إن شاء الله تعالى.

الرُّكْنُ الثَّانِي مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ

الإيمان بالملائكة، والملائكة جمع مَلَكٍ بفتح الميم واللام، مأخوذ من الْأَلُوكِ بفتح الهمزة وضم اللام وإسكان الواو، وهو الرِّسالة، كذا جزم به الخليل، ويطلق على تَحَمُّلِ الرسالة، يقال أَلِكْني إلى فلان، أي تحمل رسالتي إليه، قال النَّابِغةُ:

أَلِكْنِي يَا عُيَيْنَ إِلَيْكَ قَوْلًا ... سَتَحْمِلُهُ الرُّوَاةُ إِلَيْكَ عَنِّي.

وقال الآخر:

أَلِكْنِي إِلَى قَوْمِي وَإِنْ كُنْتَ نَائِيًا ... فَإِنِّي قَطِينُ الْبَيْتِ عِنْدَ الْمَشَاعِرِ

أي بَلِّغْ رسالتي، وسميت الملائكة بذلك لأنهم يحملون رسائل ربهم ويُبَلِّغُونها إلى حيث أمرهم بتبليغها، والملائكة نوع من مخلوقات الله تعالى الغَيبِيَّة، لهم أجسام نُورانية قادرة على التَّصَوُّرِ والتَّشَكُّلِ بِالصُّوَرِ البشرية، ولا يُحْصي عددهم إلا الله، ولا يقدر بشر أو جن على رؤيتهم في خِلْقَتهم الأصلية، إذ ليس لهم جسم مادي يُدْرَك بالحواس البشرية أو الجنية، وهم ليسوا كبني آدم، فلا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يحتاجون إلى النساء، وإنما خلقهم الله سبحانه لعبادته والقيام بأموره التي خلقهم لأجلها، فلا يعصونه فيما

---

[24] – أورده الذهبي في كتاب العرش، خ: (2) الرقم: (209)

أمرهم به ويفعلون ما يؤمرون، وقد أخبرنا نبينا ﷺ عن المادة التي خلقوا منها، وهي النور، ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ »[25] وقد تظاهرت الأدلة القطعية على وجود الملائكة، قال تعالى: « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ » البقرة: {285}

وقال تعالى: « الحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا » فاطر: {1}

وقال تعالى: « وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ » البقرة: {30}

وقال ﷺ لما سأله جبريل عن الإيمان: « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ »

وقال ﷺ: « خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ »

وكل هذه النصوص تدل على وجود الملائكة، ومن أنكر وجودَهم فقد كفر بالله ورسوله بهذه الأدلة المذكورة.

25 – أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة: (2997)

صِفَاتُ الْمَلَائِكَةِ:

وقد وردت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية بذكر صفات الملائكة، فقد بَيَّنَ القرآن أنهم ليسوا على درجة واحدة في الخلق، بل يتفاوتون في ذلك، فَبَيَّنَ لنا أن منهم من له جَناحان ومنهم من له ثلاثة أَجْنِحَةٍ ومنهم من له أربعة وهلم جرا، قال تعالى: « الحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ المَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ » فاطر: 1}

ووردت بعض النصوص بوصفهم بالقوة والشدة، قال تعالى: « عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى » النجم: 5 – 7}

وقال أيضا: « يَأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُم وَأَهْلِيكُم نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ » التحريم: 6}

ووصفهم الله تعالى بأنهم كِرام بَرَرة، فقال سبحانه: « بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ » عبس: 15. 16}

ووصف إمامهم جبريل عليه السلام بالحُسن والجَمال فقال سبحانه: « ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى » النجم: 6} وقد فُسِّرَ « مرة » بِعِدَّة مَعانٍ، ومن ذلك، أي: ذو خَلْقٍ طويل حسن، حكاه القرطبي عن قَتادَةَ بْنِ دِعَامةَ السَّدُوسِي.

وجاء وصفهم بِعِظَم الأجسام، وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ وَعَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ »[26]

وقال ﷺ عن قول الله تعالى: « وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ المُبِينِ » التكوير: 23}: « إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ »[27]

وغير ذلك من الصفات التي ثبتت في الكتاب والسنة النبوية الدالة على علو منزلتهم عند الله وأن علاقتهم بربهم هي العلاقة العُبودية الخالصة والخضوع الْمُطْلَقُ لأوامره سبحانه وتعالى، وأنهم ليسوا بآلهة يُعْبَدُ مع الله ولا بَنَات له كما زعمه المشركون، وقد كذبهم المولى جل وعلا فيما ذهبوا إليه، فقال عز من قائله: « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِم وَمَا خَلْفَهُم وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ » الأنبياء: (26 - 28)

خَصَائِصُ الْمَلَائِكَةِ

للملائكة عليهم السلام خصائص يمتازون بها عن غيرهم من خلق الله، ومن هذه الخصائص: أنهم فُطِرُوا على عبادة الله تعالى وحده لا يَفْتُرُون عنها ولا يَسْأَمُون، قال

---

26 - أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب في الجهمية: (4727)

27 - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ النجم: (13) برقم: (177)

سبحانه: « وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ » الأنبياء: (19 – 20)

ومنها أن مساكنهم في السماء لكنهم ينزلون إلى الأرض لتنفيذ أوامر معبودهم، قال تعالى: « يُنَزِّلُ المَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » النحل: (2)

ومنها أنهم لا يعصون معبودهم في أوامره ويُبادرون إلى تنفيذ أوامره، قال تعالى: «عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُم وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » التحريم: (6)

وقال أيضا: « لَا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ » الأنبياء: (27)

ويَدْخُل في ذلك الأنبياء والرُّسُلُ خُصوصا نبينا محمد ﷺ، لأن الأنبياء لا يعصون الله فيما أمرهم به ويُبَادِرون إلى القيام بأوامره، وغير ذلك من الخصائص.

وَظَائِفُهُمْ

ولِكُلٍّ من الملائكة عليهم السلام وظيفة خاصة وَكَّلَه الله تعالى بها، فمنهم من وكله بالوحي يُرْسِله الله تبارك وتعالى بالرسالة إلى رسله صلوات الله وسلامه عليهم هداية للبشرية وسعادة لهم، والقائم بهذه المهمة هو جبريل عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: « وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الـمُنْذِرِينَ» الشعراء: (192 – 194)

وهذه هي أَهَمُّ الوظائف وأعلاها، إذ أنها تتعلق بحياة البشرية الدينية والاجتماعية والاقتصادية، وكان جبريل يأتي النبي ﷺ على صورة إنسان شَاب جَلِيدِ ذِي جَمال وَهَيْئَة حسنة، ويأتيه غالبا في صورة دِحْيَة بْنِ خَلِيفَةَ الْكَلْبِي، ولم يره النبي ﷺ في صورته الأصلية إلا مرتين.

ومنهم الْمُوَكَّلُ بقبض الأرواح، وهو مَلَك الموت، قال تعالى: « قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ المَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم تُرْجَعُونَ » السجدة: (11)

ويقال اسمه عَزَرَائِيلُ[28] بمعنى عبد الله، وقد اشتهر بهذا الاسم، وله أعوان من الملائكة الْمُوَكّلِينَ بِقَبضِ الأرواح، قال تعالى: « وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ » الأنعام: (61)

ومنهم الْمُوكَّلُ بِالْقَطْرِ والنَّباتِ، وهو مِيكَائِيلُ عليه السلام، وكان من أفضل الملائكة مَنزِلَةً عند الله تعالى، وجاء ذكره مع جبريل عليهما السلام في القرآن الكريم، قال تعالى: « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ» البقرة: (98) وتخصيصهما بالذكر وعطفهما على الملائكة من باب التشريف والتعظيم لشأنهما.

ومنهم الْمُوَكَّلُ بالصُّوْرِ، وهو إِسْرَافِيلُ عليه السلام، وَكَّلَهُ الله بالنَّفخِ في الصُّوْرِ، وهو قَرْنٌ عظيم يَنْفَخ فيه ثلاث نَفخَاتٍ، نَفخة الفَزعِ ونَفخة الصَّعِقِ ونفخة البَّعث، قال تعالى: «وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ» النمل: (87)

[28] – ولم يثبت اسم (عزرائيل) في القرآن الكريم، ولا في شيء من الكتب السنة، وإنما ورد في بعض الآثار الإسرائيلية، فاشتهر بهذا الاسم، والذي جاء في القرآن والسنة من اسمه (ملك الموت) كما قال تعالى: « قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ المَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم تُرْجَعُونَ » السجدة: (11) و(مَالِكُ) كما قال سبحانه: « وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ » الزخرف: (77)

وقال سبحانه: « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ » الزمر: (68)

فالنفخة التي جاءت في سورة النمل هي نفخة الفزع، واللَّتَانِ في سورة الزُّمر هما نَفخَتَا الصَّعِق والبعث، وقد ورد ذكر إسرافيلَ مع جبريلَ ومِيكائيلَ عليهم السلام في السُّنَّة النبوية، وروى مسلم من طريق عمرَ بن يُونُس عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عَوْفٍ رضي الله عنهما قال: «سَأَلْتُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ...»[29]

وهؤلاء الملائكة الثلاثة هم أفضل الملائكة منزلة عند ربهم، أولهم جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل صلوات ربي وصلامه عليهم، وللملائكة وظائف كثيرة غير التي ذكرنا، ولا حاجة لذكرها كلِّها خشية الإطْنَاب، والله تعالى أعلم.

عَدَدُهُمْ

والملائكة كثيرون لا يحصيهم إلا الله، قال تعالى: « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ » المدثر: (31)

وروى البخاري من طريق هَمَّامٍ عَن قَتادة بن دِعَامة عن أنس بن مالك عن مالك بن صَعْصَعَة رضي الله عنهما، وفيه قال النبي ﷺ: « فَرُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَسَأَلْتُ

[29] – أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه: (770)

جِبْرِيلَ فَقَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ »[30]

حَقِيقَةُ الْإِيمَانِ بِالْمَلَائِكَةِ

ويتضمن الإيمان بالملائكة عِدةَ أمور، ولا يتحقق إلا بها، وهاك قائمة بها:

1- الإيمان بوجودهم وتصديق كل ما جاء فيهم، فمن أنكر شيئا من ذلك فَلَيْس بِمسلم فضلا عن أن يكون مؤمنا، لأنه مُكذِّب لله ورسوله، وقد تقدم لك ذكر ما ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ عن الملائكة، فإنكار وجود الملائكة يستلزم تكذيب الله ورسوله ﷺ، وقد عَلِمْتَ أنه لا خِلاف بين المسلمين في كفر فاعل ذلك.

2- الإيمان بأسماء من ورد ذكره على وجه الخصوص في الكتاب والسنة، كَجِبرِيلَ ومِيكَائِيلَ وإِسْرافِيلَ ورِضْوَان ومَلَكِ الْمَوْت وملكِ الجبالِ ومَالِكٍ خَازِنِ النار ورَقِيبٍ وعَتِيدٍ ومُنْكَرٍ ونَكِيرٍ وغيرهم ممن وردت النصوص بالإخبار عنهم بالوصف أو بذكر وظائفهم.[31]

3- الإيمان بما ورد به الكتاب والسنة من الوظائف التي يقومون بها، وقد تقدم لك ذكر بعض وظائفهم.

---

30 – أخرجه البخاري مطولا من طريق المذكور في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة: (3207)

31 – وكُلٌّ من الأسماء أو صفات وظائف هذه الملائكة المذكورة قد صح ذكره في الكتاب والسنة إلا (رِضْوَانًا) فإنه ما ورد به نص صحيح إلا ما يؤخذ من الإسرائيلية، والله تعالى أعلم.

4- الإيمان بأن لهم مَنْزِلةً عَظيمَةً ومَكانةً عَلِيَّةً عند ربهم تبارك وتعالى، قال تعالى:

« بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ » الأنبياء: (26 ـ 27) وقال أيضا: « بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ » عبس: (15 – 16)

5- الإيمان بأن الملائكة خَلْقٌ مِن مَخلوقاتِ اللهِ تعالى، لا يَملِكُون نَفعا ولا ضرا وليس لهم شيء في تصريف الأمور، ولا يستحقون شيئا من العبادة، وإنما هُمْ عِباد من عباد الله تعالى، كما أنه لا يجوز صَرف شيء من أنواع العبادة لهم، قال تعالى: «وَلاَ يَأْمُرَكُم أَنْ تَتَّخِذُوا المَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالكُفْرِ بَعَدَ إِذْ أَنْتُم مُسْلِمُونَ» آل عمران: (80)

نَتِيجَةُ الْإِيمَانِ بِالْمَلَائِكَةِ

وقد عَلِمْنَا مَنْ هُمُ الملائكة وما خصهم الله سبحانه به من الأوصاف والأحوال وما وَزَّعَهُ لهم من الوظائف، وهلم جرا، وفيما يلي ذكر نتيجة الإيمان بهم بالاختصار،

1- الفرق بين المؤمن الصادق وبين الكاذب في إيمانه، لأن الملائكة عَالَمٌ غَيْبِيٌّ لا يَقْدِرِ علَى اطِّلَاعِهِ أَحَدٌ من البشر إلا من خصه الله من الأنبياء، فالإيمان بوجودهم وتصديق كل ما جاء به الكتاب والسنة عنهم من جملة الإيمان بالأمور الغيبية، وذلك دليل على صدق الإنسان في إيمانه وشدة وُثُوقه بخالقه.

2- تسليم الحاكمية لله المولى جل وعلا، وزيادة خشية الله سبحانه وتعالى والخضوع واسْتِكَانة له تبارك وتعالى والاستقامة على أمره، لأن الشُّعُورَ بِوُجود الملائكة، والإيمان بأن منهم الْمُوَكَّلِينَ بِمُراقبة الأعمال والأقوال الإنسانية وشهادتهم على كل ما يصدر عنهم يستلزم كلَّ ما ذكرنا من تسليم الحاكمية له سبحانه وتعالى وزيادة خشيته والخضوع له جل وعلا.

3- العلم بِعَظمَةِ الله وجلالته سبحانه وتعالى وكمال قُدْرَتِه وسُلْطانه على خلقه، لأن من تدبر هذه المخلوقات مِنْ عِظَمِ خِلْقَتِهِمُ الْجَسدِيَّةِ، وشِدَّة قُوَّتِهِمْ حيث لو أُمِر أحدُهم بِتَدمِير الدُّنْيا لَدَمَّرَهَا كلَّها في لَحظَةٍ واحدة يعلم أن الله قادر على كل شيء، مُسَيْطِر عليه.

وهناك نتائج أخرى غير التي ذكرنا عَدَلْنَا عن ذِكرها خشية التطويل، وبالله التوفيق.

الرُّكْنُ الثَّالِثُ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيـمَانِ

الإيمان بالكُتُبِ: والركن الثالث من أركان الإيمان الستة الإيمان بالكتب، والكتب جمع كِتَاب، وهو مَصْدَرٌ مِن كَتَب يَكْتُبُ كِتَابَةً، ويدل على جمع الشيء إلى الشيء، وسُمِّيَ الكتاب كتابا، لما يُجْمَعُ فيه من الحروف والكلمات لتركيب جُملات مفيدة، والمراد بالكتب هنا الكتب التي تضمنت في طَيَّاتِها كلامَ الله تعالى الذي أوحاه إلى أنبيائه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم، وقد أخبرنا الله تعالى في كتابه بأسماء بعض هذه الكتب الْمُنَزَّلَة وسَكتَ عن بعضها وهاك قائمةً بأسماء الكتب المذكورة في القرآن:

1- التَّوْرَاةُ: وهي كتاب الله تعالى الْمُنَزَّلُ على نبي الله موسى صلوات الله وسلامه عليه، قال تعالى: « إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً » المائدة: (44)

وقال أيضا: « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ مِنْ بَعدِ مَا أَهْلَكْنَا القُرُونَ الأُوْلَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ » سورة القَصَصِ: (43)

وروى الشيخان من حديث أنس حديث الشفاعة مرفوعا، وفيه: « فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَهَا وَلَكِنِ ائْتُوا مُوسَى عَبْدًا آتَاهُ اللهُ التَّوْرَاةَ وَكَلَّمَهُ تَكْلِيمًا »[32]

2- الإِنْجِيلُ: وهو كتاب الله تعالى المُنَزَّلُ على نبي الله عيسى صلوات الله وسلامه عليه، قال تعالى: « وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ » المائدة: (46)

3- الزَّبُورُ: وهو كتاب الله تعالى الْمُنَزَّلُ على نبي الله داود صلوات الله وسلامه عليه، قال سبحانه: « وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا » النساء: (163) وحكى بعض العلماء أن فيه مِائَة وخمسين سُورةً ليس فيها حُكم ولا حلال ولا حرام، وإنما هي حِكَمٌ وَمَوَاعِظُ.

4- صُحُفُ إبراهيمَ وموسى: أنزل الله تعالى هذه الصحف على نبييه إبراهيم وموسى صلوات الله وسلامه عليهما، قال تعالى: « إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى » الأعلى: (18 – 19) وقال أيضا: « أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى » النجم: (36 - 37)

5- القُرْآنُ الْكَرِيمُ: وهو كتاب الله تعالى أنزله على خاتم أنبيائه وإمام رُسُلِه نبينا محمد بن عبد الله مصدقا لما بين يديه من الكتب الآنفة الذكر، وهو آخر الكتب السماوية

[32] – أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدِي ﴾ ص: (75) برقم: (7410) ومسلم في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها: (193)

نُزُولا، وأحكمها وأكملها وأشرفها وناسخ لما قبله من الكتب الْمُنَزَّلة الماضية، قال تعالى: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ» المائدة: (48)

قوله: « مُهَيْمِنًا عَلَيْهِ » أي مُؤْتَمِنٌ عليه، كذا قاله ابن عباس وسعيد بن جُبَير، وأصله مُؤَيْمِنٌ فَأُبْدِلَ الْهَمْزَةُ هَاءً فصار مُهَيْمِنًا، كذا قَالَهُ الْمُبَرَّدُ مُحَمَّدُ بنُ يَزِيدَ الْأَزْدِيُّ، وقال قَتَادةُ: (مُهَيْمِنًا) أي شاهدا، أي وشاهدا على الكتب السماوية الماضية وحاكما عليها.

والقرآن مُعجِزةٌ بَاهِرَة خَالِدة لرسول الله ﷺ، أَعجزتِ العربَ الفُصَحاءَ البُلَغَاءَ الذين يَعِيشُون في بِيْئَةٍ أَدبيةٍ بَلَاغِيةٍ، ويَفْتَخِرُونَ بما وَهَبَهُمُ اللهُ تعالى مِنَ الْفَصَاحَةِ الْبَيَانِية، والْجَزَالَةِ الْبَلَاغِيَّةِ، والْبَرَاعَةِ الْفَنِّيَّةِ، فأَخْرَصَهُم القُرآنُ بجواهر حِكَمِه، وأَرْوَعِ بَيَانِيه، وأَعْذَبِ كَلامِه، وكَشْفِهِ الْحِجَبَ عن الْغُيُوبِ الماضيةِ والْمُسْتَقْبِلة، وبأُسلوبه الفَرِيد، وبَرَاعَتِه الْفَنِّيَّةِ، وهو هِدايةٌ لِعُموم الثقلين بَشِيرا ونذيرا، قال تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالِمِينَ نَذِيرًا» الفرقان: (1)

وقد تَكَفَّلَ الله المولى جل وعلا بِحِفظ القرآن من التحريف والتبديل والنقص والزيادة وعبث العابثين بخلاف غيره من الكتب السالفة، قال تعالى: « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » الحجر: (9)

وقال تعالى: « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » فصلت: {41}

وللقرآن عدة أسماء وأوصاف، وهاك بعضها:

1- القرآن: وهذا هو أشهر أسمائه، وقد سماه الله بذلك في عدة مَواضِعَ في القرآن، قال تعالى: « وَأُوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » الأنعام: (19)

2- الفُرْقَانُ: أي الذي يُفَرِّقُ بين الحق والباطل، قال تعالى: « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » الفرقان: (1)

3- الكِتَابُ: قال تعالى: « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ » المائدة: (48)

وأما أوصافه فهاك القائمة ببعضها:

1- 2 - الْهُدَى - والشِّفَاءُ: قال تعالى: « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ » فصلت: (44)

3- النُّورُ: قال تعالى: « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا » النساء: (174)

4- الكَرِيمُ: قال تعالى: « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » الواقعة: (77)

ولابد للمسلم أن يعتقد أن القرآن ناسخ لجميع ما تقدمه من الكتب السماوية الماضية، فلا يجوز العمل بالتوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب المنزلة حتى لليهود والنصارى إلا إذا وافق ما فيها القرآن الكريم، وليعتقد المسلم أنه لا يُوْجَد اليوم كِتابٌ تَصْلُح نِسبَتُه إلى الله تعالى حاشا القرآن العظيم لِمَا لَحِقَ هذه الكتب من التغيير والتحريف والتبديل، وضياع نسختها الأصلية، ولم يبق في أيدي الناس إلا تَرَاجُمُها، ويَشْهَدُ

على ذلك ما تَضمنَتْه من العقائد الباطلة والتَّصَوُّرَاتِ الفاسدة عن الْمَعبود المولى جل وعلا وعن رسله صلوات الله وسلامه عليهم التي لا تجوز نِسبتها إلى رجل صالح فضلا عن أن تُنْسَبَ إلى الباري.

ثم إنه يلزم المسلم أن يعتقد أن القرآن كلام الله تعالى وليس بمخلوق كما زعمه الزنادقة أعداء الدين، وسيأتي الكلام المستوفى عن هذه المسألة في موضعه إن شاء الله تعالى.

الرُّكْنُ الرَّابعُ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ

الإِيمَانُ بِالرُّسُلِ: والرسل جمع رسول، وهو مشتق من الإرسال بمعنى التوجيه، ومنه قوله تعالى: «وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ» النمل: (35)

أي مُوَجِّهة إليهم بهدية، وأما معناه الشرعي: هو مَنْ أوحى الله إليه بشرع إلى قوم لِيُبَلِّغُهُم رسالة الله تعالى، والفرق بين الرسول والنبي أن كُلَّ رَسولٍ نَبِيٌّ وليس كل نبي رسولا، فالنبي أعم من الرسول والرسول أخص منه، وقد اشتهر على أَلْسُنِ الناس أن النبي هو من أوحى الله إليه بشرع ولم يأمره بالتبليغ، هذا مشهور لكنه غير صحيح يرده قوله تعالى: « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ » الحج: (52)

فدَلَّتِ الْآيةُ على أن كُلًّا من الرسول والنبي مُرسَل مأمور بالتبليغ، ومع ذلك بينهما تَغَايُرٌ ما يَحصل به الْمُقابَلةُ مع تَعَلُّقِ الإرسال بهما، والله أعلم.

أُولو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ

وأُولُو الْعَزْمِ من الرسل هم ذَوُو الْحَزْمِ وَالصَّبرِ، قال تعالى: « فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » الأحقاف: (35)

وقيل: هم الذين قَطعُوا العلائق بينهم وبين من لم يؤمن بهم من قومهم، كذا جزم به ابن فارس صاحب مَقَايِيسِ اللُّغَةِ، بِنَاءً على أن العزم في الأصل القَطعُ والصَّرمُ، واختلف العلماء فيهم، فذهب جماعة إلى أن أولو العزم هم جميع الرسل، وهو مَروِي عن ابن عباس واختاره علي بن مَهدِي الطَّبرِي وابنُ زَيْدٍ، و«مِن» في قوله: «مِنَ الرُّسُلِ» لِبَيَان الجنس لا للتبعيض، وقال مجاهد: هم الذين أُمِرُوا بالقتال وجاهدوا الكفار، وبه قال الشَّعْبِيُّ وَالْكَلْبِيُّ، وقال ابن عباس: هم خمسة: محمد، وإبراهيم، ونوح، وموسى، وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم، وبه قال مجاهد وعَطاءُ الْخُرَاسَانِيُّ، وهو المشهور عند جماهير العلماء المتأخرين، وقد ذكر الله هؤلاء الخمسة في سورة الأحزاب فقال: « وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَم وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقًا غَلِيظًا » الأحزاب: (7)

أَفْضَلُ الرُّسُلِ

ولا شك ولا ريب أن أفضل الرسل، بل أفضل خلق الله على الإطلاق نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه، وقد خَصَّهُ الله تبارك وتعالى بخصائص عظيمة وفَضَّلَه على غيره من النبيين والمرسلين وسائر الخلائق، ومن هذه الخصائص:

1- عموم رسالته جميع الثقلين الجن والإنس بخلاف غيره من المرسلين، قال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا» سبأ: (28) ولا يَسَعُ أَحَدًا منهم إلا اتِّبَاعُهُ وتَسلِيمُ الحاكمية له فيما شجر بينهم.

2- أن رسالته ناسخة لجميع الرسالات السماوية، وقال ﷺ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إلا أن يَتَّبِعَنِي »[33] خَرَّجَه أَحمد في الْمُسند.

3- أنه صاحب الشفاعة العُظمى، وهي شفاعته لأهل الْمَوْقِف في أن يُقْضَى بينهم، وهي التي عَبَّرَ عنها الله بقوله: « عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا» الإسراء: (79)

4- أنه سيد ولد آدم يوم القيامة، وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ»[34]

5- أنه خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وبه انْتهَتِ النُّبوةُ، فمن ادَّعى النبوة بعده فقد كفر بالله وَمَرَقَ عن ملة المسلمين، قال تعالى:

---

[33] - أخرجه أحمد في المسند برقم: (3/ 387)

[34] - أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق: (2278)

« مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » وهذا، وللنبي ﷺ خصائص كثيرة يستدعي استقصاؤها مجلدات، وقد أفرد بعض العلماء هذه المسألة بالتصنيف، كالسيوطي في « الخصائص الكبرى » وغيره، والله أعلم.

حَقِيقَةُ الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ

ولا يتحقق الإيمان بالرسل إلا بأمور، وهاك قائمةً بها:

1- تصديقهم جميعا في ما جاؤا به من غير تفريق، فمن صَدَّقَ بعضَهم وكَذَّب البعض فقد كذبهم جميعا، ولا ينفعه ذلك التصديق، بل وفِعْلُه هذا من موجبات الكفر الأكبر، قال تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقًّا » النساء: (150 – 151)

2- طاعتهم فيما أَمَروا به، واجتناب نواهيهم، قال تعالى: « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ » النساء: (64) وقال أيضا: «وَأَطِيعُ اللهَ وَأَطِيعُ الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا» المائدة: (92)

3- اعتقاد أنهم بَلَّغُوا جميع ما أُمِرُوا بتبليغه للناس، قال تعالى: « لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا » الجن: (28)

4- مَحَبَّتُهم وَمُوَالَاتُهُمْ جميعا وبُغض من أبغضهم، قال تعالى: « وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ » المائدة: (56)

5- اعتقاد كونهم رِجَالا لا نِساء، قال تعالى: « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ » الأنبياء: (7)

6- اعتقاد كونهم بشرا كَسَائِرِ البشرية، وأنهم لم يكونوا من الْملائكةِ ولا الْجِنَّةِ ولا

خلقٍ آخَرَ ولم يُخَصُّوا بِطَبَائِعِ أُخرى غير الطَّبائِعِ الإنسانية، لَكِنَّ اللهَ خَصَّهم بِمَزِيَّة ودرجة وفَضَّلَهم على غيرهم من البشرية، قال تعالى: « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً » الرعد: (38)

وقال أيضا: « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المُرْسَلِينَ إِلَّا أَنَّهُم لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ » الفرقان: (20)

7- اعتقاد تفضيلهم على من سواهم من الناس، وأنه لا يُقارِبُهم أَحَدٌ من الناس في ناحية الْمَنْزِلِةِ والرِّفْعَةِ والدرجة مَهْمَا بَلَغَ من الصلاح والتقوى، ومن اعتقد أن هناك وَلِيًّا أفضل من نبي أو رسول أو يُساويه في الفضل فقد كفر بالله، لأنه مُكَذِّبٌ لله ورسوله ﷺ.

8- الإيمان بأسماء من ورد الكتاب والسنة بذكر اسمه، وقد جاء ذكر خمسة وعشرين في القرآن، وهم: آدم، ونوح، وإدريس، وصالح، وإبراهيم، وهُودُ، ولُوطُ، وداود، وسليمان، ويونس، وإسماعيل وإسحاق ابنا إبراهيم، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشُعَيْبُ، وموسى، وهارون، وعيسى، وَاليَسَعُ، وذُو الْكِفْلِ، وزكريا، ويحي، وإِلْيَاسُ، ومحمد صلوات الله وسلامه عليه، وقد ورد ذِكْرُ ثَمَانِيةَ عَشَرَ منهم في سورة الأنعام، قال تعالى: « وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَا وَيَحْيَ وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَاليَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا

فَضَّلْنَا عَلَى العَالَمِينَ» الأنعام: (83 – 86) وجاء ذكر بقيتهم في مواضع أخرى من القرآن.

9- اعتقاد أنَّ نَبِيَّنا محمدا صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء والمرسلين وأفضلهم دَرجةً وَأعلاهم مَنزلةً عند الله، وأَنَّهُ لا يَسَعُ أَحَدًا اتِّبَاعُ نبي من الأنبياء بعد بعثته ﷺ إلا اتباعه حتى النبي المتبوع نفسه، لأن رسالته ﷺ ناسخة لجميع سائر الرسالات السماوية الماضية.

وهذا، والكلام عن الإيمان بالرسل يستدعي مجلدا ضخما نكتفي بهذا، لأن المقصود بيان الإيمان بالرسل على وجه التوسط، وبالله التوفيق.

الرُّكْنُ الْخَامِسُ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ

الإيمان باليوم الآخر: وهو يوم القيامة، وسُمِّيَ ذلك الْيَومُ اليَومَ الآخِرَ لأنه هو آخر أيام الدنيا، وبِيَوْمِ القِيامة لأن الناس يقومون فيه أمام ربهم لِيُحاسِبهم على ما عملوا، والإيمان باليوم الآخر هو الاعتقاد الجازم بأن هناك يوما يَجْمع الله فيه الأولين والآخرين من الجن والناس بعد بعثهم من قبورهم لِيَجْزِيهم بما عملوا من خير أو شر، ويَدْخُلُ في ذلك الإيمان بكل ما سَيَقَعُ في ذلك اليوم مما أخبر به الكتاب والسنة، وقد ورد الكتاب بذكر هذا اليوم بِعِدَّة أسماء، منها اليوم الآخر، قال تعالى: « قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِاليَوْمِ الآخِرِ » التوبة: (29)

ومنها القيامة، قال تعالى: « لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ » القيامة: (1) ومنها الساعة، قال تعالى: «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا» محمد: (18)

ومنها الواقعة، قال تعالى: « إِذَا وَقَعَتِ الوَاقِعَةِ » الواقعة: (1) ومنها الغاشية، قال تعالى: « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغَاشِيَةِ » الغاشية: (1)

ومنها القارعة، قال تعالى: «القَارِعَةُ * مَا القَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا القَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالفَرَاشِ المَبْثُوثِ » القارعة: (1 – 4)

ومنها الحاقة، قال تعالى: « الحَاقَّةُ * مَا الحَاقَّةُ » الحاقة: (1 – 2) وغير ذلك.

ويتضمن الإيمان باليوم الآخر عِدَّةَ أُمُورٍ، وهاك قَائِمةً بها:

1- ومن ذلك الإيمان بأشراط الساعة: والأشراط جمع شرط، وهو العلامة، ومنه قوله تعالى: «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا » محمد: (18) أي علاماتها، وتنقسم هذه العلامات إلى ثلاثة أقسام:

أ – العلامات الماضية: وهي التي ظَهرَتْ ومَضَتْ، منها بِعْثَةُ النبي ﷺ، وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ[35] كَهَاتَيْنِ، وَضَمَّ السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى»[36] فَدَلَّ الحديث على أن بِعْثَتَهُ ﷺ من أشراط الساعة. ومنها انشقاق القمر، قال تعالى: « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » القمر: (1) وكان ذلك في أول بَعثِهِ ﷺ. ومنها خُروجُ نَارٍ من أرض الْحِجاز تُضِيء أَعْنَاقَ الإِبِلِ ببصرى، وذكر النووي في الْمِنْهَاج أن هذه النار قد خرجت في زمانهم بالمدينة، وذلك في سنةِ أَرْبعٍ وَخَمسِين وَسِتِّمِائة (154) في يوم الجمعة خامس جمادى الآخرة في بعض أَوْدِيَةِ الْمَدينة.

ب – العلامات الصغرى: وهي التي تَظْهَر ولَمْ تَنْقَضِ، منها خروج دَجَّالِينَ زُهَاءَ ثلاثين كُلٌّ يَدَّعِي أنه نَبِي مُرْسَل، وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

---

[35] – (والساعةَ) بنصب الساعة، لأن الواو واو المعية كما جزم به أبو البقاء العُكْبَري، وأجاز القاضي عِياض وغيره الرفع، لكن جزم القاضي بأن الرفع أحسن بأنها نزلت منزلة الموجود، فيكون ذلك مبالغة في تحقق مجيئها كما قاله صاحب الفتح، وهو الذي مال إليه، والله أعلم.

[36] – أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: « بعثت أنا والساعة كهاتين » برقم: (6504)

قال رسول الله ﷺ: « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِينَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ »[37]

ومنها أن تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَها وتَطَاوُلُ الْحُفَاةِ الْعُرَاةِ رِعَاءِ الشَّاءِ في الْبُنْيَانِ، وفي حديث جبريل المشهور: « فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟ قَالَ: أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ »[38]

ومنها كثرة الزَلاَزِل وظُهور الْخَسْفِ كما يشاهد ذلك كل من يعيش في هذا الزمان، وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ وَتَكْثُرَ الزَّلاَزِلُ»[39]

ج – العلامات الكبرى: وهي التي تُعَقِّبُهَا السَّاعةُ إذا ظَهرَتْ، وهي عَشْرُ عَلاماتٍ كما ثبت في حديث حُذَيْفَةَ بن أَسِيدٍ الْغِفَارِيّ الذي رواه مسلم من طريق إسحاق بن رَاهُويَه عنه رضي الله عنه قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي غُرْفَةٍ وَنَحْنُ أَسْفَلَ مِنْهُ، فَاطَّلَعَ فَقَالَ: « مَا تَذْكُرُونَ؟ » فَقُلْنَا: السَّاعَةَ، قَالَ: « إِنَّ السَّاعَةَ لاَ تَكُونُ حَتَّى تَكُونَ عَشْرُ آيَاتٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَالدُّخَانُ، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ، وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا،

---

37 – أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام: (3609)

38 – أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، (29)

39 – أخرجه البخاري في كتاب الاستسقاء، باب ما قيل في الزلازل والآيات: (1036)

وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرَةِ عَدَنٍ تَرْحَلُ النَّاسَ، وَنُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ » وقال أَحَدُ الرُّوَاةِ فِي العاشرة: رِيحٌ تُلْقِي النَّاسَ فِي الْبَحْرِ.[40]

وجاء في بعض الأحاديث ذكرُ الْمَهْدِي، وروى أبو داود من طريق سفيان عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ ـ لَطَوَّلَ اللهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ ـ حَتَّى يَبْعَثَ فِيهِ رَجُلًا مِنِّي ـ أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي ـ يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمَ أَبِي ـ يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا »[41] وروى أيضا من طريق ابن الْمُسَيّبِ عن أُمِّ سَلمَةَ رضي الله عنها قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «الْمَهْدِيُّ مِنْ عِتْرَتِي مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ»[42]

وهذا، والكلام التفصيلي عن أشراط الساعة يَسْتَدعِي مُجَلَّدًا ضَخْمًا، وليس مرادنا الاستِقصَاء، والمقصود بيان الأمور التي يتضمنها الإيمان باليوم الآخر التي لا يتحقق إلا بها، ولا يصح إيمان المرء حتى يؤمنَ بذلك اليومِ وجميع ما أخبر به الله في كتابه وأخبر به رسوله ﷺ في سنته الشريفة من مُقَدَّمَاتِه من الْمَوتِ، وعذاب القبر، ونَعِيمه، وسؤال مُنْكَرٍ ونَكِيرٍ، وجميع الْمُقَدَّمَاتِ الكُبْرَى والصُّغْرَى، وما سَيَقَعُ فيه من البعث بعد الموت، والحساب، والجزاء، والْمِيزان، والصراط، والحوض، والجنة، والنار، وغيرها من الأمور الغيبية التي أخبر بها الكتاب والسنة، وسيأتي لك بيان بعضها في موضعه

---

40 – أخرجه مسلم في كتاب الفتن، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة: (2901)

41 – أخرجه أبو داود في كتاب المهدي، باب: (4282) وهو حسن.

42 – أخرجه أبو داود في المصدر السابق: (4284) وهو حسن كسابقه.

إن شاء الله تعالى، والحاصل أن الإيمان بالله لا يتحقق بدون الإيمان باليوم الآخر، والإيمان باليوم الآخر لا يتحقق بدون الإيمان بجميع ما ورد في الكتاب والسنة من مقدماته وما سَيَقَعُ فيه وبَعده، وبالله التوفيق.

الرُّكْنُ السَّادِسُ الرُّكْنُ الْأَخِيرُ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ

الإيمان بِالْقَضَاءِ وَالقَدَرِ، والقضاء بفتح القاف والضاد، وهو في الأصل إنفاذ أمر لجهته مع إحكامه وإتقانه، ومنه قوله تعالى: « فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ » فُصِلَتْ: (12) أي أحكم خَلْقَهُن، وأما معناه الشرعي: هو ما قضى الله تعالى في خلقه من إيجادهم وما في معنى ذلك من تَصَرُّفاتِه فيهم.

والقدر بفتح القاف مصدر من قَدَّرْتُهُ أُقَدِّرُهُ إذا أَحَطتُ بِمِقْداره، والمراد به هنا ما قدَّره الله تبارك وتعالى في الأزل لخلقه مما يُصِيبُهم لا مَحَالة، والفرق بين القضاء والقدر أن القدر هو تقدير الشيء قبل قضائه وإنفاذه، والقضاء هو إكماله وإنفازه، فتبين من ذلك أن القدر هو التَّقْدِيرُ والقضاء هو التنفيذ، وهما أمران مُتلازِمَان لا يَنْفَكُّ أَحَدُهما عن الآخر، لأن أَحدَهما بِمَنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بِمنزلة البِناء وهو القضاء، فمن رَام الفَصلَ بينهما فقد رام هَدمَ البِنَاءِ ونَقْضَهُ، كذا قاله ابن الأثير في النهاية: ج: (4) ص: (125)

وإذا اجتمع هَذَان اللَّفظَانِ في الذِّكْرِ افْتَرَقَا في المعنى، وإذا افترقا في الذِّكْرِ دَخل أَحَدُهما في معنى الآخر، وسيأتي لك الكلام الْمُسْتَوفَى عن هذه المسألة إن شاء الله تعالى، والله تعالى أعلم.

نَوَاقِضُ الْإِيمَانِ

والنواقض جمع ناقض مأخوذ من النَّقض، وهو نَكْثُ الشيء وإبطاله، والْمُراد به هنا ما يَفسُد به أَصْلُ الإيمان بحيث يُخْرِجُ الإنسانَ من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر، ونواقض الإيمان على ثلاثة أقسام: اعتقادية، وقولية، وعملية، فالاعتقادية هي ما يعتقده المرء في قلبه من موجبات الكفر، والقولية ما يقوله بلسان مقاله من ذلك، والعملية ما يصدر من أفعاله من موجبات الكفر، ومعرفة نواقض الإيمان من الأهمية بمكان أعلى، لأن ذلك يُعِينُ المسلمَ على اجتنابها والحذر من الوقوع فيها، وهذه النواقض كثيرة، وفيما يلي ذكر أهمها مع البيان بالاختصار:

1- الشِّرْكُ بالله: وهو في الأصل التَّسْوِيةُ بين الشيئين، وفي الشرع: تسوية غير الله تعالى بالله في خصائصه جل وعلا، وهو على ثلاثة أنواع:

أ - الشِّرك في الربوبية بأن يُسَوِّيَ الْمَرْءُ غَيرَ اللهِ بالله في خصائصه الربوبية من الخلق والإيجاد والإرزاق والإماتة والإحياء وتصريف الأمور وغير ذلك من خصائصه الربانية، قال تعالى: « هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ » الفاطر: (3)

ب - الشرك في الأُلوهية بأن يُسَوِّيَ غَيْرَ اللهِ بالله في شيء من خصائصه الألوهية، كَالدُّعَاءِ، والصلاةِ، والصيامِ، والحجِّ، والتَّوَكُّلِ، والاسْتِغَاثةِ، والاستِعانَةِ، والذَّبْحِ، والنَّذرِ، وغير ذلك مِن خَصَائِصِه الإِفْرَادِيَّةِ، قال تعالى: « قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِيَ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ » الأنعام: (162)

ج – الشرك في أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى بِأَنْ يُسَوِّيَ غَيْرَ اللهِ تعالى بالله في شيء من أسمائه الحسنى أو صفاته العُليا، كَأَنْ يُسَمِّيَ أَحَدًا بالله أو بالرحمن أو بالخالق، وما في معنى ذلك قال تعالى: « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرٌ » الشورى: (11)

والشرك بالله بأنواعه من أعظم الذنوب عند الله تعالى ومن موجبات الكفر، وأكبر نواقض الإيمان، ولا يَنَالُ صاحِبُه مَغفِرَةَ الله إِنْ مات عليه قبل التوبة، قال تعالى: « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » النساء: (48)

2- الاستِهزاءُ بالله، أو بِدِينِه، أو بِرَسُوله، أو بِكِتَابِه، أو بِمَلائكتِه، أو بِشَعِيرَةٍ مِنْ شَعَائِرِ الإسلام، كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وغير ذلك من شعائر الإسلام، ومَنِ اسْتَهْزَأَ بواحد مِمَّا ذُكِرَ فهو كافر بالإجماع، لقوله تبارك وتعالى: « قُلْ أَبِاللهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُم تَسْتَهْزِءُونَ * لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعدَ إِيمَانِكُمْ » التوبة: (65 – 66)

لا شك ولا ريب أَنَّ الاستهزاءَ بشيء مما جاء به رسول الله ﷺ من موجبات الكفر، عياذا بالله من ذلك.

3- الحكم بغير ما أنزل الله تعالى مع اعتقاد أَنَّ الْحُكْمَ بِالقَوَانِين الْوَضْعِيَّةِ أَفْضَلُ وأَكْمَلُ مِن الحكم بما أنزل الله تعالى، كَحَالِ مُعظم الناس اليوم، خصوصا الذين يفضلون الثقافة الحديثة على غيرها، ويزعمون أن الْحُكمَ بما أنزل الله لا يَصلُحُ للعصر الحديث، وأَنَّ القُرآنَ لا يُسَايِرُ التَّطَوُّرَاتِ الْعَصْرِيَّةَ وَالْمُتَطَلَّبَاتِ الْمَدَنِيَّةَ[43] ويَرْمُونه

[43] – ولا شك أن القرآن هو القانون الوحيد صالح لكل زمان ومكان، لأنه ما نَزَل إلا لِيَرْسُمَ للناس طُرُقَ الحياة ومناهجها الدينية والاجتماعية والاقتصادية وَفقًا لِمُتطلَّبات كُلٍّ من البشرية في أي وقت

بِالرَّجْعِيَّةِ! كَلَّا ثُم كَلَّا، كَبُرَتْ كَلمةً تَخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا، قال تعالى: « أَفَحُكْمُ الجَاهِلِيَةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » المائدة: (50)

وقد تظاهرتِ النصوص القرآنية على كفر من لم يحكم بما أنزل الله تعالى إعراضا، قال تعالى: « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » النساء: (65)

وقال تعالى: « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ » المائدة: (44)

والحكم بغير ما أنزل الله تعالى على درجتين، الأولى: الحكم بالقوانين الوضعية والخضوع لها مع الاعتقاد أن الحكم بهذه القوانين أفضل وأحسن وأصلح للعصر الحديث من الحكم بما

من الأوقات وفي أي مكان من الأماكن على اختلاف درجاتهم، فشريعة الله تعالى الغراء هي أصلح لكل مُجْتَمَعٍ من المُجْتَمَعَاتِ البشرية، إذ أن الله تعالى هو الذي أوجد الخلائق من العدم، والذي أوجد الناس بعد أن كانوا معدومين هو أعلم بما يصلح لهم وما لا يصلح لهم في حياتهم، فكيف يُفَضَّل ما صدر من الإنسان الذي كان الله أعلم به من نفسه على ما صدر من الله تعالى من حكمه وشرعه؟ وهذا بالجنون أشبه، بل القوانين الوضعين هي أحق وأولى أن تُنْسَبَ إلى ما يَنْسُبونه إلى شريعة الله الغَرَّاءِ من القول بعدم صلاحيتها للعصر الحديث لما في هذه القوانين من التعارض والتناقض، ونحن نسمع حينا بعض حين يقال زِيدَ في القانون كذا وكذا وأُزِيلَ كذا وكذا، بل، فمن المعلوم أن قانون بَلدٍ لا يصلح لبلد آخر كما أن قانون قَوْمٍ لا يصلح للآخرين، بل هو مَخصُوص لجماعة خاصة في عَصرٍ مُعَيَّنٍ بحيث يَضْطَرُّونَ إلى التَّغْيير والتعديل كُلَّما تَطَوَّرَتْ هذه الجماعة وتَجَدَّدَتْ مَطَالِبُها، فإذن حكم الله تعالى الذي جاء به كتابه الكريم هو صالح لكل أَزْمِنَةٍ وأَمَاكِنَ إلى يوم القيامة، لكونه مُتَكَامِلًا وَافِيا بِمَطالب الحياة البشرية على اختلاف جِنْسِياتهم، وأماكنهم، وأَزْمِنَتِهم، وتطوراتهم، وبالله التوفيق.

أنزل الله تعالى، فهذا كفر أكبر يُخْرِجُ صَاحِبَهُ من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر، وهو الذي عَبَّرَ الله عنه بقوله: « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ » المائدة: (44)

الثانية: الحكم بغير ما أنزل الله تعالى مع الاعتقاد أن حكم الله تعالى أفضل وأكمل من الحكم بالقوانين الوضعية، بل فَعَل ذلك لِيَظْلِمَ الْمَحْكُومَ عليه أَوِ الْمَحْكُومَ لَهُ أو ما في معنى ذلك من أغراض الدنيا، فهذا ظُلْمٌ وفِسْقٌ لا يخرج صاحبه من الإسلام، وهو الذي عبر الله عنه بقوله: « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » المائدة: (45) وقوله : « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ » المائدة: (47)

4- تكذيب الرسول في شيء مما جاء به عن الله، ومن كَذَّب الرسولَ في شيء مما جاء به من الله تعالى أو كذَّب شيئا من شرع الله فقد كفر بالله ومَرَقَ مِن مِلَّة المسلمين، قال تعالى: « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ أَوْ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ » الزمر: (32)

وقال تعالى: « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » الأنعام: (21).

5- سَبُّ اللهِ، أو سَبُّ رَسولِه، أو سب شيء من شرع الله، ومَنْ سَبَّ اللهَ تعالى أو سب رسوله أو سب شيئا من شرعه باختياره، فقد كفر بالله ومَرَقَ من دائرة الإسلام، لأن أصل الدين مَبْنِيٌّ على تعظيم الله ورُسُلِهِ وشريعته، فسب الله أو رسله أو شيء من شرعه مُنَاقِضُ لهذا الأصل غاية النقض، وحكى الإمام إسحاق بن راهويه إجماع المسلمين على ذلك، وكذلك الْخَطَّابِيُّ صاحب مَعَالِمِ السُّنَنِ، وذلك لقوله تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا» الأحزاب: (57) ويَدخُل في ذلك سَبُّ رَسُولِه أو سَبُّ دِينِه أو سَبُّ شَيْءٍ من شَرْعِه تعالى.

6- بُغْضُ شيء مما جاء به رسول الله ﷺ ولَوْ عَمِلَ بِهِ ظَاهِرًا، ومن أَبغَضَ شيئا مِمَّا جاء به النبي ﷺ من الله تعالى فقد كفر وخَرَجَ من دائرة الإسلام، قال تعالى: « وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسًا لَهُم وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُم * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ » محمد: (8 – 9)

7- السِّحْرُ، بكسر السين، وهو في الأصل ما لَطُفَ وَخَفِيَ سَبَبُه، والمراد به هنا عُقُودٌ وعَزَائِمُ يَسْتَعمِلُها الساحر بِواسِطة الجن لِإِيقَاعِ الضَّررِ على الْمَسحُور، ومنه ما يَقْتُل ومنه ما يُمَرِّضُ، ومنه الصَّرفُ، وهو التفريق بين الزوج وزوجته، والصديق وصديقه، أو الولد وأبيه، أو الْعَكسِ، ومنه العطف، وهو عكس سَابِقه، وَيُحَضِّرُ السَّاحرُ الْجِنِّيَ بواسطة التَّقَرُّبِ إليه بِما يُحِبهُ من موجبات الكفر، من الذبح له، أو وَطْءِ القُرآنِ بِرِجْلِه، أو جَعْلِهِ فِي النَّجاسةِ، أو غير ذلك من مُوجِبَاتِ الكُفرِ الأكبر، فإن كان الساحر مسلما يَمْشي سِحْرُه على هذه الطريقة فهو كافر،

قال تعالى: « وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » البقرة: (102)

فدلت الآية الكريمة على أن السحر باستخدام الشياطين من موجبات الكفر وعدم الفلاح.

8- الإعراض عن دين الله تعالى، بأن يُعْرِضَ المسلم عن تعلم أصل الدين الذي به يتحقق إسلامه إعراضا كُلِّيًّا باختياره، قال تعالى: « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ » السجدة: (22)

9- استِحلالُ ما حَرَّمه اللهُ أو حرَّمه رسوله أو العكس، ومَنِ اسْتَحلَّ شُربَ الْخَمرِ أو الزنا أو السرقة مثلا، أو حرَّم شربَ اللبن أو الزَّواج الشرعي مثلا مع عِلْمِه بحكم الشرع في ذلك فقد كفر بالإجماع، وإن لم يَفعَلْ ذلك، لأنه مُكَذِّبٌ لله ورسوله حيث حَكَمَا بتحريم ذلك أو تحليله فَضَادهُما في حُكمِهما.

10- عَدمُ تَكفِير من ورد الكتاب والسنة بِكُفرِه تَنَازُلًا ومُدَاهَنَةً، ومن فعل ذلك فقد كفر، لأنه مكذب لله ورسوله حيث ضادهما في حكمهما، ويُلْحَق به من شك في كفرهم أو صَحَّح مِلَّتَهمُ الباطلة.

11- مُوَالَاةُ الكُفَّارِ ومُظَاهَرَتُهمْ على المسلمين، ومُوالاةُ الكفارِ ومُنَاصَرَتُهُمْ على الْمُسْلمين من مُوجِبات الكفر، قال تعالى: « وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » المائدة: (51) ويلحق بذلك تفضيل محبتهم على محبة المسلمين.

12- اعتقاد أن هناك بعض الناس يَسَعُه الْخُرُوجُ عن شَريعة النبي ﷺ كما وَسِعَ الْخَضِرَ الْخُرُوجُ عن شريعة موسى عليهما السلام:[44] ومن اعتقد أن هناك أَحَدًا من هذه الأمة يجوز له الخروج عن شريعة رسول الله ﷺ كما جاز لِلْخَضِرِ الخروجُ عن شريعة موسى عليهما السلام فقد كفر بالله وبما أنزل على رسوله ﷺ ، لأن رسالته عليه الصلاة والسلام عامة في عموم الثقلين ولا يَسع أحدا الخروج عنها، قال تعالى:

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا » سبأ: (28)

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ »[45]

فنسأل الله تبارك وتعالى أن يمن علينا باتباعه ﷺ وعدم العُدُول عما جاء به من الهدى، إنه من وراء القصد وحسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله على نبينا المصطفى الكريم وسلم تسليما كثيرا مزيدا مباركا.

---

[44] - وهذا حال جُلِّ من ينتسبون إلى التصوف من المتأخرين الدجاجلة المشعوذين الذين يسمون أنفسهم بأصحاب الحقيقة، فَرَّقُوا بين الشريعة والحقيقة، وأخذوا بالحقيقة احتيالا لتحليل ما حرمه الله ورسوله من الفواحش ما ظهر منها وما بطن تمسكا بهذا المذهب المنحرف الشيطاني كما يشاهد ذلك كل من يعيش في هذا الزمان، عياذا بالله من الكفر والزندقة.

[45] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ إلى جميع الناس: (153)

وقوله رحمه الله تعالى: « **وَلَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ لَهُ** » الشبيه بفتح الشين وكسر الباء اسم من الشِّبْهِ، وهو تَشاكُل الشيء لونا ووصفا، والنظير كالشبيه وزنا ومعنى، وهما لفظان مترادفان، أي ليس هناك شيء من المخلوقات يُشابِهُ اللهَ ويُمَاثِلُه في ذاته ولا في صفاته، ولا في أسمائه، ولا في خلقه، ولا في ملكه، ولا في كل شيء من خصائصه سبحانه وتعالى، كما بَيَّنَ ذلك في كتابه فقال: « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ » الشورى: (11)

وليس المراد نفي الصفات كما يَزْعُمهُ أهل الباطل، لأنه سبحانه وتعالى نفى أن يُمَاثِلَهُ شيء في خصائصه وأثبت لنفسه صِفَتَيِ السمع والبصر، فَدَلَّ ذلك على أنه موصوف بصفات الكمال، وأن صفاته لا تتماثل مع غيرها من صفات المخلوقين، وهذا ما يقتضيه ظاهر النص، والله تعالى أعلم.

وقوله رحمه الله تعالى: « **وَلَا وَلَدَ لَهُ، وَلَا وَالِدَ لَهُ، وَلَا صَاحِبَةَ لَهُ** » أي مما يجب على كل مسلم اعتقاده أنه ليس لله ولد كما زعمه المشركون، يقولون الملائكة بنات الله! فكذبهم الله تعالى بقوله: « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ » الأنبياء: (26)

وكذلك يجب اعتقاد أنه سبحانه ليس له والد، قال تعالى: « لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ » فنفى لنفسه الولد والوالد، وكذلك ليس له صاحبة أي زوجة، والحاصل أنه سبحانه وتعالى لم يَنْفَصِلْ عنه أَحَدٌ، وكذلك العَكْسُ، واقتصر المصنف عن نفي الولد فقط دون البِنْتِ، وذلك أن الولد يقع على الذَّكرِ والأنثى، يقال: ليس له ولد، أي لم يَلِد قَطُّ،

فَنَفْيُ الْوَلدِ يستلزم نَفيَ الْبِنْتِ في الأصل، وكذلك يجب اعتقاد أنه سبحانه ليس له صاحبة، أي زوجة كما قال سبحانه وتعالى: « وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا » الجن: (3)

والحاصل أنه يجب تنزيهُ الله سبحانه وتعالى عن هذه الأشياء، لأنها دليل على احتياج صاحبها إليها وعجزه، والله سبحانه غَنِيٌّ عن ذلك، فيجب على الْمُكلَّف أن يعتقد أن الله سبحانه وتعالى مُتَنَزَّه عن كل نقص ولوازمه.

وقوله رحمه الله تعالى: « **وَلَا شَرِيكَ لَهُ** » الشريك اسم من الشرك بكسر الشين وإسكان الراء، وهو في الأصل الْمُقارنة، ومن ذلك الشَّرَكَةُ، وهي أن يكون الشيء بين اثنين حيث لا يَنْفَرِد به أَحَدُهما عن آخر، يقال شَارَكتَ فلانا في الشيء إذا صِرْتَ شَريكَه، وأَشْرَكْتَه إذا جَعَلْتَه شَريكا له، وهو الْمُراد بالشريك هنا، والمعنى أنه ليس هناك أحد يشارك الله تعالى في ربوبيته، ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وقد تظاهرت النصوص الشرعية على نفي الشريك عن الله تعالى في جميع خصائصه سبحانه، قال تعالى: « هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ » فاطر: (3)

وقال أيضا: « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ » الشُّورَى: (11) وأَظْهَرُ سُورَةٍ في ذلك سورة الإخلاص، فإنها أَقْلَعَتْ أُصُولَ الكُفْرِ في حق الله سبحانه وتعالى، حيث نَزَّهَتْهُ عن جميع النقائص ولوازمها، والله أعلم.

وقوله رحمه الله تعالى: « **لَيسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ، وَلَا لِآخِرِيَّتِهِ انْقِضَاءٌ** » (أوليته) بفتح الهمزة والميم المشددة وكسر اللام وفتح الياء المشددة مأخوذ مِنَ الْأَوَّلِ بفتح الهمزة، وهو مُبتَدَأُ الشيء. و(آخريته) من الآخر وهو ضد الأول، و(انقضاء) بسكون النون وكسر القاف مِنَ الْقَضِّ بفتح القاف وتشديد الضاد، وهو سقوط الشيء، والمراد بالانقضاء هنا الانقطاع، والمعنى أنه يجب على المكلف اعتقاد أنه سبحانه وتعالى ليس لوجوده ابتداء، وكذلك ليس لانتهائه انقطاع، أي ليس له مبدأ ولا مُنْتَهى، بل هو مَوْجُود الْوُجُودُ الأَزَلِيُّ، وبَاقِيٌّ البَقَاءُ الأَبدِيُّ، بل هو الأول لم يُسْبَقْ بِغَيْرِهِ، والباقي ليس بعده شيء كما قال جل وعلى: « هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » الحديد: (3)

وروى مسلم في الذِّكْرِ والدعاء من طريق جَرِيرٍ عن أبي صالح السَّمَّانِي عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ النَّومِ، وَفِيهِ: « اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ »[46]

فَدَلَّ ذلك على أنه ليس لِسَبْقِه على جميع الخلق ابتداء، ولا لبقائه بعد فنائهم انتهاء، بخلاف المخلوقات، فإن لِأَوِلِها ابتداء وآخرا، إلا الْجَنَّةَ والنَّارَ وَأَهلَهُمَا، فإنهما لا يَفْنِيَانِ كما جاء في حديث أبي هريرة الطويل الذي رواه الترمذي من طريق عبد العزيز بن محمد في صفة الجنة مرفوعا، وفيه: « فَإِذَا أَدْخَلَ اللهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ قَالَ: أُتِيَ بِالْمَوْتِ مُلَبَّبًا فَيُوقَفُ عَلَى السُّورِ الَّذِي بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ،

---

46 – أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم: (2713)

ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَطَّلِعُونَ خَائِفِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَطَّلِعُونَ مُسْتَبْشِرِينَ يَرْجُونَ الشَّفَاعَةَ، فَيُقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ: قَدْ عَرَفْنَاهُ هُوَ الْمَوْتُ الَّذِي وُكِّلَ بِنَا، فَيُضْجَعُ فَيُذْبَحُ ذَبْحًا عَلَى السُّورِ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ثُمَّ يُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ لَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ لَا مَوْتَ »[47]

وفي هذا الحديث إشكال لمن قَلَّ نَظرُه، يقول القائل: أثبت الله لنفسه البقاء، وجعل لبعض خلقه صفة البقاء، فهذا يستلزم أن يُشَابِهَهُ خَلقُه في صفة البقاء، فالجواب عن هذا الإشكال أن البقاء الذي جعله الله لأهل الجنة وأهل النار مَنُوط بأمره ومشيئته وليس من اختيارهم، وقد عَلِمتَ أن الله قادر على كل شيء.

وعبارة المصنف هذه أجود وأحسن من غيرها، كعبارة الطحاوي في الطحاوية حيث عَبَّرَ عن قوله: « الأول فليس قبلك شيء » بقوله: «قَدِيمٌ بِلَا ابْتِدَاءٌ، دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٌ» ولم يَثْبُتْ وَصْفُ اللهِ بالقديم في شيء من السنة النبوية الصحيحة في باب الأسماء والصفات، وإنما جاء وصفه بِالْمُقَدِّمِ في دعائه ﷺ، وفيه: « أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » كما ورد في حديث أبي موسى الذي رواه البخاري من طريق شُعْبَةَ في الدعوات. وكذلك ورد في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما الذي رواه أبو داود من طريق عبد الله بن المبارك، أنه ﷺ كان إذا

[47] – أخرجه الترمذي في كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في خلود أهل الجنة وأهل النار: (2557)

دخل المسجد قال: «أَعُوذُ بِاللهِ العَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»[48]

فالموصوف بالقديم في الحديث هو سلطانه تعالى، فالخير كله فيما جاء به الكتاب والسنة، فلا ينبغي أن يُعْدَلَ عن ما ورد فيهما في هذا الباب إلى غيره، والله تعالى أعلم.

وقوله رحمه الله تعالى: « **لَا يَبْلُغُ كُنْهَ صِفَتِهِ الْوَاصِفُونَ** » لفظ « كنه » بضم الكاف وسكون النون، وهو غاية الشيء ونهاية وقته، يقال: بَلَغتُ كُنهَ الأمر أي غايته، و«الواصفون» جمع وَاصِفٍ، وهو البَارِعُ في الوَصْفِ، والمعنى أن الواصفين الماهرين في الوصف لا يستطيعون أن يُدْرِكُوا غَايَةَ صِفَةِ الله تعالى وحقيقتها وكيفيتها مهما بلغوا في البحث عن ذلك، وهذا مما يجب اعتقاده، فمذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب إثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه وأثبته له رسوله ﷺ في سنته الْمُطَهَّرَة من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل، وهذا هو مذهب الأئمة الأعلام من السلف قاطبة، وقد ثبت عن بعضهم التصريح بنسب السائل عن الكيفية إلى البدعة كما سأل رَجُلٌ مَالِكًا عن الاستواء، فقال مالك: الاستواء مَعلوم، وَالْكَيْفُ مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإني لأراك مُبتَدِعًا. فنسب هذا السائل عن الكيفية إلى البدعة. والفرق بين الصفة والوصف، أن الصفة هي معنى قائم بالموصوف، والوصف كلام الواصف، والحاصل أنه يجب على الْمُكَلَّفِ أن يعتقد أَنَّ الله لا تُدْرِكُهُ

---

48 – أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب فيما يقوله الرجل عند دخول المسجد: (466)

الأَبصارُ، ولا يُقَدِّرُه الْفَهْمُ، ولا يُعْلَمُ كيف هو إلا هو جل ثناؤه، وإنما يُعْرَفُهُ سبحانه وتعالى بصفاته التي أثبتها لنفسه من غير تشبيه، ولا تكييف، قال تعالى: « لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ » الأنعام: (103) أي لا تُحِيطُ به الأبصار عِلْمًا وهو يحيط بها، والله أعلم.

وقوله رحمه الله تعالى: « **وَلَا يُحِيطُ بِأَمْرِهِ الْمُتَفَكِّرُونَ** » (يحيط) بضم الياء وكسر الحاء من أحاط، ومصدره إِحَاطَة، بمعنى أن يَطِيفَ الشيء بالشيء، والأمر هنا مفرد الأمور لا الأوامر التي هي ضد النواهي، والأمور على قسمين، شرعية وكونية، فالشرعية هي المتعلقة بما يحبه الله تعالى ويرضاه من المأمورات، ونقيضها المنهيات، وأما الأمور الكونية فهي متعلقة بتصريف الله المخلوقات وسيطرته عليها، وهو المراد هنا، قال تعالى: « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونَ » يس: (82)

فالمراد بالأمر في الآية الأمر الكوني، أي شأنه، والحاصل أنه لا يمكن للمرء أن يحيط بأمور الله الكونية، وما فيها من الحكم والأسرار، مهما بالغ في التفكر في ذلك، قال تعالى: « وَلَا يُحِيطُ بِهِ عِلْمًا » طه: (110) وقال تعالى: « وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ » البقرة: (255)

وقوله رحمه الله تعالى: « **يَعْتَبِرُهُ الْمُتَفَكِّرُونَ بِآيَاتِهِ** » لفظ (يعتبر) بفتح ياء المضارع وسكون العين من الاعتبار من عَبَّرْتُ النَّهرَ، والاعتبار هو الاتعاظ، والعِبْرَةُ بكسر العين الاتعاظ بما مضى، ومنه قوله تعالى: «فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ» الحشر: (2) أي اتعظوا بِمَنْ تَقَدَّمُوكُم حيث فعلوا ما فعلوا من المعاصي فَعُوقِبُوا جَزاءً بما عَمِلُوا،

و(آيات) جمع آية، وهي في الأصل العلامة، والآيات على قسمين، آيَاتٌ شَرعِيةٌ وآيات كَوْنِيةٌ، فالآيات الشرعية هي آيات القرآن الكريم التي تضمنت الأحكام الشرعية الاعتقادية والسلوكية وغير ذلك، وأما الكونية فهي العلامات الدالة على وجود الله سبحانه ووحدانيته كخلق السموات وما فيها من الشمس والقمر والنجوم، وخلق الأرض وما فيها من الجبال والبحار والأشجار، وخلق الإنسان، واختلاف الليل والنهار، وغير ذلك من المخلوقات الْعَجِيبَةِ، ولا شك أَنَّ التَّفَكُّرَ في آيات الله الكونية يزيد لِلْمُتَفَكِّرِ ثِقَةً بالله تعالى وتسليم الحاكمية كُلِّها له المولى جل وعلا، قال تعالى: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ» آل عمران: « 190 »

وقال أيضا: « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » البقرة: (164)

وقال أيضا: « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ » الغاشية: (17 – 20)

وقال أيضا: « وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » الذاريات: (21) وكل هذه الآيات تدل على وجود الله المولى جل وعلا وانفراده بالربوبية والألوهية وغيرهما من خصائصه الفَرْدَانِيَّةِ، والمؤمنون المتفكرون يَسْتَدِلُّون بآيات الله الكونية على انفراده بما ذُكِرَ من

خصائصه الإلـهية والربانية، ولذا طلب المصنف من المتفكرين أن يستدلوا بها على ذلك لا بمحاولة التفكر في ماهية ذاته سبحانه وتعالى، وهذا من أمحل المحال، وعبارة المصنف هذه خبر بمعنى طلب، أي ولْيَسْتَدِلِّ الْمُتفكرون بآياته سبحانه على استحقاقه بالوحدانية وتدبيره الأمور من غير شريك، والله أعلم.

وقوله رحمه الله تعالى: « **وَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِي مَاهِيَّةِ ذَاتِهِ** » وماهية الشيء حقيقته، ويقال مائية بالمعنى، والماهية نِسبَة إلى (مَا هُوَ). والمعنى لا يَتَأَمَّلُون المتفكرون في حقيقة ذات الله تعالى للاعتبار وغيره، وهو خبر بمعنى الطلب، والحاصل أنه لا ينبغي للمسلم أن يَتجاوَزَ الْحَدَّ ويُحَاوِلَ على التَّفَكُّرِ في حقيقة ذات الله تعالى، مع كون ذلك أمر لا بد منه، فإن الشيطان يُحَاوِلُ على إدخال الوَسَاوِسِ في قلوب المؤمنين، لَكِنْ ينبغي لِمَن شَعر بذلك أن يحاول على إزالته بانتقال منه والاستعاذة بالله من الشيطان اللعين الرجيم، وروى مسلم من طريق يَعقُوب بنِ إبراهيمَ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ لَهُ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ»[49]

وفي رِوايةِ سُفْيَانَ: « لَا يَزَالُونَ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ هَذَا خَلْقُ اللهِ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ »

وقد اسْتُفِيدَ من هذا الحديث أَنَّ دَوَاءَ هذا الدَّاءِ الاشتغال عن هذه الوساوس الشيطانية بالاستعاذة، وقول: « آمَنْتُ بِاللهِ » وألَّا يَشْتَغِلَ الْمرءُ بِالْخَوْضِ فيها، بل متى وجد

[49] – أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان وسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها: (134)

ذلك فَلْيَنْتَهِ عنه. وفي كلام المصنف هذا إشارة إلى أنه يجب على المكلف أن يعتقد أن العُقولَ قاصرة عن إدراك حقيقة ذات الله تعالى، فمن اعتقد ذلك لا مَحَلَّ لهذه الوساوس الشيطانية في قلبه، على أي حال فالتفكر في آيات الله الكونية أمر مطلوب، وقد تنازع بعض العلماء في الأفضل بين التفكر وصَلاةِ وصِيَامِ النَّافلة، فَفَضَّلَ بعضهم الصلاة والصيام، وفضل البعض التَّفَكُّرَ عَلَى تَفَاصِيلَ لهم، وتَنَازُعُهمْ هذا ضعيف، لأن كلًّا من التفكر، والصلاة، والصيام، أمر مطلوب من الشارع، والتفضيل في ذلك أَمرٌ تَوْقِيفِيٌّ لا مجال للاجتهاد فيه، وهذا هو التحقيق إن شاء الله تعالى، والله أعلم.

وقوله رحمه الله تعالى: « **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** » وهذا يُسَمِّيهِ البَلَاغِيونَ اقْتِبَاسًا، وهو أن يَقْتَبِسَ المتكلم شيئا من القرآن أو الحديث على وجه لا يُشْعِرُ بأنه منهما كما فعل المصنف هنا، وقد تقدم بيان ذلك، وهذا اقتباس قرآني. استدل المصنف بهذه الآية الكريمة على تَأْيِيدِ كَلَامِه مِنْ أَنَّ العُقول قَاصِرَةٌ عن إدراك حقيقة ذات الله تعالى.

قوله: « وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ » أي ليس هناك أحد يستطيع أن يُدْرِكَ معلومات الله الغيبية مَهْمَا رَسَخَ قَدَمُهُ في العلم، إلا ما شاء الله أن يَطَّلِعَهُ عليه، والمراد بعلمه معلوماته، لأن علم الله وصف قائم بذاته لا يَتَبَعَّضُ.

قوله: « وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » الكُرْسِيُّ موضع قَدَمَيّ اللهِ جل وعلا، والإيمان به واجب، والكُرسيُّ هنا ليس العَرْشَ كما ذهب إليه بعض المفسرين تبعا

للحسن البصري، وذهب بعضهم إلى أن المراد بالكرسي هنا علم الله، أي وسع علمه السموات والأرض وأحاط بهما، رواه عبد الله بن جبير عن ابن عباس، والأول أقرب.

قوله: « وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا » لفظ « يَئُودُهُ » مأخوذ مِنَ الْأَوْدِ بفتح الهمزة، وهو الثِّقْلُ وَالتَّعب، يقال: آدَهُ الشَّيْءُ يَؤُودُه أَوْدًا وَإِيَادًا، أي أثقله وأتعبه، والمعنى لا يَتْعَبُهُ حِفظُ السموات والأرض ومُرَاقبةُ ما فيهما من المخلوقات، وهو أعلى من ذلك وأعظم.

قوله: « وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ » العلي على وزن فعيل بمعنى فاعل، وهو مُبالغة من عَالٍ، ويُجْمَعُ على عِلْيَةٍ، أي هو عَالٍ على خلقه مُسْتَوٍ على عرشه، العظيم في ذاته وفي ملكه وأموره كلها، ويُجْمَعُ العَظِيمُ على عُظَمَاءٍ للمذكر العاقل، وعلى عِظَامٍ لغير العاقل، والله أعلم.

تنبيه: الكُرسِيُّ والعَرْشُ حقيقتان لا يعلم حقيقتهما إلا الله، بخلاف ما ذهب إليه الْمُتَكَلِّمُون من أَنَّ ذِكْرَ الكرسيّ في الآية تَصوِيرٌ لِعَظَمَتِه وَتَمْثِيلٌ حِسِيٌّ، لأن النفوس البشرية أبدا تجد من التعظيم والهيبة عند سَمَاعِ الأشياء المحسوسة الدالة على الكبرياء والعظمة ما لا تجده عند عدم سَمَاعِ ذلك، فالمقصود من ذكرهما اسْتِشْعَارُ النفوس عند سَمَاعِهِمَا بعظمة المولى جل وعلا، ولا كُرْسِيَّ ولا عَرْشَ وَلاَ قُعُودَ، وهذا غير صواب، بل افْتِيَاتٌ على الشارع، لأن الشارع أخبر بهما ولم يقل إنهما عبارة عن كبرياء الله وعظمته، فَمِنْ أَيْنَ لكم هذا؟ والخير كله في الاتباع لا الابتداع، وبالله التوفيق.

قوله: « الْعَالِمُ » اسْم مُشتَقٌّ من العلم، والمعنى أَنَّ مِمَّا يجب على المسلم اعتقاده أن مِنْ أَسماء الله تعالى العالم، وأسماء الله تعالى توقيفية، وكذلك صفاته، ولا مجال للعقل

فيها، لأن العقل لا يُمْكِنُه إدراك ما يستحقه الله تعالى من الأسماء والصفات، والواجب فيها الوقوف على ما ورد به الكتاب والسنة من ذلك، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة سلفا وخلفا، ومن سمى الله بما لم يسم به نفسه أو رسوله ﷺ، أو وصفه بما لم يُثَبِّتْهُ لنفسه أو رسوله، فقد تَقَوَّلَ على الله، وقد غَلَّظَ اللهُ تحريمَ ذلك حيث قال تعالى: « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيرِ الحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » الأعراف: (33)

والفَرْقُ بين الاسم والصفة، أن الاسم هو ما دل على عَلَمٍ لتمييزه عن غيره، والصفة ما دلت على معنى يقوم بالذات.

والعالم على وزن فاعل، وقد وقع في نُسْخَةٍ بِوَزن فعيل، أي العليم، وهو أكثر وقوعا في القرآن الكريم وأبلغ من العالم، لأنه صيغة المبالغة من العلم، وهو يدل على ذات الله تعالى وصفة العلم بدلالة المطابقة. وَلِعِلْمِ اللهِ تعالى مراتب، منها علمه بالشيء قبل إيجاده، وهو علم تقدير الأمور، قال تعالى: «إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» لقمان: (34)

ومنها علمه بالشيء حال كونه وتنفيذه، وهو علم تنفيذ الأمور، قال تعالى: « اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الكَبِيرُ المُتَعَالِ » الرعد: (8)

ومنها علمه بالشيء بعد كونه وتنفيذه، وهو علم المراقبة، قال تعالى: « وَيَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلمَاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » الأنعام: (59)

قوله: « الْخَبِيرُ » بفتح الخاء وكسر الباء على وزن فعيل، وهو اسم من الْخَبَرِ بمعنى العلم، والخبير بمعنى العليم، والْجَمعُ: خُبَرَاءُ للمذكر العاقل وقد تقدم الكلام عنه، وجاء مُقْتَرِنًا بالعليم في عدة مواضع في القرآن، قال تعالى: «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» لقمان: (34)

وفي سورة الْحُجرات: « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » الحجرات: (13) وقال في سورة التحريم: « قَالَ نَبَّأَنِيَ العَلِيمُ الخَبِيرُ » التحريم: (3)

قوله: « الْمُدَبِّرُ » بضم الميم وفتح الدال وتشديد الباب المكسورة، اسم فاعل دَبَّرَ يُدَبِّرُ، أي الذي يدبر الأمور ويُصَرِّفُهَا كيف يشاء مع عِلمه بِعَواقِبها، وأصل الكلمة من الدُّبُرِ بضم الدال، وهو خِلاف القُبلِ، والتدبير هو النظر إلى ما تصير عاقبة الشيء، ولم يَرِدْ هذا الاسم في ضِمْنِ أسماء الله تعالى، وإنما ورد في القرآن بلفظ الفعل، يُدَبِّرُ الأَمرَ.

قوله: « الْقَدِيرُ » بفتح القاف وكسر الدال على وزن فعيل صيغة المبالغة مِنَ الْقُدْرَةِ، أي هو الذي بيَدِه القُدرة التامة، وقد وردت هذه الصيغة في مواضعَ شتى في القرآن الكريم.

ومنها قوله تعالى: « تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » الملك: (1) أي له القدرة التامة على كل شيءٍ من مخلوقاته لا يَعْجِزُه شيءٌ من ذلك.

قوله: « الْسَّمِيعُ الْبَصِيرُ » بفتح السين وكسر الميم مشتق من السمع، والبصير كالسميع وزنا، وهو مشتق من البصر، وهما من أسماء الله تعالى، وقد ورد هَذانِ الاسْمَانِ مُقْتَرِنَيْنِ في غير موضع في القرآن، قال تعالى: « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ » الشورى: (11)

وفي سورة غافر: « فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ » غافر: (56)

أي هو السميع يَسْمَعُ السِّرَّ والنَّجوَى حتى صَوتِ دَبِيبِ الْحَشرَاتِ، وَيَسْمَعُ صوتَ كُلِّ حَرَكَةٍ مَهْمَا بَعُدَتْ، بِسَمعِهِ الْأَزَلِيِّ الذي يَلِيق بعظمته وكماله تعالى، بَصِيرٌ يَبْصُر ما ظهر وما بطن وما غاب وما في تحت الثَّرَى كبيرا كان أو صغيرا، بِبَصره الأزلي الذي يليق بعظمته وكماله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء من ذلك.

ولا يستلزم كون المخلوق له سَمْعٌ وَبَصرٌ مُشَابَهَتَهُ بالخالق، لأن الله أثبت لنفسه صفتي السمع والبصر ونفى أن يُمَاثِلَهُ شيء من الْخَلقِه، فاقتضى ذلك أن سَمْعَهُ وبَصَرَه لَيْسَا كَسَمعِ غيره من المخلوقات ولا كَبَصَرِهِم.

قوله: « الْعَلِيُّ » أي عَالٍ مرتفع على خلقه على الوجه الذي يليق بكماله وعظمته المولى جل وعلا، وسيأتي الكلام الشافي عن مسألة العلو قريبا إن شاء الله تعالى.

قوله: « الْكَبِيرُ » أي هو العظيم الذي اتصف بصفات الجلالة والعظمة والكبرياء في ذاته وفي أموره كلها، قال تعالى: « حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُم قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ » سبأ: (23)

إِثْبَاتُ صِفَةِ الْعُلُوِّ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْمُتَعَالِ

قوله: « وَأَنَّهُ فَوْقَ عَرْشِهِ الْمَجِيدِ بِذَاتِهِ، وَهُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِعِلْمِهِ » يعني أنه مما يجب على المكلف اعتقاده أن الله تعالى فوق عرشه الْمَجِيدِ مُسْتَوِيٌّ عليه بذاته اسْتِوَاءً يَلِيق بِعَظَمَتِه وكَمالِه تبارك وتعالى وهو في كل مكان بعلمه، والعرش هو أكبر مخلوقات الله تعالى كما دَلَّتْ عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وهو في الأصل سرير الملك، وقد أضافه الله إلى نفسه في عِدَّةِ مَواضعَ في القرآن، قال تعالى: « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ » المؤمنون: (116)

وقال تعالى: « وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ » الحاقة: (17)

وقال تعالى: « رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو العَرْشِ » غافر: (15)

وقال تعالى: « ذُو العَرْشِ المَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ » البروج: (15 – 16)

وكان العرش على الماء كما قال تعالى: « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ » هود: (7)

وللعرش حَمَلَةٌ من الملائكة وهم ثمانية، قال تعالى: « وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ » الحاقة:(17)

وكان ما بين شَحْمَةِ أُذُنِ كُلِّ واحد من حَمَلَةِ العرش إلى عاتقه مَسِيرة سَبْعِمِائَةِ عَامٍ كما روى أبو داود عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ وَعَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ »[50]

---

[50] – أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب في الجهمية: (4727) وقد تقدم تخريجه، وهو صحيح الإسناد، والله أعلم.

ورَوَى أَحْمدُ فِي الْمُسْنَدِ حَدِيثَ الْأَوْعَالِ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَفَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ ثَمَانِيةُ أَوْعَالٍ، بَيْنَ رُكَبِهِنَّ وَأَظْلَافِهِنَّ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ الْعَرْشُ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَاللهُ فَوْقَ ذَلِكَ، لَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ شَيْءٌ »[51] والحديث ضعيف، لأنه رُوِيَ مِن طريق عَبدِ الرحمن بن عَبدِ اللهِ الرَّازِيّ.

والله غَنِيٌّ عن العرش، واسْتِوَاؤُه عليه ليس لحاجته إليه، بل هناك حِكمَةٌ مُقْتَضِيةٌ لذلك، والإيمان بذلك واجب. والْمَجِيد في قوله: « وَأَنَّهُ فَوْقَ عَرْشِهِ الْمَجِيدِ بِذَاتِهِ » بكسر الدال صفة للعرش، ويجوز الضم على أنه خبر للمبتدأ محذوف تقديره هو، أي

[51] – وهذا الحديث مشهور بحديث الأَوْعَالِ، وهم ملائكة على صورة الأوعال، و(الْأَوْعَالُ) جمع وَعِل بكسر العين، وهو تَيْسُ الْجَبَلِ كما قال صاحب النِّهاية، أخرجه أحمد في المسند برقم (1771) وأبو داود في كتاب السنة، باب في الجهمية: (4723) والترمذي في كتاب التفسير، باب ومن سورة الحاقة: (3320) واللفظ لأحمد، وفي إسناده ضعف، وقد اختلف العلماء في تضعيفه وتصحيحه، فرجح بعضهم التصحيح كابن خزيمة والحاكم، وإليه مال شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وضعفه الآخرون اعتمادا على تفرد سَمَّاكِ بن حَرب به عن عبد الله بن عميرة، وعبد الله غير معروف، وقد أشار إلى ضعفه المزي وابن العدي صاحب الكامل، وإلى ضعف الحديث مال العلامة المحدث الألباني في سلسلة الضعيفة، والله أعلم.

وأنه فوق عرشه هو المجيد بذاته، والضمير في «بِذَاتِهِ» عائد على الله على الصحيح المختار، وهو الذي يدل عليه سياق الكلام بخلاف ما ذهب إليه مُعْظَمُ شُرَّاحِ الرِّسَالةِ من أنه عائد على العرش بِنَاءً على نفي صفةِ العلو، لأن معظمهم يُقَلِّدُون مَذهبَ الأَشَاعِرَةِ وَالْمَاتُرِيدِيةِ في المسائل الاعتقادية، الذين يُفَضِّلُون الْعَقْلَ عَلَى النَّقلِ في ذلك، والمصنف كما تقدم لك سَلَفِيًّا عَقِيدَةً وليس أَشْعَرِيًّا، ولا يقول بشيء من أقوالهم في باب الأسماء والصفات وغير ذلك من المسائل الاعتقادية، وكل من تتبع مقدمته هذه يرى ذلك، لَكِنَّ الأَسفَ كثير من الشُّرَّاحِ يُحَرِّفون كلامه الصافي لاسيما في هذا الموضع، حتى ذكر تاج الدين الفَاكِهَانِي أنه سمع شَيخَه أبا عَليٍّ الْبِجَائِيَّ بِكَسرِ الْبَاءِ يقول أن هذه الكَلمةَ مَدسُوسَةٌ على الْمُصنِّفِ، وهذا مُجَرَّدُ الدَّعوَى منه، وإلا فَأَنَّ لَهُ ذلك؟ لا شك أَنَّ الْمَسْلَكَ الَّذِي سَلَكَه الْمُصنِّفُ في تَقْرِيرِ مَذْهَبِه الاعتقادي في هَذِه الْمُقَدَّمَةِ يَرُدُّ ما ذَكَرَهُ هذا الشَّيْخُ عفا الله عنه، إذ أَنَّه مَنْهَجُ سَلَفِ الْأُمَّةِ مِن الصحابة، والتابعين، وتابعيهم، كالأئمة الأربعة أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، وهو الْمَنْهَجُ الذي يَتَمَشَّى مع ضَوء الكتاب والسنة، بَل، وقد اتَّهَمَه بَعضُهم ونَسَبوه إلى البدعة، وقد رَدَّ عليهم ابنُ نَاجِي أبو الفضل قَاسِم بنُ عِيسى الْقَيْرَوَانِيُّ مع أنه لم يَنْحَ نَحْوَ الْمُصنِّفِ في هذه المسألة على الوجه المستقيم، ولِلَّهِ دَرُّ القاضي عَبدِ الوهاب المالكي صاحب كتاب «الإشراف على نكت مسائل الخلاف» فإنه أَنْصَفَ وَسَلَك مَسْلَكَ سَلَفِ الأُمَّة الصحابة ومن بعدهم من كبار التابعين، فَحَمل كلامَ الْمُصنف على حقيقته ولم يَتَأَوَّلْهُ بِتَأوِيلاَتِ الْمُتَؤَوِّلِينَ الفَاسِدة الباطلة التي لا تُنْفَقَ في سُوقِ الْمُنَاظَرةِ، وليستْ لها مُسْتَنَدٌ مِنَ الشرع يُعَوَّلُ عليه، فقال عِندَما يَشْرَحُ كَلَامَ

الْمُصنِّفِ الذي نُدَنْدِنُ حَولَهُ: « ويَنبَغِي إطلاقُ صِفَةِ الاسْتِوَاءِ مِنْ غَير تَأوِيلٍ، وأنه استِوَاءُ الذَّاتِ عَلى العَرْشِ »

وإثبات صفة العلو أمر أَجمَعَ عَليهِ سَلفُ الأُمَّةِ قَاطِبَةً ولم يُخالفْ فيه إلا مُبتدِعٌ غَالٍ فِي بِدعَتِهِ أو مَفْتُونٌ بِتَقْلِيد الْمُتكلِّمين والفَلاسِفَة، وقد تظاهرَتِ النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة على إثبات صفة العلو لله المولى جل وعلا ، والآن نسوق لك الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال سلف الصالح من الصحابة والتابعين الدالة على إثبات صفة العلو لله تعالى العلو الذاتي، والجواب عن شُبُهاتِ الْمُعَطِّلِينَ وتَأوِيلَاتِهِمِ الْبَاطلة، فنقول وبالله التوفيق.

الأَدِلَّةُ من الكتاب والسنة على إثبات العلو لله تعالى العلو الذاتي: وقد وردت الآيات الدالة على إثبات استواء الله سبحانه على عرشه بذاته استواء يليق بكماله تعالى في عدة مواضع، نذكر لك طرفا منها، قال تعالى: « إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ » الأعراف: (54)

وقال تعالى: « الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى » طه: (5)

وقال تعالى: « هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ » الحديد: (5)

وقال تعالى: « الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا » الفرقان: (59)

وقال تعالى: « ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ » الملك: (16 - 17)

وقال تعالى: « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » فاطر: (10)

وقال تعالى: « يَا هَامَانُ ابْنُ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا » غافر: (36 - 37)

الْأَدِلَّةُ مِنَ السُّنَّةِ عَلَى اسْتِوَاءِ اللهِ عَلَى عَرْشِهِ

وقد ورد في السنة النبوية ما يدل على استواء الله على عرشه الاستواء الذاتي من أقواله وأفعاله ﷺ، ومن ذلك ما روى مسلم ومالك عن معاوية بنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيّ رضي الله عنه قال: « كَانَتْ لِي غَنَمٌ بَيْنَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ فِيهَا جَارِيَةٌ لِي، فَاطَّلَعْتُهَا ذَاتَ يَوْمٍ، فَإِذَا الذِّئْبُ قَدْ ذَهَبَ مِنْهَا بِشَاةٍ، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ فَصَكَكْتُهَا فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟ قَالَ: ادْعُهَا فَدَعَوْتُهَا، فَقَالَ لَهَا: أَيْنَ اللهُ؟ قَالَتْ فِي السَّمَاءِ، قَالَ: مَنْ أَنَا؟ قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: اعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ »[52]

ومن ذلك ما روى الشَّيْخَانِ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»[53]

---

[52] – أخرجه مسلم في كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة: (537) ومالك في كتاب العتق والولاء، باب ما يجوز من العتق في الرقاب الواجبة: (8) واللفظ له.

[53] – أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: « تعرج الملائكة والروح إليه » المعارج: (4) برقم: (7429) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر برقم: (632)

ومِنْ ذلك ما روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَتَأَبَى عَلَيْهِ، إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا زَوْجُهَا»[54]

ومِنْ ذلك ما رَوَى أَحْمَدُ في مُسندِه بإسناد صحيح على شرط الشيخين عن أبي هُريرةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحًا قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، أَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلاَ يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فُلَانٌ، فَيُقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ، فَلَا يُزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللهُ تَعَالَى »[55]

وَمِنْ ذلك ما رَوَى البُخارِيُّ عن أنس رضي الله عنه قال: « جَاءَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَشْكُو، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: اتَّقِ اللهَ وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ. قَالَتْ عَائِشَةُ: لَوْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا لَكَتَمَ هَذِهِ، قَالَ: فَكَانَتْ زَيْنَبُ تَفْخَرُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ تَقُولُ: زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ وَزَوَّجَنِيَ اللهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ »[56] وفي رِوَايَةِ عِيسَى بْنِ طَهْمَانَ عِنْدَهُ: « إِنَّ اللهَ أَنْكَحَنِي فِي السَّمَاءِ »

---

54 – أخرجه مسلم في كتاب النكاح، باب تحريم امتناعها من فراش زوجها: (1436 – 121)

55 – أخرجه أحمد في المسند، مسند أبي هريرة برقم: (8769).

56 – أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ ﴾ هود: (7) برقم: (7420)

وَمِنْ ذَلِكَ ما روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ؟ يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً»[57]

وَمِنْ ذَلِك ما روى أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أَنَّ رَسولَ الله ﷺ قال: « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ اللهُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمُكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ »[58]

وَمِنْ ذَلك ما رَوَى أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا كَانَتِ اللَّيلةُ الَّتِي أُسرِيَ بِي فِيهَا، أَتَتْ عليَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: يَا جِبرِيلُ، مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَونَ وَأَوْلَادِهَا. قَالَ: قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهَا؟ قَالَ: بَيْنَمَا هِيَ تَمْشُطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَومٍ، إِذْ سَقَطَتِ الْمِدْرَى[59] مِنْ يَدَيْهَا، فَقَالَتْ: بِاسْمِ اللهِ، فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَونَ: أَبِي؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ: اللهُ. قَالَتْ: أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. فَأَخْبَرَتْهُ، فَدَعَاهَا، فَقَالَ: يَا فُلَانَةُ، وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيْرِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وربُّكَ اللهُ. فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ، فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَوْلَادُهَا فِيهَا. قَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، قَالَ: وَمَا حَاجَتُكِ؟ قَالَتْ: أُحِبُّ أَنْ تَجمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ وَتَدْفِنَنَا، قَالَ: ذَلِكَ لَكِ

---

[57] – أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب وخالد إلى اليمن: (4351) ومسلم في كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم: (1064) واللفظ للبخاري.

[58] – أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في الرحمة: (4931) والترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين: (1924)

[59] – بكسر الميم فإسكان، وهي أداة ذات أسنان يُرَجّلُ بها الشَّعرُ الْمُتَلَبِّدُ، أي المِشطُ.

عَلَيْنَا مِنَ الحقِّ. قَالَ: فَأَمَرَ بِأَوْلَادِهَا فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَاحِدًا وَاحِدًا، إِلَى أَنِ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى صَبِيٍّ لَهَا مُرْضَعٍ، وَكَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ[60] مِنْ أَجْلِهِ، قَالَ: يَا أُمَّهْ، اقْتَحِمِي، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَاقْتَحَمَتْ »[61]

بَعْضُ مَا رُوِيَ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الْمَاضِيةِ

ومِنْ ذلك ما أخرجه البَزَّارُ وابنُ قُدَامَةَ الْمَقْدِسِيُّ في إثبات صفة العلو عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: « لَمَّا أُلْقِيَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي النَّارِ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ وَاحِدٌ فِي السَّمَاءِ وَأَنَا فِي الْأَرْضِ وَاحِدٌ أَعْبُدُكَ »[62]

ومِنْ ذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ ابنُ قُتَيْبَةَ فِي تَأْوِيلِ مُخْتَلَفِ الْحَدِيثِ أَنَّ عِيسىَ قال لِلْحَوَارِيِّينَ: «لَا تَحْلِفُوا بِالسَّمَاءِ فَإِنَّهَا كُرْسِيُّ اللهِ تَعَالَى، إِنْ أَنْتُمْ غَفَرْتُم لِلنَّاسِ فَإِنَّ رَبَّكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ يَغْفِرُ لَكُمْ ظُلْمَكُمْ، انْظُرُوا إِلَى طَيْرِ السَّمَاءِ، فَإِنَّهُنَّ لَا يَزْرَعْنَ، وَلَا يَحْصُدْنَ، وَلَا يَجْمَعْنَ فِي الْأَهْوَءِ، وَرَبُّكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ هُوَ يَرْزُقُهُنَّ، أَفَلَسْتُمْ أَفْضَلَ مِنْهُنَّ»[63]

---

[60] – (تَقَاعَسَتْ) أي تَأَخَّرَتْ عن الدخول في النار من أجل هذا الْمُرْضَعِ شَفقتًا وتَحَنُّنًا عليه.

[61] – أخرجه أحمد في المسند بإسناد صحيح برقم: (295/4)

[62] – أخرجه البزار في مسنده برقم (9047) وأورده ابن قدامة في كتاب إثبات صفة العلو، باب ذكر أخبار واردة في هذا عن الأنبياء المتقدمين عليهم السلام: ص: (93) والحديث ضعيف، وإنما أوردناه للتنبيه على ضعفه، وإلا ففي الأحاديث الصحيحة التي أوردناها غُنيةٌ، وكل ما أوردناه من أمثال هذا فهو يمشي على هذا النَّمطِ، بالله التوفيق.

[63] – ذكره ابن قُتَيبَةَ في تأويل مختلف الحديث، ص: (396) وهو نص الإنجيل الصحيح كما قال ابن قتيبة، وهذا دليل على أن إثبات صفة الاستواء لله من جملة رسالة موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء، ومما يؤكد ذلك ما وقع بينه وبين فرعون حيث أمر فرعونُ وَزِيرَهُ هَامَانَ أَنْ يَبْنِيَ له صَرْحًا

ومن ذلك قصة موسى وفرعون، حيث أَمَر فِرعَونُ وَزِيرَه هَامَانَ بِأَنْ يَبْنِيَ له صَرحًا لِيَرْتَقِيَ إلى السَّماءِ فَيطَّلِعُ إلى إِلَهِ مُوسَى كما قال تعالى: « يَا هَامَانُ ابْنُ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا » غافر: (36- 37)

ومقتضى هذه الآية أن إثبات صفة العلو الذاتي من ضِمنِ ما جاء به موسى عليه السلام لقَومِه مِنَ الشَّرعِ، فَلَوْ لم يَكُنْ كذلك لما اسْتَهزَأ له فِرعَونُ بِطَلَبِ الْوُصُولِ إلى السَّماءِ لِيُشَاهِد اللهَ عِيَانًا، وهذا من أمحل المحال، ولِلَّهِ دَرُّ ابنِ أَبِي الْعِزِّ الْحَنَفِي حَيْثُ قال مَنْ نَفَى العُلوَّ فهوَ فِرْعَونِيٌّ، وَمَنْ أَثبَتَهُ فَهُو مُوسَوِيٌّ مُحَمَّدِيٌّ.

لِيَصِلَ به إلى السماء فَيَطَّلِع إلى اللهِ في زَعمِهِ الفَاسِدُ أو اسْتِهْزَاءً لِمُوسى عليه السلام، كما جاء في سورة غافر، وبالله التوفيق.

بَعْضُ أَقْوَالِ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي إِثْبَاتِ صِفَةِ الْعُلُو

وهناك الآثار الصحيحة عن سلف الأمة من الصحابة ومن بعدهم من كبار التابعين وأتباعهم الدالة على إثبات صفة استواء الله على عرشه، ومن ذلك ما روى عُثْمَانُ الدَّارِمِيُّ في الرَّدِّ على الْجَهْمِيَّةِ عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت: « وَايْمُ اللهِ إِنِّي لَأَخْشَى لَوْ كُنْتُ أَحَبُّ قَتْلَهُ لَقَتَلْتُ، ـ تَعنِي عُثْمَانَ ـ وَلَكِنْ عَلِمَ اللهُ فَوْقَ عَرْشِهِ أَنِّي لَمْ أُحِبَّ قَتْلَهُ »[64] وإسناده صحيح كما قال العلامة المحدث الألباني في مختصر العلو.

ومن ذلك ما روى الحاكم في الْمُسْتَدرَكِ بإسناد صحيح على شرط مسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: « يُنَادِي مُنَادٍ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ: أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ فَيَسْمَعُهُ الْأَحْيَاءُ وَالْأَمْوَاتُ، ثُمَّ يَنْزِلُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا »[65]

ومن ذلك ما روى الْبَيْهَقِيُّ وَالدَّارِمِيُّ وَابْنُ خُزَيْمَةَ بِإِسْنَادٍ صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: « وَالْعَرْشُ عَلَى الْمَاءِ، وَاللهُ تَعَالَى فَوْقَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ »[66]

ومن ذلك ما رَوَى الدَّارِمِيُّ في الرَّدِّ على الْجَهْمِيَّةِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَلى شَرْطِ مسلم، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال لِعَائِشَةَ عِندَمَا حَضَرَتْهَا الْوَفَاةُ:

---

[64] – أخرجه عثمان بن سعيد الدارمي في الرد على الجهمية برقم: (83) وهو صحيح الإسناد.

[65] – أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، باب تفسير سورة حم. المؤمنون: (3637) وهو صحيح على شرط مسلم.

[66] – أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية برقم: (81) وهو حسن.

«كُنْتِ أَحَبَّ نِسَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَمْ يَكُنْ يُحِبُّ إِلاَّ طَيِّبًا، وَأَنْزَلَ اللهُ بَرَاءَتَكِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ »[67]

ومن ذلك ما أَوْرَدَه ابنُ عَبدِ البَرِّ فِي الاستِيعَابِ عِند ترجمة ابنِ رَوَاحَةَ رضي الله عنه، وقال: رَوَيْنَا مِن وُجُوهٍ صِحَاحٍ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ مَشَى لَيْلَةً إلى أَمَةٍ له فَنَالَهَا، فَرَأَتْهُ امْرَأَتُهُ فَلَامَتْهُ، فَجَحَدَهَا فَقَالَتْ: إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَاقْرَأِ الْقُرْآنَ فَإِنَّ الْجُنُبَ لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَقَالَ:

شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ... وَأَنَّ النَّارَ مَثْوَى الْكَافِرِينَا

وَأَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ طَافٍ ... وَفَوْقَ الْعَرْشِ رَبُّ الْعَالَمِينَا

وَتَحْمِلُهُ مَلَائِكَةٌ كِرَامُ ... وَمَلَائِكَةُ الْإِلَهِ مُقَرَّبِينَا

فَقالَتِ امْرَأَتُهُ: صَدَقَ اللهُ وَكَذَبَتْ عَيْنِي، وَكَانَت لا تَحْفَظُ الْقُرْآنَ[68]. وهَذا صَحِيح عَنْ عبد الله بن رَوَاحةَ كَما ذَكَرهُ صَاحِب الاستِيعَاب عِندَ ترجمته.

ومن ذلك قول حَسَّان بْنِ ثَابِتٍ شَاعرِ رَسول الله ﷺ:

شَهِدْتُ بِإِذْنِ اللهِ أَنَّ مُحَمَّدًا ... رَسُولُ الَّذِي فَوْقَ السَّمَوَاتِ مِنْ عَلِ

وَأَنَّ أَبَا يَحْيَ وَيَحْيَ كِلَاهُمَا ... لَهُ عَمَلٌ مِنْ رَبِّهِ مُتَقَبَّلُ

وَأَنَّ أَخَا الْأَحْقَافِ إِذْ قَامَ فِيهِمُ ... يَقُولُ بِذَاتِ اللهِ فِيهِمْ وَيَعْدِلُ

---

67 – أخرجه عثمان الدارمي في الرد على الجهمية برقم: (84) وهو صحيح جيد.

68 – انظر: (الاستيعاب في معرفة الصحابة) ج: (3) ص: (901)

حكاه الحافظ العلامة ابنُ الْقَيِّمِ في اجتِمَاعِ الْجُيُوشِ الإِسْلَامِيةِ على غَزْوِ الْمُعَطِّلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ.

ومِنْ ذلك ما روى عثمان الدارمي في الرد على الجهمية بإسناد حسن عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: « لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ إِلَهَكُمُ الَّذِي تَعْبُدُونَ فَإِنَّ إِلَهَكُمْ قَدْ مَاتَ، وَإِنْ كَانَ إِلَهُكُمُ اللهَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ فَإِنَّ إِلَهَكُمْ لَمْ يَمُتْ »[69]

ومِنْ ذَلكَ ما أخرج ابنُ قُدَامَةَ الْمَقْدِسِيُّ فِي إثبات صِفَةِ الْعُلُوِّ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: «أَنَّهُ خَرَجَ وَمَعَهُ النَّاسُ، فَمَرَّ بِعَجُوزٍ فَاسْتَوْقَفَتْهُ فَوَقَفَ، فَجَعَلَ يُحَدِّثُهَا وَتُحَدِّثُهُ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَبَسْتَ النَّاسَ عَلَى هَذِهِ الْعَجُوزِ، قَالَ: وَيْلَكَ أَتَدْرِي مَنْ هِيَ؟ هَذِهِ امْرَأَةٌ سَمِعَ اللهُ شَكْوَاهَا مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ، هَذِهِ خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ الَّتِي أَنْزَلَ اللهُ فِيهَا " قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا " وَاللهِ لَوْ أَنَّهَا وَقَفَتْ إِلَى اللَّيْلِ مَا فَارَقْتُهَا إِلَّا لِلصَّلَاةِ ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَيْهَا»[70]

---

[69] – أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية برقم: (78)

[70] – أخرجه ابن قدامة المقدسي في كتاب إثبات صفة العلو، باب ذكر أقوال الصحابة رضي الله عنهم أجمعين: برقم: (57)

بَعْضُ كَلَامِ كِبَارِ التَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ فِي ذَلِكَ

وقد تقدم لك أن إثبات صفة الاستواء على العرش أمر أجمع عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين والأئمة الفقهاء قاطبة، لم يثبت إنكار ذلك عن أحد منهم، وهاك بعض أقوال كبار التابعين والأئمة الفقهاء والعلماء الْمُعْتَمَدِينَ، ومن ذلك ما أخرج ابنُ قُدَامَةَ عَنْ مَسْرُوقٍ، أَنَّهُ كان إذا حَدَّثَ عَنْ عَائشةَ رضي الله عنها قال: «حَدَّثَتْنِي الصِّدِّيقَةُ بِنْتُ الصِّدِّيقِ حَبِيبَةُ حَبِيبِ اللهِ الْمُبَرَّأَةُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ فَلَمْ أُكَذِّبهَا»[71]

ومن ذلك ما أخرجه في كتاب الإثبات بإسناد حسن عن عبد الله بن الْمُبارَكِ أنه قِيل له: «كَيْفَ نَعْرِفُ رَبَّنَا؟ قَالَ: بِأَنَّهُ فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ عَلَى الْعَرْشِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ»[72]

ومن ذلك ما أخرجه البَيْهَقِي فِي الأسماء والصفات عن يحي بن يَعْلَى قال: سَمِعْتُ نُعَيمَ بْنَ حَمَّادٍ يقول: سَمِعْتُ نُوحَ بْنَ أَبِي مَرْيَمَ أَبَا عِصْمَةَ يَقول: « كُنَّا عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ أَوَّلَ مَا ظَهَرَ، إِذْ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ تِرْمِذَ كَانَتْ تُجَالِسُ جَهْمًا، فَدَخَلَتِ الْكُوفَةَ، فَأَظُنُّنِي أَقَلَّ مَا رَأَيْتُ عَلَيْهَا عَشَرَةَ آلَافٍ مِنَ النَّاسِ تَدْعُو إِلَى رَأْيِهَا، فَقِيلَ لَهَا إِنَّ هَا هُنَا رَجُلًا قَدْ نَذَرَ فِي الْمَعْقُولِ يُقَالُ لَهُ أَبو حَنِيفَةَ، فَأَتَتْهُ فَقَالَتْ: أَنْتَ الَّذِي تُعَلِّمُ

71 – أخرجه ابن قدامة المقدسي في كتاب إثبات صفة العلو، باب ذكر أقوال التابعين رحمة الله عليهم أجمعين برقم: (68) وصححه الذهبي وابن القيم.

72 – أخرجه ابن قدامة في المصدر السابق، باب ذكر أقوال الأئمة برقم: (83) وصححه ابن القيم في (اجتماع الجيوش الإسلامية)

النَّاسَ الْمَسائِلَ، وَقَدْ تَرَكْت دِينَكَ، أَيْنَ إِلَهُكَ الَّذِي تَعْبُدُهُ؟ فَسَكَتَ عَنْهَا، ثُمَّ مَكَثَ سَبْعَةَ أَيَّامٍ لَا يُجِيبُهَا، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْنَا وَقَدْ وَضَعَ كِتَابَيْنِ: اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي السَّمَاءِ دُونَ الْأَرْضِ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَرَأَيْت قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ: "وَهُوَ مَعَكُمْ" قَالَ: هُوَ كَمَا تَكْتُبُ إِلَى الرَّجُلِ: إِنِّي مَعَكَ، وَأَنْتَ غَائِبٌ عَنْهُ »[73]

قَال الْبَيْهَقِيُّ: لَقَدْ أَصَاب أبُو حنيفةَ رَحمهُ الله تعالى فيما نَفَى عن الله تعالى مِنَ الْكَوْنِ فِي الأَرْضِ، وفيما ذَكَرَ مِن تَأويلِ الآية، وَتَبِعَ مُطَلَقَ السَّمْعِ في قوله: إِنَّ الله عَزَّ وجَلَّ في السَّماءِ.

ومِنْ ذلك ما أَخرجه ابْنُ قُدَامَةَ الْمَقْدِسِيُّ فِي كِتَابِ الإِثْبَاتِ عن جَعْفَرِ بْنِ عَبدِ اللهِ أَنَّه قال: « جَاءَ رَجُلٌ إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ " الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى "كَيْفَ اسْتَوَى؟ قَالَ: فَمَا رَأَيْتُ مَالِكًا وَجَدَ مِنْ شَيْءٍ كَمَوْجِدَتِهِ مِنْ مَقَالَتِهِ، وَعَلَاهُ الرُّحَضَاءُ[74] وَأَطْرَقَ الْقَوْمَ وَجَعَلُوا يَنْظُرُونَ مَا يَأْتِي مِنْهُ فِيهِ، قَالَ: فَسُرِّيَ عَنْ مَالِكٍ فَقَالَ: الْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالاسْتِوَاءُ مِنْهُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ ضَالًّا، وَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ »[75]

---

73 – أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات برقم: (905)

74 – قوله: (الرحضاء) بضم الراء وفتح الحاء، العَرَقُ الكثير الذي يَعُمُّ الْجِسمَ، وربما يَبُلُّ الثَّوبَ.

75 – أخرجه ابن قدامة المقدسي في الإثبات برقم: (88) وأخرجه البيهقي في الأسماء من طريق عبد الله بن وهب، وجَوَّدَ ابْنُ حجر العسقلاني الإسناد في الفتح، وبالله التوفيق.

ونحوه عن شيخه رَبِيعة بْنِ أَبِي عَبدِ الرحمن رَبِيعةَ الرَّأْيِ، أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالى: «الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى» طه: (5)

قال: الاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَمِنَ اللهِ الرِّسَالَةِ، وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا التَّصْدِيقُ. أخرجه ابن قدامة المقدسي في الإثبات.

ومن ذلك ما أخرجه أيضا عن نَافِعٍ قال: قال الإمامُ مَالِكٌ: « اللهُ فِي السَّمَاءِ وَعِلْمُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، لَا يَخْلُو مِنْهُ شَيْءٌ »[76] كذا ذكره ابن عبد البر في التمهيد.

ومن ذلك ما أخرجه عَنْ أَحْمَدَ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَقُدْرَتُهُ وَعِلْمُهُ بِكُلِّ مَكَانٍ، قَالَ: نَعَمْ عَلَى الْعَرْشِ، لَا يَخْلُو مِنْهُ مَكَانٌ.[77]

ومِنْ ذلك ما أخرجه عن الإمام الشافعي أنه قال: « الْقَوْلُ فِي السُّنَّةِ الَّتِي أَنَا عَلَيْهَا وَرَأَيْتُ أَصْحَابَنَا عَلَيْهَا أَصْحَابَ الْحَدِيثِ الَّذِينَ رَأَيْتُهُمْ فَأَخَذْتُ عَنْهُمْ، مِثْل سُفْيَانَ، وَمَالِكٍ، وَغَيْرِهِمَا، الْإِقْرَارُ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَذَكَرَ شَيْئًا ثُمَّ قَالَ: وَأَنَّ اللهَ عَلَى عَرْشِهِ فِي سَمَائِهِ يَقْرَبُ مِنْ خَلْقِهِ كَيْفَ شَاءَ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كَيْفَ شَاءَ، وَذَكَرَ سَائِرَ الاعْتِقَادِ »[78]

---

[76] – أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية برقم: (76)

[77] – أخرجه الدارمي في المصدر السابق برقم: (80)

[78] – أخرجه الدارمي في المصدر السابق برقم: (92) وإسناده وَاهٍ كما ذكره الذهبي في العلو، والله أعلم.

وقال الإمام البخاري محمد بن إسماعيل في صحيحه: باب «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ» هود: (7) قَالَ أَبُو عَالِيَةَ: « اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ » الأعراف: (54) ارْتَفَعَ. وَقَالَ مُجَاهِدُ: « اسْتَوَى » عَلاَ عَلَى الْعَرْشِ. ثُمَّ سَاقَ الأَدلةَ على ذلك.

وقال ابنُ قُدَامةَ الْمَقْدِسِيُّ الْحَنْبَلِيُّ صاحب الْمُغْنِي في الإثبات: فَإِنَّ الله تعالى وصف نفسه بالعلو في السماء، ووصفه بذلك رسوله محمد خاتم الأنبياء. صلوات الله وسلامه عليهم. وأجمع على ذلك جميع العلماء من الصحابة الأتقياء والأئمة مِنَ الْفُقَهَاءِ، وتَوَاتَرَتِ الْأَخبارُ بذلك على وَجْهٍ حَصَلَ به اليقين، وجَمَعَ اللهُ تعالى عليه قُلوب المسلمين، وجعله مَغْرُوزًا في طِبَاعِ الخلق أجمعين، فَتَرَاهُمْ عِند نُزُولِ الْكَرْبِ بِهِمْ يَلْحَظُونَ السَّماءَ بِأَعْيُنِهِم، ويَرفَعُون نَحْوَها لِلدُّعَاءِ أَيْدِيَهُم، انتهى.[79]

وقال عَبد القادر الْجِيلَانِيُّ الْمُفْتَرَى عَلَيهِ فِي الْغُنِيَةِ: وهو بَائِنٌ من خلقه، ولا يخلو من علمه مكان، ولا يجوز وَصفُهُ بأنه في كُل مكانٍ بَلْ يُقالُ: إنه في السماء على العرش كما قال جَلَّ ثَناؤُه: « الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى » طه: (5)

ثم قال: ويَنْبَغِي إِطْلَاَقُ صفة الاستواء من غير تأويل، وأنه استواء الذات على العرش لا على معنى الْقُعُودِ والْمُمَاسَةِ كما قَالَتِ الْمُجَسِّمَةِ والْكَرَّامِيَّةِ، ولا على معنى الْعُلُوِّ[80]

---

79 – انظر: كتاب إثبات صفة العلو: ص: (1)

80 – أي العلو المعنوي كما يقول الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وإلا وقد تقدم لك رواية البخاري عن مجاهد بن جَبْرٍ أنه فَسَّرَ الاستواء بالعلو، فالعلو عندهم العلو الذاتي، إذ لا ينكره أحد منهم.

والرِّفْعَةِ كما قَالَتِ الأَشاعِرَةُ، ولا على معنى الاسْتِعْلَاءِ والْغَلَبَةِ كما قالتِ الْمُعْتَزِلَةُ، لأن الشَّرعَ لم يَرِدْ بذلك، ولا نُقِلَ عَن أَحَدٍ منَ الصحابة والتابعين مِنَ السَّلفِ الصَّالِح مِن أصحاب الحديث، بَلِ الْمَنْقُولُ عَنهم حَمْلُه عَلى الإطْلَاقِ.[81]

وقال أبو الحسنِ الْأَشْعَرِيُّ في الإبَانَةِ الكِتابِ الذِي صَنَّفهُ في آخرِ أَمرِهِ وَقَرَّرَ فِيهِ عَقِيدَةَ أَهلِ السنة والجماعة: إن قال قائل: ما تقولون في الاستواء؟ قيل له: نقول: إن الله عز وجل يَسْتَوِي على عرشه استواء يليق به، ثم قال: وقد قال قائلون من الْمُعْتَزِلةِ والْجَهمِيةِ وَالْحَرُورِيَّةِ: إن معنى قول الله تعالى: «الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى» طه: (5) أنه اسْتَوْلَى، وَمَلَكَ، وَقَهَرَ، وأَنَّ اللهَ تعالى فِي كُلِّ مَكانٍ، وجَحَدوا أن يكون الله عز وجل مُستَوِيًا على عَرشه كما قال أهل الحق، وذهبوا في الاستواء إلى الْقُدْرَةِ، ولو كان هذا كما ذكروه كان لا فَرْقَ بَيْنَ العرش والأرض السابعة، لأن الله تعالى قادر على كل شيء، والأرض لله سبحانه قادر عليها وعلى الْحُشُوشِ وعلى كل ما في العَالَمِ، فلو كان الله مستويا على العرش بمعنى الاستِيلَاءِ وهو تعالى مُسْتَوٍ على الأشياء كُلِّها، لكان مستويا على العرش وعلى الأرض وعلى السماء وعلى الْحُشُوشِ وَالأَقذَارِ، لأنه قادر على الأشياء مُسْتَوْلٍ عليها، وإذا كان قادرا على الأشياء كلها لم يَجُزْ عِند أحد من المسلمين أن يقول إن الله مستو على الْحُشُوشِ وَالْأَخْلِيةِ[82] تعالى

[81] – انظر (الغُنِيَة) ص: (97 – 98) شركة القدس.

[82] – قوله: (الحشوش) بالضمتين، جمع حش بالضمة، وهو موضع قضاء الحاجة في خارج القرية، و(الأخلية) جمع خلاء بفتح الخاء، وهو معروف.

الله عن ذلك علوا كبيرا، لَم يَجُزْ أَنْ يكونَ الاستواءُ عَلى العَرْشِ الاسْتِيلَاءَ الَّذِي هو عَام في الأشياء كلها، ووجب أن يكونَ معنى الاستواءُ يَخْتَصُّ بالعرش دون الأشياء كلها، انتهى كلامه.[83] فتبين من ذلك أن أبا الحسن الأَشْعَرِيَّ بَرِيءٌ مِنَ الأشاعرة فهو في الْمَشرِق وهم في المغرب، لَيْسَتْ لَهُم أَيُّ رَابِطَةٍ مِنَ الناحيةِ الاعتقادية إلا في الأَشيَاءِ الْمُتَّفَقِ عليها بين المسلمين قَاطِبَةً.

وقال الإمام أبو عبد الله الْقُرْطُبِيُّ في الجامع لِأَحْكَامِ القُرآنِ عِند تَفسيرِهِ لِلآية التي في سُورَةِ طه: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ»: وقد كان السلف الأول رَضِيَ الله عنهم لا يقولون بِنَفيِ الْجِهَّةِ ولا يَنْطِقُون بذلك، بل نَطَقُوا هُمْ وَالكَافَّةُ بِإِثْبَاتِها لِلَّهِ تعالى كما نَطَقَ كِتَابُه وأَخبَرَتْ رُسُلُه، ولَمْ يُنْكِرْ أَحَدٌ مِن السلفِ الصَّالِح أَنَّهُ اسْتَوَى على عرشه حَقِيقَةً، وخَصَّ الْعَرشَ بِذَلِكَ لأنه أعظم مخلوقاته، وإنما جَهِلُوا كَيْفِيَّةَ الْاسْتِوَاءِ، فإنه لا تُعْلَمُ حَقِيقَتُهُ.[84]

ونَكْتَفِي بِهَذا القَدْرِ، وَإِلاَّ فالآثار الصحيحة الدالة على إثبات صفة العلو الحقيقي لله تعالى عن الصحابة والتابعين ومَنْ بَعدَهُم مِن السلف الصالح، وأقوال كِبَارِ العُلماءِ الذين تَلَقَّتْهُمُ الْأُمَّةُ بِالقَبُولِ في ذلك مِمَّا لا يُحْصَى، بَلْ تَسْتَدعِي مُجَلَّدَاتٍ ضَخْمَةً، ونذكر لك الآن حُجَّةَ الْعَقلِ والفِطْرةِ على ذلك ثم نَبْدَأُ الْمُنَاقَشَةَ في هذه المسألة والجواب عن الشُّبُهَاتِ الْمُعَطِّلِينَ وتَأْوِيلَاتِهِمُ الْبَاطِلَةِ، وبالله التوفيق.

---

[83] – انظر كتاب (الإبانة) ص: (108)

[84] – انظر الجامع لأحكام القرآن، ج: (7) ص: (192)

الْحُجَّةُ الْعَقْلِيَّةُ عَلَى عُلُوِّ اللهِ تَعَالَى عَلَى خَلْقِه الْعُلُو الذَّاتِي

ومن المتعارف عليه أَنَّ كلَّ ذِي عَقلٍ سليم لا يُنكر أن العلو من صفات الكمال، ولا يَستنكف أَنْ يكون مُتَّصِفا به، بل يُحب ذلك ويَتَبَجَّحُ به، فإن كانت العقول البشرية السليمة قد تعارفت على أن العلو من صفات الكمال، فلا شك أن الله تعالى هو أولى بذلك من غيره، لأنه أَعْلَى مِنْ كُلِّ عَلِيٍّ.

ونرى الرؤساء من الملوك والعظماء لا يجعلون عروش ملكهم في قصورهم إلا بالأماكن العالية التي هي أرفع من أماكن من سواهم من رعاياهم، وهذا يؤيد ما ذكرنا لك من أن العقول الإنسانية السليمة قد تعارفت على أن العلو من صفات الكمال، فإن كان عظماء الدنيا وملوكها هم أحق من هو دونهم بالعلو الذاتي لشرفهم وعظمتهم، فَاسْتِحْقَاقُه لله مِنْ باب أَوْلَى، لأن الله أَعظم مِن كُل عظيم، فهو أولى أن يكون أَعْلَى بذاته عَلَى خلقه.

ثم نحن وأنتم نعلم أَنَّ الصِّفةَ السُّفْلِيَّةَ نَقْصٌ باتفاق العُقلاء، وهي مُستَحِيلة في حق الله تعالى ومُنْفَيةٌ عنه، فإن كانت مُستحيلة في حق الله تعالى، كانت الصِّفَةُ الْعُلْوِيَّةُ وَاجِبةً في حَقِّه سبحانه، ولا يُنكِر هذا إلا مُعْنِدٌ كَذَّابٌ، وبالله التوفيق.

الْحُجَّةُ الْفِطْرِيَّةُ عَلَى عُلُوِّ اللهِ تَعَالَى عَلَى خَلْقِه الْعُلُو الذَّاتِي

وأما الدليل الفِطْرِي على كون الله تعالى في السماء مستويا على عرشه فهو أمر لا مَجالَ لِلتَّعطِيل فيه، ولا يُمكِنُ الْمُنازَعةُ والْمُكابَرةُ فيه، إذ أن كل إنسان مَفطُور على أن الله في السماء، هذه فِطرَةُ الله التي فَطَرَ الناسَ عليها، ولا يُنَازِعُ فيها إلا مُعَكَّرُ الْفِطرَةِ الذي انْسَلَخ مِنَ الفطرة البشرية الأصلية، وما من إنسان دعا الله بأحد أسمائه الحسنى إلا وجد من قلبه ضَرُورةً بِطَلَب العلو إلى السماء، وهذا معلوم من الفطرة بالضرورة، ولا ينكره إلا من عَكِرَتْ فِطْرَتُه، ولذا لما قال أَبو مَعَالِي الْجُوَيْنِيُّ، وكان يُقَرِّر مذهب الأشاعرة وينكر العلو الذاتي قبل أن يَمُنَّ اللهُ عليه بالرجوع إلى مذهب أهل السنة والجماعة: كان الله تعالى ولم يكن شيء غيره، وهو الآن على ما كان عليه. يُريد بقوله هذا نفي استواء الله على العرش، لأن الله كان قبل العرش، وهو الآن على ما كان عليه، أي لم يَسْتَوِ على العرش، فقال له أَبو العَلَاءِ الْهَمَذَانِيُّ: يا أستاذ دَعْنَا مِن ذِكر العرش والاستواء على العرش، أَخْبِرْنَا عن هذه الضَّرورةِ التي نَجِد في نفوسنا، ما قال عارف قَطُّ: يا الله إلا وجد من قلبه ضَرُورةً بطلب العلو، فَبُهِتَ أَبو الْمَعَالِي وجعل يَضرِبُ على رأسه يقول: حَيَّرَنِي الْهَمَذَانِيُّ. وذلك أن هذه فِطْرَةُ اللهِ التي فَطَرَ كُلَّ إنسانٍ عليها لا مَجال لِإِنْكَارِهَا.

حتى الْمُنكِرون نراهم عِندَ نُزولِ الْكُرَبِ بِهم يَلحَظُون السماءَ بِأَعْيُنِهِم ويرفعون نَحوَها أَيْدِيَهُم للدعاء بِأَكْثَرَ ما يرفعها الْمُثْبِتُونَ، وتَجِد بَعضَهم يَشْخَصُون أبصَارَهُم إلى السماء يَقُولون: يَا رَبِّ يا رَبِّ، ولماذا لا يُدِيرُونَ بِأَيدِيهِم نَحوَ كُلِّ جِهَةٍ؟ وهذا يُقَرِّرُ ما ذكرنا من الدلالة الفطرية، وبالله التوفيق.

الشُّبُهَاتُ وَجَوَابُهَا حَوْلَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ

ولا شك ولا ريب أن كل من تتبع ما ذكرنا من الأدلة القرآنية، والأحاديث النبوية، وكلام الصحابة، والتابعين، والعلماء الْمُعتَمَدِين من الأئمة الفقهاء والمحدثين وغيرهم من العلماء الذين تَلَقَّتْهُمُ الْأُمَّةُ بالقبول طالبا للحق، يَضْرِب عَنْ كُل ما خالف ذلك صَفحًا، ولا يلتفت إليه، بَل يَستَقبِل مَذهبَ أهل السنة والجماعة بالتسليم والانقياد، إذ لا ينكر هذه الْحُجَجَ الدَّامِغةَ إلا مُعْنِد كذَّابٌ عُتُلٌّ جَوَّاظٌ مُستَكْبِرٌ، غير أَنَّ زُعمَاءَ الْإِلْحادِيةِ الذين أضلهم الشيطان عن سواء السبيل لا ينقادون إلى هذه الأدلة الصريحة إعراضا عن الحق واتباعا للشيطان، ويُشَوِّشُونَ عُقولَ العَوامِ بتأويلاتهم الباطلة وشُبُهاتِهم الزَّائغةِ التي هِيَ عَيْنُ التحريف، ومن تحريفاتهم:

1- إن المراد بالاستواء المذكور في القرآن وغيره من السنة: الاسْتِيلَاء، « الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى » أي استولى.

2- إن إثبات صفة الاستواء لله يستلزم تشبيهه بمخلوقاته.

3- قالوا عن حديث الجارية: إنما أقرها النبي ﷺ على جوابها لسؤاله لها « أين الله؟ قالت: في السماء » لقلة فَهْمِهَا، فَخاطَبَها بقدر عقلها.

4- إن إثبات صفة الاستواء مُعارض لقوله تعالى: « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ » الحديد: (4)

الْجَوَابُ عَنْ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ

وقد سلف لك ذكر بعض ما جاء به المنكرون حول هذه المسألة الجليلة من تأويل الاستواء بالاستيلاء، وغير ذلك من شبهاتهم السابقة الذكر، فأما تأويلهم «اسْتَوَى» بـ «اسْتَوْلَى» فهو مشهور عنهم، وذلك اعتمادا على بَيْتٍ مَنْسُوبٍ إلى الْأَخْطَلِ الشَّاعِرِ النَّصرَاني كما زعموا مع أن الصواب لا تصح نِسبتُه إليه:

قَـــدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ ... مِـنْ غَيْرِ سَيْفٍ أَوْ دَمٍ مُهْرَاقٍ.

ومعنى استوى بشر على العراق، أي استولى وتَمَكَّنَ منها حيث صارت في يده، وليس المراد ارتفع واستعلا عليها، وهذا جَهلٌ وغَباوةٌ، ولأجل فِرارهم من العَقرب وَقَعوا على الصِلِّ، أي من أجل فرارهم من التشبيه فيما زعموا وقعوا في التشبيه الذي أخبث من التشبيه الذي يَفِرُّون منه، ولو تَدَبَّروا معنى « استولى » لم ينسبوها إلى الله الخالق الباري، لأن كلمة « استولى » لا تُستَعمَل إلا في من غلب على عدوه وصار ما عنده في يده باتفاق اللُّغَوِيينَ، وتأويلهم هذا يستلزم أن يكون هناك إِلَهٌ آخر فَغَلَبه الله واستولى على ملكه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فنسألهم من الذي ضاد اللهَ تعالى في ملكه ثم غلبه الله فاستولى على ملكه؟ ليس لهم مَخْلَص من هذا الإلزام إلا بالرجوع إلى الأخذ بمذهب السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم في تفسيرهم للاستواء، وأخرج ابنُ عَرَفَةَ النحوي في الرد على الجهمية عن داود بن علي قال: «كُنَّا عِنْدَ ابْنِ الْأَعْرَابِي، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: "الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى"؟ قَالَ: هُوَ عَلَى عَرْشِهِ كَمَا أَخْبَرَ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، إِنَّمَا مَعْنَاهُ: اسْتَوْلَى، فَقَالَ: اسْكُتْ،

لَا يُقَالُ اسْتَوْلَى عَلَى الشَّيْءِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مُصَادِقٌ إِذَا غَلَبَ أَحَدُهُمَا قِيلَ: اسْتَوْلَى كَمَا قَالَ النَّابِغَةُ»:

إِلَّا لِمِثْلِكَ أَوْ مَنْ أَنْتَ سَابِقُهُ   سَبْقَ الْجَوَادِ إِذَا اسْتَوْلَى عَلَى الْأَمَدِ.

وذكر محمد بن النَّضر أنه سمع أبا عبد الله ابن الأعرابي إمام أهل اللغة يقول: أَرَادَنِي ابنُ أبي داود أن أَطلُبَ له في بعض لُغَاتِ العرب ومَعانيها (الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى) بمعنى استولى، فقلت له: واللهِ ما يكون هذا وما وجدته، كذا نقله ابن القيم في اجتماع الجيوش عن نِفْطَوَيْهِ إِبرَاهِيمَ بْنِ عَرَفَةَ النَّحْوِي.[85]

والحاصل أن تأويل الاستواء المذكور في القرآن بالاستيلاء لا تَقْبَلُهُ اللُّغَةُ، ولا يجوز نِسبته إلى الله، لأنه يستلزم أن يكون لله شريك في ملكه فغلبه الله فاستولى على ملكه، وهذا هو المعروف من هذا اللفظ عند العرب، كما تقدم لك، وقد تَشَبَّه هؤلاء المنكرون باليهود وشاركوهم في تحريف ما أنزل الله تعالى بالزيادة، ولله دَرُّ ابْنِ القيم حيث قال في الكافية الشافية:

نُونُ الْيَهُودِ وَلَامُ الْجَهْمِيِّ هُمَا   فِي وَحْيِ رَبِّ الْعَرْشِ زَائِدَتَانِ
أُمِرَ الْيَهُودُ بِأَنْ يَقُولُوا حِطَّة   فَأَبَوْا وَقَالُو حِنْطَةٌ لِهَوَانِ
وَكَذَلِكَ الْجَهْمِيُّ قِيلَ لَهُ اسْتَوَى   فَأَبَى وَزَادَ الْحَرْفَ لِلنُّقْصَانِ.

---

85 – انظر (اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية) ج: (2) ص: (9)

يعني: لما أمر الله اليهودَ بأن يقولوا حِطَّة عند دخولهم القرية التي ذكر الله في أحكم تنزيله كما قال تعالى: « وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ القَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغْدًا وَادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ . إلى قوله : . فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ » البقرة: (57 – 58)

فَبَدَّلُوا بزيادة النون حيث قالوا: حِنْطَةٌ فِي الشَّعِيرِ، وأما الجهمي لما قال الله: « الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى » طه: (5)

فَبَدَّلَ بزيادة اللام حيث قال: استولى، فَتَشَبَّه باليهود في تغيير ما أنزل الله تعالى من الوحي، وكُلُّ مَن سَلك هذا الْمَسلَك فهو جَهْمِيٌّ يَهُودِيٌّ، وبالله التوفيق.

وأما الشبهة الثانية، أي قولهم: إن إثبات صفة العلو الذاتي لله تعالى يستلزم تشبيهه بمخلوقاته، فهذا غير صحيح، والجواب أن صِفاتِ الرب لا تتماثل مع غيرها من صفات الخلق، ولنا إلزام ليس لهم مخلص منه إلا بالرجوع إلى المذهب الصحيح في باب الأسماء والصفات، وهو أن الله يقول في كتابه: « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ » الشورى: (11)

فنفى اللهُ الْمُمَاثلةَ بَينَه وبَيْنَ مخلوقاته وأثبت لنفسه صِفَتَيِ السَّمعِ وَالبَصَرِ مع أن المخلوقات موصوفون بهما، ونحن وأنتم مُتَّفِقون على إثبات صِفَتَيِ السمع والبَصَر لله تعالى، وكذلك صفات الحياة، والعلم، والكلام، والإرادة، والقدرة، مع كون الخلق مُتَّصِفِينَ بهذه الصفات، ومن المعقول أن هذه الصفات السبع ما هي إلا أعراض تقوم بأجسام الإنسان وغيره من المخلوقات، فإن قلتم باستلزام المشابهة من ذلك فالأمر فيه ظاهر، وإن قلتم بعدمه انتقض بذلك قولكم بأن إثبات الاستواء الذاتي يستلزم المشابهة، إذ أنه لا فرق بين هذا وذاك، ولذا إذا قلتم: سَمْعُه، وبَصَرُه، وحَياتُه، وكَلامُه، وإرادته، وقُدرَته، وعِلمُه كُلُّها لَيْستْ أَعْرَاضا، بل هي صفات لائقة بكماله سبحانه بدون تشبيه، كذلك نقول في استوائه على العرش وفي سائر صفاته التي أثبتها لنفسه في كتابه وأثبتها رسوله ﷺ في سنته المطهرة، ومما يؤيد ذلك ما تقدم في الآية الكريمة من الإثبات ونفي المماثلة، فإنه تعالى لما نفى المماثلة بينه وبين الخلق أثبت لنفسه صفتي السمع والبصر، مع كون الخلق مُتَّصِفِين بهما، فاقتضى ذلك أن اتصافه بهما لا يستلزم المشابهة، ولو كان كذلك ما أثبتهما لنفسه، فالاشتراك في نفس الاسم

لا يستلزم الاشتراك في الحقيقية والكيفية، وهذا معلوم بالضرورة، فاستواء الطَّيرِ مَثلًا على ظهر البيت أو فوق الشجرة، واستواء الإنسان على الكرسي أو على ظهر الدابة، أو استواء الدابة على الأرض لا يَستَلزِمُ مُشابهةَ كُلٍّ منها بالآخر، فإن كان هذا في حق المخلوقات فمن باب أولى أن يكون استواء الله على عرشه لا يستلزم المشابهة بينه وبين مخلوقاته، فاستواؤه لائق بعظمته وكماله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

والسبب الذي حَمَلَ الْمُنكرين على اخْتِراع هذه الشبهة، أنهم ما فَهِمُوا من صفات الله تعالى إلا ما يليق بالمخلوقات، ولا يَتَبادَرُ إلى أَذْهَانِهم ما يليق بمعبودهم إلا ما يليق بالعباد، فنسأل اللهَ ربنا أن يُوَفِّقَنا على إيثار محابه ومراضيه على الهوى.

وأما الشبهة الثالثة، أي قولهم عن حديث الجارية: إنما أقرها النبي ﷺ على قولها: "أَنَّ اللهَ فِي السَّمَاءِ" لِقِلَّة فَهْمِها وعَقلِها، ومن المعلوم أن الإنسان يُخَاطَب بقدر عقله. فهذا تأويل باطل مردود من وجوه:

الأول: أنه من المستحيل أن يُقِرَّ النَّبِيُّ ﷺ أحدا على غير صواب لقلة عقله وفهمه، لأنه ﷺ مأمور بالتبليغ، وقد تَصَادمَتْ هذه السَّفْسَطَةُ بِالْمَقاصد التي من أجلها ابْتُعِثَ الرُّسُلُ، إذ أَنَّ إقرَارَهُ ﷺ أَحَدًا على غير صواب يستلزم كونه لم يَمْتَثِلْ هذا الأمر، وهذا مستحيل في حقه ﷺ، فاقتضى ذلك أن ما أَقَرَّهَا النبي ﷺ عليه من جوابها هو الصواب.

الثاني: لو كان ما ذكروه حقا لبين النبي ﷺ لأصحابه وَجْهَ الصواب من بعد ذلك؟ فسكوته ﷺ عن إعادة البيان لهم يقتضي أن ما ذَكَرَتْهُ هو الصواب، ولو كان العَكْس لَبَيَّنَ ذلك ولو لبعضهم، إذ أنه ليس من المعقول أن يكون الحاضرون كلهم ضُعفاءَ الْعُقُول، بل ونَسَبُ هذه الصحابية الجليلة إلى قِلَّة العقل والفهم من سوء الأدب مع الصحابة، وانتقاص في حقهم! رضوان الله عليهم أجمعين.

الثالث: من المعلوم أن النبي ﷺ لم يُقِرْ أَحَدا على خطأ لِقِلَّة عقله أو فَهْمِه ولو مَرَّةً واحدة، سواء بَدْوِيًّا كان أو حَضَرِيًّا، ذَكَرًا أو أُنْثَى، صَغِيرا أو كَبِيرا، لا في مسائل العبادة الْبَدَنِيَّةِ ولا الْمُعاملات فَضْلًا عن الْمَسائل الاعتقادية التي هي روح الدين كُلِّه يَحيا بها ويموت بدونها، وقِصَّةُ الْمُسِيءِ صَلاتَهُ مَشهُورة، فإنه صلى ولم يأت بها على أحسن وجهها المشروع، فأنكر عليه النبي ﷺ إساءته وبين له وجه الصواب، ولم يُقِرْهُ

على الخطإ، وكذلك قِصَّةُ مُعَاوِيةَ بنِ الْحَكمِ السُّلَمِيِّ حَيْث عَطَسَ رَجُل في الصلاة وحمد الله، فَتَرَحَّم له معاوية وهو في الصلاة فنظر إليه الناس، فشرع يتكلم فأشاروا إليه أَنِ اسْكُت، فلما قضى النبي ﷺ الصلاة نصح له وبين له أن الصلاة لا يَصْلُحُ فيها شيء من كلام الناس، ولم يُقِرْهُ النبيُّ ﷺ على خطئه هذا، ونظائر هذا كثيرة، فإذا كان النبي ﷺ لا يترك واحدا من أصحابه على خطإ فيما يتعلق بالعبادات البدنية فكيف يُقِرُّ أحدا على ذلك فيما يتعلق بالمسائل الاعتقادية جَنَاب الله جل ثناؤه، فاقتضى ذلك أن ما أقرها عليه هو الحق وما ذكرتموه غير صحيح، بل هو باطل مردود، وهو من كَيْسِكُم ليس لكم سلف في ذلك من الصحابة والتابعين وتابعيهم، ولا غيرهم من العلماء العاملين المعتمدين، وبالله التوفيق.

قال الذهبيُّ في العلو، ص: (28): ففي الخبر مسألتان إحداهما شرعية، قول المسلم: أين الله؟ وثانيتهما قول المسئول: في السماء. فمن أنكر هاتين مسألتين فإنما ينكر على المصطفى ﷺ.

وأما الشبهة الرابعة، أي أن إثبات صفة الاستواء مُعارِض لقوله تعالى: « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا » المجادلة: (7) فظاهر هذه الآية يُعَارِض ظَوَاهِرَ النصوص الدالة على إثبات صفة الاستواء. فنقول أولا: ليس في كلام الشارع أي تَعارُض، وما كان من ذلك فمن قصور إلمام المرء بالنصوص الشرعية، فالمراد بِالْمَعِيَّةِ هنا: إحاطة علم الله تعالى بالمرء، أي إن الله مع كل إنسان بعلمه، بالرغم من أنه مستو على عرشه بذاته استواءً يليق بجلالته وكماله سبحانه، وليس المراد أنه مع كل شخص بذاته كما تَزْعُمُه هذه الفرقة الغاوية، فإنهم مع نَفْيِهم لصفة العلو يعتقدون أن الله مع كل إنسان في كل مكان بذاته تأكيدا لضلالتهم وغَوايتهم واعتقاداتهم الباطلة من أنه يمكن للمرء أن يرى الله تعالى في الدنيا إذا بلغ مقاما معلوما من مقامات الأولياء فيما زعموا، وتأييدا لمُعتَقَدِهم الباطل الفاسد الذي هو أَخْبَثُ من مُعْتَقَد فِرعَون، وهو وَحدَةُ الْوُجُودِ بمعنى كُلُّ ما رَأَيتَ مِنَ الْمَوجودات فهو الله، والوُجود عِندهم يَتَّحِدُ ولا ينقسم إلى خالق ومخلوق، بل كله هو الله، ولذا سَلَكُوا هذا الْمَسلَك وأنكروا صفة العلو، لأنهم إذا أثبتوها لم يستطيعوا ترويج هذه الاعتقادات الشيطانية الخبيثة،[86] وهذا، أعني اعتقاد أن الله تعالى مع

[86] – وهذا هو السبب في إنكارهم صفة الاستواء الذاتي ونفيه عن الله سبحانه وتعالى، فإنهم إذا أثبتوه له لا يمكن لهم أن يَكذِبوا على رؤية الله تعالى في الدنيا، وأنه يَظهَرُ لهم فَيَرَوْنَهُ في صورته متى شاءوا، وفي هذا تناقض منهم، لأنه إذا كان الوجود يَتَّحِدُ ولا ينقسم فلماذا يحتاجون إلى رؤية الله بصورة معينة والوجود كله هو الله؟ فوحدة الوجود رأس كل شر وجريمة، ومضمون في هذا المذهب

كل إنسان بذاته يستلزم أن يكون الله في أماكن النجاسة والخلاعة، ويستلزم أيضا أن يكون مُتَجَزِّءًا كُل جُزْءٍ منه في مكان، أو مُتَعدِّدًا كُل إِلَهٍ في جِهَةٍ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وكذلك يستلزم أن يكون الله في الخلق في كل وقت وفي أي حال كما اشتهر ذلك على ألسنة أهل وحدة الوجود أصحاب الأوزاق والمواجيد الخارجة عن حدود الضبط والتقييد على رأسهم إمام الإلحادية الطاغي فرعون هذه الأمة ابن عربي الْحَاتِمِي صاحب كتاب الفتوحات المكية، أو الفتوحات الإلحادية.

فالمعية المذكورة في القرآن هي الكِنَاية عن إحاطة الله تعالى بكُل شيْء علما، وسمعا، وبصرا، وقدرة، ومعنى قوله تعالى: « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُم » أي هو معكم بعلمه، عالم بأحوالكم، سميع لأقوالكم، بصير بأعمالكم وحركاتك وسَكناتكم، قادر عليكم، وهكذا يفسرها سلف الأمة من الصحابة ومن بعدهم، ولم يُنْقَلْ عن أحد منهم أن المراد بذلك المخالطة بالذات.

ثم إن المعية تنقسم إلى قسمين، معية عامة، ومعية خاصة: فالمعية العامة هي عبارة عن إحاطة علم الله تعالى، وقدرته، وسَيْطَرته، وسمعه، وبصره بجميع الخلق، ولا يخرج عن ذلك شيء من مخلوقات الله.

من العقائد الفاسدة، والاعتقادات الباطلة، والعبث بشريعة الله تعالى، أخبث وأقبح من مُعَتَقَدَاتِ اليهود والنصارى حول الباري جل وعلا، ومن أخبث ما يقولون: أن الموجودات ظل للوجود الحق فلا موجود إلا الله، والمعنى كل ما رأيت من الموجودات فهو الله لا فرق بينهما! ولذلك يفسرون كلمة الشهادة: (لا إله إلا الله) بـ لا إله موجود إلا الله، أو لا معبود إلا الله، أي كل الموجودات هي الله! عياذا بالله من الكفر والضلال.

وأما المعية الخاصة، فهي عبارة عن نُصْرَة الله، وتأييده، ومُراقبته لِشَخص من الأشخاص المؤمنين بخلاف العامة الآنفة الذِّكر، وتنقسم إلى قسمين أيضا: خاصة مُقَيَّدَةٌ بِشَخْصٍ، وخاصة مُقيَّدة بِوَصْفٍ: فالخاصة الْمُقيَّدة بشخص هي عبارة عن كون الله مع من اصطفاه من عباده المؤمنين بنصره وتأييده ومُراقبته، كقوله تعالى: « إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعْنَا » التوبة: (40)

فهذه المعية خاصة مُقَيَّدَةٌ بالشخصين، وهُمَا حَبِيبُنا المصطفى ﷺ، وصديقه الْوَدُود أبو بكر الصديق الأكبر رضي الله عنه، والمعنى أن الله معهما بمراقبته، ونصره، وتأييده يَكْفِيهِما شر أعدائهما، وليس المراد هو مَعَهمَا بذاته، ولا قائل به من سلف الأمة.

وأما الخاصة الْمُقَيَّدةُ بِوَصْفٍ: فهي عِبارة عن كون الله مع مَنِ اتَّصَفَ بما يُحبه ويَرضاه من عباده المؤمنين بنصره ومُساندته، كقوله تعالى: « إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » النحل: (28)

أي إن الله مع المحسنين الذين يُحَافِظونَ على حدوده، ويُوَاظِبون على طاعته ويُسَلِّمونَ الْحَاكِمِيةَ له المولى جل وعلا بنصره وتأييده، فَقُيِّدَ الْمَعِيةُ بِالْوَصفَيْنِ، التقوى والإحسان، أي هي خاصة بِالْمُتَّصفِين بِصِفَتَيِ التقوى والإحسان فلا يُشارِكُهم فيها من ليس بتقي ولا محسن.

والْمَعيةُ الْخَاصةُ الْمُقيدَةُ بشخص أخص من الخاصة المقيدة بوصف، وهي بجميع أنواعها تستلزم النُّصرَةَ، والتَّأْيِيد، والْمُراقبة، ولا تعني الاختلاط والْمُشاركة في المكان الواحد بالذات، وهذا مُستحيل في حق الله تبارك وتعالى، وبالله التوفيق.

إِشْكَالٌ وَالْجَوَابُ عَنْهُ

قال تعالى: « ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ » وقال أيضا: « وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ » وظاهر هَاتين الآيتين يُشْكِلُ على كثير من الناس، إذ أَنَّ كون الله في السماء يستلزم أن تكون السماء مُحِيطةً به تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، نعم، وليس في كلام الله تَناقُض، والجواب عن ذلك أن لفظ السماء يُطْلَقُ على العلو والارتفاع، و« في » تأتي بمعنى « على » وهذا معروف في اللغة، فيكون المعنى: «مَنْ علا وارتفع» وأما قوله: « وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ » فالمراد به أي هو الْمَلِكُ الْمَعْبُود الْمُدبِّر في السماء وفي الأرض، فَانْدَفَع هذا الإشكال، والله أعلم.

مِنْ أَيْنَ لَكُمْ هَذَا أَيُّهَا الزَّنَادِقَةُ

وقد نَبَتَتْ نَابِتَةٌ مِنَ الزَّنادِقَة الْمُلْحِدِين يقولون: الله لا يُقَال هو في فَوقٍ، ولا تَحتٍ، ولا يَمينٍ، ولا يَسار، ولا أَمام، ولا خَلْف، ليس هو دَاخلًا في العالم ولا خارجا عنه، لا مُتَّصِلاً بالعالم ولا مُنْفَصِلا عنه! لا شك ولا رَيْبَ أن هذا القول هو نَفس التَّعطِيلِ الْمُطْلَق على وجود الله تعالى، إذ أنه لو قِيلَ لأفصح الناس بَيَانًا صِفْ لنا الْمَعدوم لما استطاع أن يصف بأكثر ما وصف به هؤلاء ربهم، ولو سألك رجل عن رجل معروف لَدَيْه فقال لك: أين الفلان؟ فَجَعَلْتَ تُعَبِّرُ بمثل هذه العبارة، يعلم أنك مُصِيب بالجنون، لأن ذلك يقتضي بِصَراحَة أن الذي سألك عنه معدوم محض غير موجود أصلا، نعوذ بالله من الكفر والضلالات.

أيها العزيز القارئ، ما ذكرنا لك في هذا الكتاب من الأدلة الظاهرة على استواء الله تعالى على العرش غَيْضٌ مِنَ الْفَيْض، وإلا فالأدلة الواردة في ذلك لا تحصى، واستقصاؤها يستدعي مجلدات ضخمة، وفيما ذَكَرْنَا غُنِيَةٌ لطالب الحق، ولا يُنْكِر ذلك بعد ثُبُوت هذه الأدلة إلا مُعْنِدٌ كَذَّاب عُتُلٌّ جَوَّاظٌ مُسْتَكْبِرُ مُرْتَابٌ، والله نسأل أن يأخذ بأيادينا إلى محابه ومراضيه.

قوله: «**خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَيَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**» لفظ توسوس بضم التاء وفتح الواو وسكون السين وكسر الواو الثانية من الوَسوسة، وهو الصوت غير رفيع، أو حديث النفس والأفكار، وهو المراد هنا.

وقوله: « حَبْلِ الْوَرِيدِ » بفتح الواو وكسر الراء وسكون الياء، وهو عِرْقٌ يَتَّصِل بِالْكَبِد وَالقَلب، وفيه مَجاري الدم والروح، كذا فسره الحسن البصري، وقيل: هو حبل العاتق، وهو مُمْتَدٌّ من ناحية الْحَلقِ إلى العاتق، وهُمَا وَرِيدَانِ عَن يَمِينٍ وشمال، ورُوِيَ معنى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو المعروف لُغَةً، والحبل هو نفس الوَرِيد، وإنما أُضِيفَ إليه لاختلاف اللفظين، وقيل: الإضافة بيانية، أي حبل هو الوريد.

والمعنى أن الله هو الذي خلق الإنسان، ويعلم جميع ما أَضْمَرَ في قلبه من حديث النفس والأفكار وكل ما يَخطُرُ بِبَاله، ولا يخفى عليه شيء من ذلك، بل هو أقرب إليه من حبل وريده الذي هو من نفسه، وإنما عَبَّرَ الله عن إحاطة علمه بالإنسان بحبل الوريد لكونه يُخَالِط القلب، فَبَيَّنَ له أنه أعلم بما يَتَوَسْوَسُ به القلب من صاحب القلب نفسه، وهذا تمثيل للقرب وليس المراد قُرب الْمَسافة، بل هو كِنايَة عن إحاطة علمه تعالى وقدرته بالخلق، وهو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، وإنما اقْتَبَسَ المُصنِّف قوله هذا من قوله تعالى: « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ » ق: (16)

وذهب بعض المفسرين إلى أن الضمير في قوله: « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ » عائد على الملائكة، وما ذكرنا هو الأظهر والأقرب، ثم إن هذا الوَسْوَسَ يَشْمَل كل

إنسان حتى الأنبياء فإنهم ليسوا معصومين من خواطر الشيطان كما جزم به بعض المفسرين مستدلين بقوله تعالى: « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ » الحج: (52)

وهذا فيما يتعلق بالأمور الدنوية، وأما وُقُوع ذلك عليهم فيما يتعلق بالأُمور البَلَاغِيَّةِ فهذا لا مجال لِخَوَاطِر الشيطان فيه بإجماع الأمة، والله تعالى أعلم.

قوله: « **وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا، وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ، وَلَا رَطْبٍ، وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** » أي ليس هناك ورقة تسقط بمكان من الأماكن الموجودة في الأرض إلا علم الله سُقُوطها ووقت السُّقوط ومكانه، ويحتمل أن يكون المراد بالسقوط هنا التَّغَيُّب، فيكون المعنى أي ما تَغِيب ورقة ولا حبة في ظلمات الأرض إلا كان ذلك في علم الله حيث لا يخفى عليه شيء من ذلك، لأن علمه تبارك وتعالى مُتعلق بجميع الأشياء تَعَلُّقا تَنْجِيزِيًا، وكذلك ليس هناك حبة تكون مبذورة في ظلمات الأرض، ولا رطب، ولا يابس إلا كان ذلك كله محفوظا في كتاب مبين، وهو اللوح المحفوظ، فتكون هذه الجملة بدل اشتمال من إلا يعلمها، وقيل: هو عبارة عن علمه، فتكون الجملة بدل كل من تلك الجملة، كذا أفاده صاحب الجامع. ونَبَّه بالورقة على ما يُشارِكُها في السُّقوط من كل ساقط، وبالحبة على كل ما دَقَّ وجلَّ، والمراد بالحبة هنا ما هو أقل من القليل، وإنما عبر عنه بها تقريبا للأفهام، والمراد بظلمات الأرض تحتها، وصنيع المصنف هنا يسمى الاقتباس عند البلاغيين، وقد تقدم تعريفه، لأن كلامه هذا من القرآن، وهو قوله تعالى:

« وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» الأنعام: (59)

وقد حكى السُّيوطِي عن مالك التشديد في مَنْعِه، وأجازه بعض العلماء بشرط أن لا يكون الكلام الْمُقْتَبَسُ مِن حديث الله عن نفسه، أو يقتبس في مَواطِن الاستهزاء، والغَزل،[87] والسِّيَاقِ الْهَزِلِي، وما في معنا ذلك، بل يكون ذلك في مواضع النصيحة والوعظ والإرشاد كصنيع المصنف هنا وما في معناه، والله أعلم.

قوله: « **عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** » أي على عرشه استوى بذاته استواء يليق بكماله وجلاله المولى جل وعلا عن المشابهة، ولفظ « استوى » مأخوذ من سَوِيَ يَسْوَى بفتح السين، إذا استقام واعتدل، وليس المراد به اسْتَوْلَى، وقد تقدم لك الكلام المستوفى عن هذه المسألة، وبالله التوفيق.

قوله: « **وَعَلَى الْمُلْكِ احْتَوَى** » بضم الميم وسكون اللام، وهو في الأصل القوة في الشيء وصحة، وإنما سمي الْمَالِكُ مَالِكًا لأن يده في رعيته قوية صحيحة، ولفظ «احتوى» من حَوَى يَحوِي إذا جمع وضم، والمراد أنه تعالى أحاط بعباده قُدرَةً وسَيْطَرَةً، والله أعلم.

---

[87] – قوله: (الغزل) هو بفتح الغين، وهو فن من فنون الشعر بحيث يتغنى الشاعر شعره بامرأة ويذكر ما بها من الحسن والجمال، أي الغِناء الذي يتضمن وَصْفَ الْمَرأة من الْمُغَنِّي.

الْإِيمَانُ بِالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

قوله: « وَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتُ الْعُلَى، لَمْ يَزَلْ بِجَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ، تَعَالَى أَنْ تَكُونَ صِفَاتُهُ مَخْلُوقَةً، وَأَسْمَاؤُهُ مُحْدَثَةً » لفظ « الأسماء » جمع اسم، وهو ما دل على الْمُسَمَّى بِعَيْنِه، و«الحسنى» مؤنث أحسن، وهو صِيغة التفضيل، و«الصفات» جمع صفة، وهي وصف قائم بالذات كالطول، والقِصر، والسواد، والبياض، وهذا مُستحِيل في حق الله تعالى، فالمراد هنا الوصف القائم بالذات الإلهي الذي يُمَيِّزُه عن المخلوقات مما ورد في الكتاب والسنة، و« العلى » صفة للصفات، وهي مؤنث أعلى من العلي، وهو معروف.

والمعنى أنه مما يجب على المكلف أن يعتقده أن الله تعالى له الأسماء التي هي الأحسن والصفات التي هي الأعلى عن كل نقص، كما قال تعالى: « هُوَ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى » الحشر: (24)

وقوله: « وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » الأعراف: (180)

وقد تقدم لك أن أسماءَ اللهِ الحسنى وصفاته العُلَى تَوْقِيفِية لا مجال للعقل فيها، بل، لابد من الوُقُوفِ على ما ورد به الكتاب والسنة الصحيحة، وأن أسماءه وصفاته تعالى لا تَتَماثَل مع غيرها من الأسماء والصفات البشرية وغيرها من المخلوقات ولو اشتركوا في نفس الاسم، ثُمَّ إِنَّ مِنَ الْمُقَرَّرِ عند أهل السنة والجماعة أن أسماء الله تعالى مُتَضمِّنَة للصفات، بل هي مُشْتَقَّةٌ من صفاته، فَكُلُّ اسْمٍ يدل على معنى من صفاته ليس هو المعنى الذي دَلَّ عليه الاسم الآخر، فالرحيم مُتضمِّن لصفة الرحمة وهو مُشْتَقٌّ منها،

والعزيز مُتضمّن لصفة العِزَّة وهو مُشتَقٌّ منها، والقادر مُتضمِّن لصفة القُدرَة وهو مُشتق منها، والعليم مُتضمن لصفة العلم وهو مُشتق منه، والسميع مُتضمِّن لصفة السمع وهو مُشتق منه، وهلم جرا.

ثم إن علماء السنة والجماعة قَسَّموا الصِّفَاتِ إلى قِسمَين، أحدهما: صِفَاتُ نَقصٍ، فهذه يجب تنزيه الله تعالى عنها مُطلَقًا كَالْمَوتِ والعَجْزِ والجهل وما في معناها.

الثاني: صِفَاتُ كَمَالٍ، فهذه يَمْتَنِعُ أنْ يُمَاثِلَه فيها شيء، كالحياة والقُدرة والعلم في مُقَابلةِ الصفات السَّلبِيَّة السابقة الذِّكرِ، وتُسمى هذه الصفات بالثُّبُوتِيَّةِ، وهي كل ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه، وأثبته له نبيه ﷺ في سنته المطهرة، وتُسمَّى أيضا الصفاتِ الْخَبَرِيَّةَ، وخلافها السَّلبية، وهي كل ما نفاه الله تعالى عن نفسه في كتابه ونفاه عنه رسوله ﷺ.

وهناك الفِرَق الْغَاوية مِنَ الْجَهمِيةِ، والْمُعتَزلة، والإِبَاضِيَّةِ، والإِمَامِيةِ، والنَّجَّارِيَّةِ، وغَيرهم مِنَ الْفِرَقِ الضالة يُنْكِرُون صفات الرب الثُّبُوتِيَّةِ، لاسيما الجهمية، فإنهم يُسَمُّون مَن أَثبتَ شيئا من صفات الله تعالى مُشَبِّهًا، حتى حكى تقي الدين ابنُ تَيْمِيةَ عن ثُمَامَة بْنُ الْأَشْرَسِ مِن زُعَمَائِهم في الفتاوي، أنه كان يقول: ثلاثة من الأنبياء مُشَبِّهَةٌ!: مُوسى حيث قال: « إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ » وعِيسى حيث قال: « تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ» ومُحَمَّدٌ ﷺ! حَيْثُ قال: « يَنْزِلُ رَبُّنَا » انتهى[88].

---

[88] – انظر: (مجموع الفتاوي) ج: (5) ص: (110)

وكانوا يقولون على رأسهم جَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ الزِّنْدِيق الطاغي أَحَدُ فَرَاعِنَة هذه الأمة: من أثبت لله عِلْمًا أو قُدرَةً فَقد زعم أنه جِسْمٌ مُرَكَّبٌ وأنه مُشَبَّهٌ، لأن هذه الصفات أعراض[89] والعَرَضُ لا يقوم إلا بِجَوْهَر مُتَحَيِّزٌ، وكل مُتَحَيِّزٌ جِسْمٌ مُرَكَّبٌ، وهذا جهل منهم وضلالة، وهو حقيقة الإلحاد في أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العليا كما قال تعالى: « وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » الأعراف: (180) فالإلحاد في أسماء الله تعالى من مستلزمات الإلحاد في صفاته، بل هو نفس الإلحاد في صفاته، لأنهما أمران مُتلازمان لا يفرق بينهما شيء على ما تقدم لك.

فَكُلُّ ما ذكروه من هذه الضلالات مُستحيل في حق الله تعالى، وإنما حملهم على ذلك عَدمُ تنزيه الباري جل وعلا عن النقص ومُبادَرَةُ أَذهَانِهِم إلى اعتقاد ما لا يليق بالله سبحانه وتعالى في أسمائه الحسنى وصفاته العُلْيَا، ولو أنهم أثبتوا ما أثبته الله لنفسه في كتابه وأثبته له رسوله ﷺ في سنته المطهرة على الوجه الذي يليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى ونَزَّهُوه عن النقائص لَكَان خيرا لهم وأَشَدَّ تَثْبِيتًا، وَفَّقَنَا اللهُ تعالى على اتباع الحق ويُجَنِّبنَا الضلالات والإلحاد في أسمائه الحسنى وصفاته العُلْيَا ولوازم ذلك.

ومما يجب في هذا الباب إجراء النصوص الواردة في الأسماء والصفات على ظاهرها من غير تحريف ولا تأويل، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة من السَّلف والْخَلف

[89] – قوله: (أعراض) جمع عرض بفتح العين والراء، وهو كل ما قام بغيره كاللون والطول والقصر، أو ما لا دوام له مما لا يدخل في تقويم الذات كالقيام، والقعود، والذهاب، وما في معناها، وهو صفة الشيء، فَعَبَّرَ عنها المتكلمون بهذه العبارة، وهي خلاف الجوهر، وهو بمعنى الذات، والله أعلم.

قاطِبةً، ولم يصح عن أحد منهم تأوِيلُ نَصٍّ مِن النصوص الواردة في هذا الباب بما يُخَالف ظاهره، لأن إجراءَها على ظاهرها هو ظاهر ما يقتضيه قوله تعالى: « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » يوسف: (2) وقوله: « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِي مُبِينٍ » الشعراء: (193 – 195)

فَبَيَّنَ اللهُ تعالى أن القُرآنَ نَزلَ بِلِسَان عَرَبِي مُبِين، فاقتضى ذلك وجوب حمل كل ما ورد فيه على حسب ما يقتضيه الخطاب العربي، حتى يقوم دليل من الشرع على خلافه، وبالله التوفيق وعليه التُّكْلَان.

ومما يجب اعتقاده في هذا الباب أن أسماءَه تعالى الحسنى وصفاته العليا أَزَلِيةٌ ولَيْسَتْ مُحدَثَةً، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة من الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح.

إِثْبَاتُ صِفَةِ الْكَلَامِ

قوله: « كَلَّمَ اللهُ مُوسَى بِكَلَامِهِ الَّذِي هُوَ صِفَةُ ذَاتِهِ لَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ » لفظ كَلَّم بفتح الكاف وتشديد اللام المفتوحة وهو معروف، ولفظ « ذات » بفتح الذال، أي نَفْسُ الشَّيْءِ وَعَيْنُهُ، أَي حَقِيقَتُهُ، و(ذات) أيضا مُؤَنَّثُ: ذو، بمعنى الصاحب، ولا يستعمل إلا فيما كان مُضافا إلى غيره كأسماء الْأجناس، وفائدته التوصل به إلى الوصف، والجمع: ذَوَاتٌ.

والمعنى أن مما يجب على الْمُكَلَّفِ اعتقاده أَنَّ اللهَ تعالى كَلَّم نَبِيَّه موسى عليه الصلاة والسلام بدون واسطة بَيْنَهما، وأن كلامه صفته اللائقة بذاته لا خلق من خلقه، كما قال تعالى: « وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا » النساء: (164) فَأَكَّده بالْمَصدر مُبالغة في البيان وتحقيقا لوقوع ذلك، وقال أيضا: « وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ » الأعراف: (143)

وقال أيضا: « فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى » طه: (11 – 12)

وروى البخاري من طريق هِشَام عن أنس رضي الله عنه، وفيه: « وَلَكِنِ ائْتُوا مُوسَى، عَبْدًا آتَاهُ اللهُ التَّوْرَاةَ، وَكَلَّمَهُ تَكْلِيمًا » الحديث.

والأدلة الخبرية على إثبات صفة الكلام لله تعالى كثيرة جدا لا يَسعُنا هذا الكتاب اسْتِقصَاءَها، لأن ذلك يستدعي مجلدا ضخما، فيجب على المكلف الإيمان بذلك كله، ويعتقد أن الله تعالى يتكلم بكلامه الذي هو صفته اللائقة بذاته متى شاء وبما

يشاء وكيف يشاء وعلى ما أراد، يُسْمِعه من يشاء كما أَسْمَعهُ موسى صلوات الله وسلامه عليه، وأن كلامه قول حقيقي، وليس هو عبارة عما يَجِده الناس في نفوسهم من معاني كما تَزْعُمهُ الصَّابِئةُ وَالْمُتَفَلْسِفَةُ ومن نحا نحوهم، وقد ذكر العلامة ابن أبي العِزِّ الحَنَفِي أن الناس افْتَرَقوا في هذه المسألة على تِسْعَةِ أَقوَالٍ في شَرحِه على الطَّحاوية، ص: (112 ـ 113)

أحدها: أن كلام الله هو ما يَفِيضُ على النفوس من مَعاني، إما مِن العقل الفَعَّال عند بعضهم أو غيره، وهذا قول الصَّابِئة والْمُتَفَلْسِفَةِ.

الثاني: أنه مخلوق خَلَقهُ الله مُنْفَصِلًا عَنهُ، وهذا قول الْمُعتَزِلة.

الثالث: أنه معنى واحد قائم بذات الله، وهو الأمر، والنهي، والخبر، والاستخبار، وَإِنْ عُبِّرَ عَنْه بالعربية كان قُرآنا، وإن عُبِّرَ عَنه بِالعِبْرَانِيَّةِ كان تَوْرَاةً، وهَذَا قول ابنُ كِلَابٍ ومَنْ وَافَقَهُ كَالْأَشْعَرِي وغيره.

الرابع: أَنَّه حُرُوفٌ وأَصْواتٌ أَزَلِيَّةٌ مُجْتَمِعَةٌ في الْأَزَلِ، وهذا قول طائفة من أهل الكلام ومن أهل الحديث.

الخامس: أنه حروف وأصوات لَكِنْ تَكَلَّم اللهُ بها بعد أَنْ لَم يَكُن مُتَكَلِّمًا، وهذا قول الْكَرَّامِيَّةِ وغيرهم.

السادس: أَنَّ كلامه يَرْجِع إلى ما يَحْدثُه من علمه وإرادته القائم بذاته، وهذا يقوله صاحب الْمُعْتَبَرِ وَيَمِيلُ إليه الرَّازِيُّ في الْمَطَالِبِ العالية.

السابع: أن كلامه يتضمن معنى قائما بذاته هو ما خلقه في غيره. وهذا قول أبي مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِي.

الثامن: أنه مُشْتَرَك بَيْن المعنى القديم بالذات وبَيْن ما يَخْلُقُه في غيره من الأصوات، وهذا قول أَبِي الْمَعَالِي ومَنِ اتَّبَعَه.

التاسع: أنه تعالى لم يَزَل مُتَكَلِّما إذا شاء، ومتى شَاء، وكَيْف شاء، وهو يَتَكَلَّمُ به بِصَوْتٍ يُسْمَعُ، وأن نَوْعَ الْكلامِ قَدِيمٌ وإِنْ لَمْ يَكُنِ الصوت الْمُعَيَّنُ قَدِيما، وهذا الْمَأْثُور عن أئمة الحديث والسنة، انتهى.

قلت: وكل ما ذُكِرَ من أقوال هذه الْفِرَقِ بَاطِلٌ مَرْدُودٌ إلا الْأَخِيرَ، فإنه هو الذي دَلَّتْ عليه النصوص الخبرية وقال به سلف الأمة قاطبة، وسيأتي الكلام المستوفي عن هذه المسألة عند قوله رحمه الله: « وأن القرآن كلام الله » وبالله التوفيق.

قوله: « **وَتَجَلَّى لِلْجَبَلِ فَصَارَ دَكًّا مِنْ جَلَالِهِ** » لفظ تَجلى مَأخُوذ مِن الْجَلْوِ بفتح الجيم وسكون اللام، وهو انكشاف الشيء وبُرُوزُه، يقال: هذا جَلِيٌّ، أي غَير خَفِيٍّ، و« دكا » بفتح الدال، وهو تَطامُنٌ وَانْسِطَاحٌ، ومن ذلك الأرض الدكاء، أي العريضة المستوية، والمعنى أي لما سأل موسى رَبَّه النَّظرَ إليه اشْتِياقا لرؤيته لَمَّا أَسْمَعه كلامَه، فقال: «وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الـمُؤْمِنِينَ» الأعراف: (143)

وقوله: « فلما تجلى » أي ظهر وبان، فصار الجبل دكا، أي مسويا بالأرض، وخَرَّ موسى مَغْشِيا عليه مِن هَيْبةِ الْمولى جل وعلا وعظمته وجلاله سبحانه وتعالى، وإنما أتى المصنف بهذه الجملة تأكيدا لإثبات كلام الله تعالى، ويُستفاد من هذه الآية أن الله تعالى لا يُرَى في الدنيا، وأما رؤيته سبحانه وتعالى في الآخرة فقد تواترت الأدلة الخبرية في إثبات ذلك، وسيأتي الكلام المستوفى عن هذه المسألة إن شاء الله تعالى، وبالله التوفيق.

الْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ تَعَالَى لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ

قوله: « وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ، لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ فَيَبِيدَ، وَلَا صِفَةً لِمَخْلُوقٍ فَيَنْفَدَ » لفظ: «يبيد» بفتح الياء وكسر الباء منصوب بِأَنْ مُضْمَرَةٍ من الْبَيْد الذي يعني الهلاك والانقراض، ولفظ: «ينفد» بسكون النون وفتح الفاء مِن النَّفَاد الذي يعني الانقطاع والفناء، والمعنى أن القرآن كلام الله الذي هو صفة ذاته اللائقة بجلاله وكماله تعالى لفظه ومعناه، وأنه ليس بمخلوق من مخلوقات الله فَيَهْلِك وَيَنْقَرِض، وليس هو صفة من صفات المخلوق فيفنى بفنائه، بل هو كلامه الحقيقي حروفه ومعانيه، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة سلفا وخلفا.

وكلام المصنف هذا رد على الزنادقة من المُعتزلة، والجَهمية، والْحُلُولِيَّة، والاتحادية، ومُوافِقِيهم، فإنهم يَدَّعُون أن القرآن مخلوق وليس بكلام الله، وشُبْهَتُهم في ذلك أنه يَلْزَمُ منه التشبيه والتجسيم، وهذا باطل فاسد مردود، وقولهم أن القرآن مخلوق وليس بكلام الله يستلزم أن يكون الله تعالى غير مُتَكلِّمٍ وذلك نقص باتفاق العُقلاء، قال تعالى: « وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا » الأعراف: (148)

وقال أيضا: « أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا » طه: (89)

ففهم من هاتين الآيتين أن الوصف بِعَدمِ التَّكَلُّمِ نقص في حق الموصوف، ومُقتضى ذلك أن الوصف بالتكلم كمال في الموصوف، فوجب أن يُوصَفَ اللهُ به، وقد تظاهرت الأدلة الخبرية على أن القرآن كلام الله تَكَلَّمَ به حَقيقةً لا مجازا، بحرف وصوت، وأسمعه

جِبرِيلَ عليه السلام وأسمعه جِبريلُ مُحمدا ﷺ، ومن ذلك قوله تعالى: « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الـمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ » التوبة: (6)

وغيرها من الآيات، ولا يَسَعُنا الكتاب ذكرها كلها، وأما الأدلة من السنة فهي كثيرة جدا أيضا، ومنها على سبيل المثال ما أخرجه أبو داود من طريق إِسْرَائِيل بْنِ يُونُس بن أَبِي إِسْحَاق السَّبِيعِيّ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: « كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاسِ فِي الْمَوْقِفِ فَقَالَ: أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ! فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ »[90] وإسناده صحيح.

ومن ذلك ما روى عثمان الدارمي في الرد على الجهمية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « فَضْلُ الْقُرْآنِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ الرَّحْمَنِ عَلَى سَائِرِ خَلْقِهِ » وَمُقتَضى قوله: «عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ »[91] أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق.

---

[90] – أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب في القرآن: (4734) وهو صحيح.

[91] – أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية برقم: (340) من طريق شَهْرِ بن حَوْشَبٍ، وقد ضعفه غير واحد من أهل العلم.

ومن ذلك ما أخرجه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « يَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: مَنْ شَغَلَتْهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ عَنْ ذِكْرِي وَمَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ، وَفَضْلُ كَلَامِ اللهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ »[92]

ومن ذلك ما رَوَى ابنُ خُزَيْمَةَ عن نِيَارِ بْنِ مُكْرَمٍ الْأَسْلَمِي رضي الله عنه قال: «لَمَّا نَزَلَتْ: "الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . إلى آخر الآيتين . خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَجَعَلَ يَقُولُ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. "الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ" فَقَالَ رُؤَسَاءُ مُشْرِكِي مَكَّة: يَا ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ هَذَا مِمَّا أَتَى بِهِ صَاحِبُكَ، قَالَ: لَا وَاللهِ لَكِنَّهُ كَلَامُ اللهِ»[93]

ومن ذلك ما أخرجه صاحب كتاب الرد على خلق القرآن أبو بكر النَّجَّادُ عن مسروق عن عبد الله رضي الله عنه قال: « إِذَا تَكَلَّمَ اللهُ بِالْوَحْيِ يَسْمَعُ صَوْتَهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، فَيَخِرُّونَ سُجَّدًا حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِم، قَالَ سَكَنَتْ قُلُوبُهُم، نَادَى أَهْلَ السَّمَاءِ وَمَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: الْحَقُّ، قَالَ كَذَا وَكَذَا »[94]

---

[92] – أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية برقم: (136) والترمذي في كتاب فضائل القرآن برقم: (2926) وقال: هذا حديث حسن غريب.

[93] – أخرجه ابن خزيمة في كتاب التوحيد برقم: (404 – 405) وهو صحيح كما قال مُخْرِجُه.

[94] – أخرجه صاحب الرد على خلق القرآن أبو بكر أحمد بن سليمان النجاد برقم: (5)

أَقْوَالُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالْأَئِمَّةِ الْفُقَهَاءِ

وأما أقوال السلف الصالح في ذلك فلا تُحْصى، ومنها على سَبيل الْمِثَال ما أخرجه اللَّالَكَائِيُّ في شَرْحِ أُصُول الاعتقاد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال يَوْمَ صِفِّينَ: « مَا حَكَّمْتُ مَخْلُوقًا، وَإِنَّمَا حَكَّمْتُ الْقُرْآنَ »[95]

ومن ذلك ما أخرجه أيضا عن أَبِي الْعُرْيَانِ أَنَّه سَمِعَ ابنَ عُمَرَ رضي الله عنهما يقول: «الْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ »[96]

ومن ذلك ما أخرجه الآجُرِيُّ في الشريعة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: « الْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَا تَضْرِبُوهُ عَلَى آرَائِكُمْ »[97]

ومن ذلك ما أخرجه أيضا عن مُعاوية بن عَمَّار قال: «سُئِلَ جَعفَرُ بنُ مُحَمَّدٍ رحمه الله تعالى عَنِ الْقُرآنِ أَخَالِقٌ أَمِ الْمَخْلُوقُ؟ فَقَال: لَيْسَ خَالِقًا وَلَا مَخْلُوقًا، وَلَكِنَّهُ كَلَامُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»[98]

ومن ذلك ما أخرجه التِّرمِذيُّ في فضائل القرآن من طريق سُفيان بْنِ عُيَيْنَةَ عنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال: «مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ سَمَاءٍ وَلَا أَرْضٍ أَعْظَمُ مِنْ آيَةِ الْكُرْسِيِّ» قَالَ سُفْيَانُ: لِأَنَّ آيَةَ الْكُرْسِيِّ كَلَامُ اللهِ، وَكَلَامُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ خَلْقِ اللهِ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.[99]

---

95 – أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة برقم: (372)

96 – أخرجه اللالكائي في المصدر السابق: (377)

97 – أخرجه الآجري في الشريعة برقم: (156)

98 – أخرجه الآجري في المصدر السابق برقم: (158)

99 – أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل سورة البقرة: (2881)

وقال عبد الله بن دِينَارٍ: «أَدْرَكْتُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ فَمَنْ دُونَهُمْ مُنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً يَقُولُونَ: اللهُ خَالِقٌ وَمَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ، وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ، مِنْهُ خَرَجَ وَمِنْهُ يَعُودُ» أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية.[100]

وَأَخْرَجَ أيضا بإسناد صحيح عَنْ عَلِيِّ بْنِ مَضَاءٍ مَوْلَى خَالِدٍ الْقَسْرِيِّ قال: سمعت ابنَ الْمُبَارَكِ بِالْمَصِيصَةِ، وسَأَلَهُ رِجَالٌ عَنِ الْقُرْآنِ، فَقَالَ: هُوَ كَلَامُ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ.[101] وَنَحْوُه عَنْ بَقِيَّة بْنِ الْوَلِيدِ، وعِيسَى بْنِ يُونُسَ.

وأقوال السلف الصالح في الرد على القول بأن القرآن مخلوق لا تحصى، وقَضِية الإمام الأكبر إما أهل السنة وزعيمهم أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ الشَّيْبَانِي لَيْسَتْ بِخَفِيةٍ لَدَي الْقُرَّاء الأَعِزَّاءِ، وأصل القول بخلق القرآن اشتهر على لسان جهم بن صفوان إمام الإلحادية والزندقة وأَحَدِ فَرَاعِنَةِ هذه الأمة شَقِيق إبلِيس قَبَّحَهُمَا الله تعالى، وذلك في آخر عهد التابعين، وقد أجمع سلف الأمة على تكفير من قال بخلق القرآن، بل كَفَّروا من تَوَقَّفَ في ذلك، لأن ذلك يستلزم أن يكونَ اللهُ تعالى خَلَقَهُ فِي ذَاتِه أو في غيره أو مُنْفَصِلا مُسْتَقِلًّا، وكل ذلك من مُوجِبات الكفر، لأن الأول يستلزم أن يكون ذاته تعالى مَحلًا لِلْمَخلوقات كما تَزْعُمُه الْحُلُولِية لعنهم الله تعالى، والثاني يستلزم أن يكون القرآن كلام كُلِّ تَالٍ له كما قاله الزِنْدِيقُ الوَلِيد بن الْمُغِيرَة، والثالث يستلزم جُحُودَ وُجُودِ القرآن بالْكُلِيَّةِ، لأنه لا يتصور كَلامٌ يَقُوم بِذَاتِه بِدُون الْمُتَكَلِّمِ، كذا أفاده الحافظ

---

[100] – أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية برقم: (344)

[101] – أخرجه الدارمي في المصدر السابق برقم: (346)

العلامة ابن القيم في المعارج، وأقوال السلف الصالح في تكفير من قال بخلق القرآن لا تُحْصى، ولا يَسَعُنَا الكِتابُ ذِكْرَها، عَلى أَيِّ حالٍ الْقَولُ بِخَلْقِ القرآن كُفرٌ أَكْبَرُ، فنسأل الله تعالى أن يُوَفِّقَنَا لاتباع نَبِيِّهِ ﷺ، وَالعَمَل بِكتابه وَفْقَ فَهْمِ سَلَفِ الأُمَّة، وهو المولى ونعم النصير، ولِلَّهِ دَرُّ الْقَحْطَانِيّ حَيْثُ يَقُول في نُونِيَّتِهِ:

مَـــــنْ قَالَ إِنَّ اللهَ خَالِقُ قَوْلِهِ ... فَـــقَـدِ اسْتَحَلَّ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ

مَـــــنْ قَالَ فِيهِ عِبَارَةٌ وَحِكَايَة ... فَـغَـدًا يُـجَـرَّعُ مِنْ حَمِيمٍ آنِ

مَـــــنْ قَالَ إِنَّ حُرُوفَهُ مَخْلُوقَة ... فَـالْـعَـنْـهُ ثُمَّ اهْـجُـرْهُ كُلَّ أَوَانِ

وَالْوَقْفُ فِي الْقُرْآنِ خُـبْثٌ بَاطِل ... وَخِـدَاعُ كُــلِّ مُـذَبْـذَبٍ حَيْرَانِ.

الْإِيـمَانُ بِالْقَدَرِ

قوله: « وَالْإِيـمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ حُلْوِهِ وُمُرِّهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ قَدْ قَدَّرَهُ اللهُ رَبُّنَا، وَمَقَادِيرُ الْأُمُورِ بِيَدِهِ، وَمَصْدَرُهَا عَنْ قَضَائِهِ »

وقوله: « الْقَدَرُ » بفتح القاف وهو لُغَةً: مَبْلَغُ الشَّيْءِ وَنِهَايَتُه، وهو مَصْدَر قَدَّرْتَ الشَّيءَ إذا أَحطْتَ بِمِقْدَاره، والمراد به هنا مَا قَدَّره اللهُ وحَكَم به في الأَزَلِ أَنْ يَكُون فِي خَلقِه بِنَاءً عَلى السَّابِق بِذلك، وقد تقدم تعريفه في الكلام عن أركان الإيمان.

وقوله: « خَيْرِهِ » يشمل ذلك كل ما قدره الله لِلْمَرء مما يُوجِبُ له الْفَرحَ والسُّرورَ مَادِّيًّا كان أو مَعْنَوِيًا، وسواء ما يتعلق بالدين أو بالدنيا، وليس المراد ما كان من أنواع الطاعات فقط كما جزم به بعض الشُّرَّاحِ، والأمر أعم من ذلك.

وقوله: « وَشَرِّهِ » والقول فيه عكس القول في سابقه، فوصف القدر بالخير ظاهر، لِأَنَّ كلَّ ما صَدَرَ مِن الله خير مَحض، وأما وصفه بالشر فإنما هو باعتبار الْمَقدُورات والْمَفْعُولات لا باعتبار تقدير المولى جل وعلا وفِعْله.

وقوله: « حُلْوِهِ وَمُرِّهِ » أي ما يَلْتَذُّ الْمَرءُ بِحُصوله ويَفرَحُ به من أنواع الخير، وما يَتَأَلَّم قَلبُه به إذا أصابه من أنواع الشر والـمُصيبة، واستعمال هَذَيْنِ اللَّفظين هنا مجاز، واسْتِعْمَالُـهُما حَقِيقةً في الْمَحْسُوس، ولم يأت وَصْفُ القدر بالْـحَلَاوَةِ وَالْمَرَارَة في شيء من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، وإنما أتى بهما المصنف هنا لزيادة التوضيح والبيان، لأن الخير من مستلزمات الـحلاوة مَعْنًا، والشر من مقتضيات الـمَرارة مـجازا، وقد فسر بعض الشُّرَّاح أَحَدَهُما بِلَذَّةِ الطَّاعَاتِ وَثَوَابِها، والآخر بِمَشَقَّةِ المعصية وعُقُوبَتِها، وهذا من باب الْمِثال، وإلا فالأمر أعم من ذلك، والله أعلم.

وقوله: « ومَقَادِيرُ الْأُمُورِ بِيَدِهِ » بفتح الميم جمع مِقْدَارٍ بكسر الميم، وهو غَايَةُ الشيء وكُنْهُهُ، والمعنى الإحاطة بالأمور المقدورات غاية بيد الله تعالى حيث لا يخفى عليه شيء من ذلك، ويحتمل أن يكون المعنى المقدورات كلها بيد الله، فيكون مقادير بمعنى مقدورات، والله أعلم.

وقوله: « وَمَصْدَرُهَا عَنْ قَضَائِهِ » المصدر هو مَوْضِعُ صدور الشيء، والمراد صدورها وإخراجها من العدم إلى الوجود يكون بقضاء الله تعالى، وقد تقدم لك أن القدر هو تقدير الأمور فقط، والقضاء هو خلقها وإيجادها، والله أعلم.

والإيمان بالقضاء والقدر من أركان الإيمان التي لا يصح إلا بها، وقد تظاهرت النصوص الخبرية على إثبات القدر، ومن ذلك قوله تعالى: « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » القمر: (49) وقوله تعالى: « مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَه » التغابن: (11)

وروى مسلم والترمذي من طريق سُفْيَانَ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « جَاءَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يُخَاصِمُونَ رَسولَ الله ﷺ فِي الْقَدَرِ فَنَزَلَتْ: "يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ" »[102]

ومن ذلك ما روى مسلم في القدر من طريق مالك عَن طَاوُسٍ أَنَّه قال: «أَدْرَكْتُ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقُولُونَ: كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، قَالَ: وَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ

---

[102] – أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب كل شيء بقدر: (2656) والترمذي في كتاب التفسير، باب ومن سورة القمر: (3290)

بْنَ عُمَرَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ . أَوِ الْكَيْسُ وَالْعَجْزُ .»[103]

وأمثال هذه النصوص في إثبات القدر كثيرة جدا، والمسألة محل إجماع سلف الأمة من الصحابة والتابعين قاطبة كما تقدم قول طاوس، وقد أجمعوا أيضا على تكفير من أنكر القدر، فيجب على المكلف أن يعتقد أن كل شيء بقضاء الله وقدره وأنه تعالى خَالِقُ أَفْعَالِ الْعباد، وأنه يُرِيد الْكُفرَ مِنَ الكافرِ ويَشَاؤُه كَوْنًا لَكِنَّه لا يَرْضَاه ولا يُحِبه دِينًا بِخِلاف ما ذهب إليه بعض الزَّنَادِقةِ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ مِنْ أَنَّ اللهَ شاء الإيمان من الكافر ولَكِنَّ الكَافرَ شاء الكُفرَ فَسَلَبُوا لِلَّهِ الْمَشِيئةَ! وقالوا أيضا: الْكُفرُ والمعاصي ليست من مَقدورات الله تعالى ولا مَقْضِيَّاتِهِ، وَضِدُّهم الْجَبْرِيَّةُ حيث قالوا: الْكَونُ كُلُّه بِقَضاء الله وقَدَرِه، فيكون مَحبُوبًا مَرْضِيًّا، وهذا كُفرٌ وضَلَالَةٌ، نعوذ بالله من الضَّلَالَاتِ. ولِلْقَدَرِ أَرْبَعُ مَرَاتِبِ:

المرتبة الأولى: الإيمان بِأَنَّ عِلمَ الله تعالى مُحِيط بكل شيء من الْمَوجودات والْمَعدومات والْمُمْكِنات والْمُستَحِيلات، وأنه عَلِمَ مَا كان وما سيكون وما لم يكن لَوْ كَان كَيْف يكون، ودَلَّ على ذلك قوله تعالى: « لِتَعْلَمُوا أَنْ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا » الطلاق: (12)

---

[103] – أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب كل شيء بقدر: (2655) قوله: (العجز) هو عدم القدرة على القيام بعمل ما، و(الكيس) بفتح الكاف ضد العجز، أي الفِطْنَةُ وذَكَاءُ القَلْبِ، والمعنى أَنَّ عدمَ قُدرةِ الإنسان على القيام بشيء ما وعكس ذلك أمر قد قدره الله تعالى قبل إيجاد الإنسان،، والله تعالى أعلم.

المرتبة الثانية: الإيمان بأن الله قد كَتَبَ كل شيء مما هو كائن إلى قيام الساعة، ودل على ذلك قوله تعالى: « أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ » الحج: (70)

المرتبة الثالثة: الإيمان بمشيئة الله تعالى بأن كل ما كان بمشيئة الله وما لم يشأ لم يكن، ودل على ذلك قوله تعالى: « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ » التكوير: (29) وقوله: « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » يس: (82)

وروى مسلم في الذِّكرِ والدُّعاءِ من طريق أنس بن عِيَاضٍ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: « لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمْ فِي الدُّعَاءِ فَإِنَّ اللهَ صَانِعٌ مَا شَاءَ لَا مُكْرِهَ لَهُ »[104]

المرتبة الرابعة: الإيمان بأن الله تعالى خالق كل شيء، ومن ذلك كل عامل وعمله، وكل متحرك وحركته، وكل ساكن وسكونه، والإيمان بذلك واجب، قال تعالى: « اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » الزمر: (62) وقال تعالى: « وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » الصافات: (96)

وروى البخاري في بدء الخلق عن عِمْرَان بن حُصين رضي الله عنه مرفوعا، وفيه: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ»[105]

---

[104] – أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب العزم بالدعاء ولا يقل: إن شئت: (2679 – 9)

[105] – أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ الروم: (27) برقم: (3191)

والإيمان بهذه المراتب المذكورة كلها مما لا بد منه، فلا يصح الإيمان بالقدر بدون ذلك، وبالله التوفيق.

قوله: «**عَلِمَ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلَ كَوْنِهِ فَجَرَى عَلَى قَدَرِهِ، لَا يَكُونُ مِنْ عِبَادِهِ قَوْلٌ وَلَا عَمَلٌ إِلَّا وَقَدْ قَضَاهُ وَسَبَقَ عِلْمُهُ بِهِ، أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**» يعني أن الله سبحانه علم كل شيء من الكون، كيفيته وقدره وغايته قبل خلقه وإيجاده، فَحَصل هذا الْمَقدور عَلى حَسبِ مَا قَدَّرهُ في سابق علمه، وأنه لا يقع من العباد قول ولا عمل إلا وقد قَدَّرَه الله في سابق علمه قبل وُقُوعِه، وهذا رد على القدرية ومُوافِقِيهم، وقد تقدم لك بعض كلامهم الخبيث حول القدر، وبالله التوفيق.

قوله: « **يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ فَيَخْذُلُهُ بِعَدْلِهِ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَيُوَفِّقَهُ بِفَضْلِهِ** » يعني أَنَّ اللّهَ تبارك وتعالى يُضِل من يشاء من عباده فيكون مخذولا بِعَدلِ الله تعالى، ويهدي من يشاء من عباده فيكون مُوَفَّقًا لمحاب الله تعالى ومراضيه بفضل الله تعالى، وكل ذلك بِمَشيئته الْكَونية، وقد سبق بيان ذلك، قال تعالى: «كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» المدثر: (31) فالهداية والضلالة بيد الله تعالى ومشيئته الكونية، ولفظ: « يخذله » مأخوذ من الْخِذْلان بكسر الخاء وسكون الذال، وهو ترك النصرة والمعونة، يقال خذله إذا ترك عونه ونصرته، وفي كلام المصنف هذا رد على القدرية حيث سلبوا لله المشيئة، والله أعلم.

كُلُّ إِنْسَانٍ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ

قوله: « فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ بِتَيْسِيرِهِ إِلَى مَا سَبَقَ مِنْ عِلْمِهِ وَقَدَرِهِ مِنْ شَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ » كلٌّ مِنْ لَفظَي « كُلٌّ » و« مُيَسَّرٌ » بالتنوين على الابتدائية والخبرية، فالتنوين عِوَضٌ عَن

الْمُضاف إليه، والمعنى أَنَّ كُلًّا مِنَ الَّذِي أَضَلَّه اللهُ بِعَدلِه والَّذِي هَدَاهُ بِفَضلِه مُيَسرٌ لفعل ما قدره الله تعالى له في سابق علمه من الأعمال التي توجب الشقاوة أو التي توجب السعادة، فمن كان من أهل السعادة يَسَّرَه اللهُ تعالى لِعَمَلِ أهل السعادة فيكون سعيدا بِذَلك، ومن كان من أهل الشقاوة يسره الله تعالى لعمل أهل الشقاوة فيكون شقيا بذلك، ومما يدل على ذلك قوله تعالى: « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى » الليل: (5 ـ 10)

وما رواه البخاري ومسلم من طريق حَمَّاد بن زيد عن عِمرَان بن حُصين رضي الله عنه قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: « أَيُعْرَفُ أَهْلُ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَلِمَ يَعْمَلُ الْعَامِلُونَ؟[106] قَالَ: كُلٌّ يَعْمَلُ لِمَا خُلِقَ لَهُ ـ أَوْ لِمَا يُسِّرُ لَهُ»[107]

---

[106] – أي إذا كان أهل الجنة الذين سيدخلونها يوم القيامة، وأهل النار الذين سيدخلونها ذلك اليوم يَعْرِفُهم مَنْ أَطْلَعه الله على ذلك من الملائكة والنَّبِيينَ قبل يوم الدخول، فَلِمَاذا يعمل العامل العمل الذي يقربه إلى الله تعالى كي يدخله الجنة، فالذي يتبادر إلى الأذهان عدم احتياج العامل إلى العمل لِسَبْقِ القلم بذلك ولأنه سيصير إلى ما قدر له قبل وجوده، فَبَيَّن النبي ﷺ أن كل إنسان ميسر لما خلق الله له وقدره له في سابق علمه، فإن كان من أهل الجنة سَهَّلَ اللهُ له عَمَلَهُم ومَهَّدَ له الطريق الْمُوَصِّلُ إليها، وكذلك العكس، وأيضا فالْمُسلم مَحْجُوب عَنْ مآله، فعليه أن يقوم بامتثال ما أُمِرَ به ويَجتَهِد في ذلك، والله تعالى أعلم.

[107] – أخرجه البخاري في كتاب القدر، باب جف القدر على علم الله: (6596) ومسلم في كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي: (2649)

وهذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم: « قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَعُلِمَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: قِيلَ: فَفِيمَا يَعْمَلُ الْعَامِلُونَ؟ قَالَ: كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ »

وهذا الحديث يدل على النهي عن ترك العمل والاتكال على ما سبق به القدر، بل يجب على كل امرئ أن يقوم بالأعمال والتكاليف التي وَرَدَ الشَّرعُ بها، فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِق له لا يقدر على غيره، فَقَد مَضَتْ به الْمَقادِير وسَبَق عِلمُ الله تعالى به وَتَمَّتْ كِتَابَتُه في اللوح المحفوظ وجَفَّ الْقَلَمُ الَّذِي كُتِبَ به، وهذا هو مذهب أهل السنة قاطبة سلفا وخلفا، ولا يُنْكِر ذلك إلا مُعْنِدٌ طَاغِي فِرْعَوْنِي، وكَلَامُ الْمُصنِّفِ هذا رَدٌّ على الْجَبْرِيَّةِ قَبَّحَ اللهُ وُجوهَهم، ووَفَّقَنَا اللهُ تعالى لاتباع التي هي أحسن.

وقوله: « **تَعَالَى أَنْ يَكُونَ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يُرِيدُ، أَوْ يَكُونُ لِأَحَدٍ عَنْهُ غِنًى، أَوْ يَكُونُ خَالِقًا لِشَيْءٍ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعِبَادِ، وَرَبُّ أَعْمَالِهِمْ، وَالْمُقَدِّرُ لِحَرَكَاتِهِمْ وَآجَالِهِمْ** » أي تَقَدَّس الله وتَنَزَّهَ عَنْ أَنْ يَحْدُثَ شيء في ملكه مما لا يُريد وُقُوعَه، أو يكون هناك أحد من المخلوقات غَنِيًّا عن ملكه ورحمته وخيراته وما في معناها مما لا يَسْتغني عنه شيء من مخلوقات الله، أو يكون هناك أحد قادر على خلق شيء ولو مثقال ذرة، وهذا كله مُستحيل، والذي يختص بذلك كله هو الله رب العباد الذي يُدَبِّرُ أمورَهم، ويُقَدِّر أعمَالَهم ويُيَسِّرُها لهم، ويُقَدِّر حركاتهم وآجالهم، وكل هذا رد على القدرية والجهمية ومن نحا نحوهم، والله تعالى أعلم.

قوله: « **الْبَاعِثُ الرُّسُلَ إِلَيْهِمْ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ** » لما أنهى المصنف كلامه على ما يجب اعتقاده في حق المولى جل وعلا، شَرَعَ في بيان ما يَتَعَلق بِحَياة الإنسان المعادية، وهو إرسال الرُّسُلِ إليه، ولفظ: (الباعث) على وزن فاعل، وهو اسم الفاعل من بَعَثَ يَبْعَثُ، و(الرسل) منصوب على المفعولية، لأن اسمَ الفاعل يعمل عَمَل فِعله مُطلقا إذا كان مُقْتَرِنًا بـ(ال) والمعنى أنه مما يجب على الْمُكلَّف اعتقاده أَنَّ اللهَ بَعثَ الرُّسُلَ إلى العباد لِيُبَلِّغُوهُم عنه أَوَامِرَه ونَواهِيَه، وَوَعْدَه وَوَعِيدَه، ويُبَيِّنُوا لهم ما يَحتاجون إليه مما فيه صَلَاحُهُم مما يتعلق بِدِينِهم ودُنْيَاهُم، وأن سبب إرسالهم إليهم إقامة الحجة عليهم لكي لا يقول قائل عندما أخذه الله تعالى بِذَنْبه هَلَّا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رُسُلًا فَنَتْبَع ما جاءوا به مِنَ الْهُدَى، كما قال تعالى: « رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ » النساء: (165)

فيجب على المكلف أن يعتقد ذلك كله، قال تعالى: « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتُ » النحل: (36)

فدلت الآية على أنه ليس هناك أُمَّةٌ وُجِدَتْ عَلى ظهر الأرض إلا وقد بعث الله إليها رسولا يُبَلِّغُهمْ عَنِ اللهِ أَوامِرَه ونَوَاهِيَهُ، وأنه ليس لأحد من الناس حُجَّةٌ على الله، فنسأل الله تعالى أن يُوَفِّقَنَا لاتباع ما جاءت به رُسُلُه، إنه وَلِيُّ ذلك والقادر عليه.

قوله: « **ثُمَّ خَتَمَ الرِّسَالَةَ وَالنِّذَارَةَ وَالنُّبُوَّةَ بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ ﷺ، فَجَعَلَهُ آخِرَ الْمُرْسَلِينَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ الْحَكِيمَ، وَشَرَحَ بِهِ دِينَهُ الْقَوِيمَ، وَهَدَى بِهِ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** »

وقوله: « خَتَمَ » بفتح الخاء والتاء مأخوذ من الختم، وهو آخر الشيء، وسُمِيَّ النَّبِيُّ ﷺ بِخَاتَمِ الْأنبياءِ لِكَوْنِهِ آخِرَهُم بَعثا.

وقوله: « الرِّسَالَةَ » بكسر الراء وفتح السين، وهي ما أُمِرَ الرَّسُولُ بِتَبْلِيغِهِ من الشرع.

وقوله: « النَّذَارَةَ » بفتح النون والذال، مأخوذة من الإنذار، وهو الإعلام الْمُتَضَمِّنُ لِتَخْوِيف وتحذير.

وقوله: « النُّبُوَّةَ » بضم النون والباء وفتح الواو من النَّبْوَةِ بفتح النون وسكون الباء وفتح الواو، وهو ما ارتفع من الأرض، واشْتُقَّ اسمُ النبي من ذلك لكونه أرفع الناس درجةً وأشرفهم مَنزلةً عند المولى جل وعلا، وهو فعيل بمعنى مفعول.

وقوله: « شَرَحَ بِهِ دِينَهُ الْقَوِيمَ » لفظ شَرَح بفتح الجميع وهو الفتح والبيان، يقال: شَرَحْتَ الْكَلَامَ إذا بَيَّنْتَه وَوَضَّحْتَهُ، أي وَضَّحَ به دِينَهُ القويم.

والمعنى أنه مما يجب على المكلَّف اعتقاده أن نبينا محمدا ﷺ هو آخر الأنبياء والمرسلين بَعثًا، وبه أُغْلِقَ بابُ النُّبوة، فمن ادعى النبوة بعده فقد كفر ومَرَقَ مِنْ مِلَّة المسلمين بالإجماع، لأنه يكذِّب الله ورسوله بلسان حاله حيث أخبر الله تعالى بانتهاء النبوة

وختمها بنبينا محمد ﷺ بقوله: « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » الأحزاب: (40)

وقال نَبِيُّه ﷺ فيما روى مسلم وأبو داود عن ثَوْبَانَ رضي الله عنه: « وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ كَذَّابُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمِ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي »[108] فَتَبَيَّنَ مِن ذلك أن مَنِ ادَّعى النُّبُوةَ بَعدَه ﷺ فقد كفر، فيجب على المكلف أن يعتقد أن نبينا محمدا ﷺ هو آخر النبيين والمرسلين لا نبي بعده، وهو آخِرُهم بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وأن الله أنزل إليه كتابه الحكيم وهو القرآن، وَوَضَّحَ به دِينَهُ الْحَنِيفَ وهَدى به الناسَ إلى الصِّراطِ الْمُستقيم، والضمير في قوله: «به» رَاجِعٌ على محمد ﷺ.

[108] – أخرجه مسلم في كتاب الفتن، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض: (2889) وأبو داود في كتاب الفتن، باب ذكر الفتن ودلائلها: (4252) واللفظ له.

الْإِيمَانُ بِالْمَعَادِ

قوله: « وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا » يعني أنه مما يجب على المكلف اعتقاده أن الساعة آتية لا ريب فيها، وقد تقدم الكلام عنها في أركان الإيمان، وذكرنا بعض أشراطها هناك، ولله الحمد والمنة.

وقوله: « وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ يَمُوتُ كَمَا بَدَأَهُمْ يَعُودُونَ » يعني أنه مما يجب على الْمُكلَّف اعتقاده أن الله يبعث من مات فيعودون كما أنشأهم في ابتداء الخلق على الصفة التي كانوا عليها عند خُروجهم من بطون أُمَّهَاتِهم، كما قال تعالى: « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » الأنعام: (94)

وثُبُوتُ البعث معلوم من الدين بالضرورة، وقد تظاهرت النصوص القرآنية على إثباته والرد على مُنْكِرِيه، قَلَّمَا تَجِد سُورةً من السور القرآنية خالية عن ذكر ما يتعلق بالبعث والنُّشور بعد الموت، ومن ذلك قوله تعالى: « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمُ الغَيْبِ » سبأ: (3)

وقال أيضا: « زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ » التغابن: (7)

وقال تعالى: « إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى » طه: (15 ـ 16)

وقال تعالى: «وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ» الإسراء:(97)

وقال تعالى: « وَضَرَبَ لَنَا مَثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » يس:(78 . 79)

ونَجِدُ اللهَ سبحانه وتعالى يُبَالِغ في الرد على مُنْكِرِي البعث والنشور، ويُؤكد إثبات البعث بأدات التوكيد، تأكيدا على أن هذا أمر لا بد منه، تارة يُقَرِّر ذلك بضرب الأمثال من إحياء الأرض بعد موتها بالمطر، وغير ذلك كثيرا، وأما الأدلة من السنة فكثيرة جدا، منها على سبيل المثال ما روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « قَالَ اللهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفْأً أَحَدٌ »[109]

وقد ذهب جماهير الفلاسفة والدَّهْرِيَّةُ[110] إلى إنكار البعث والنشور زاعمين أَنَّ الْأَكْوَانَ إنما تَتَصَرَّفُ بِطَبِيعَتِها، فَتَحْدُث وَتَعْدَمُ بِأَنْفَاسِها وليس لها رب يُصَرِّفُهَا، وهناك صِنْفٌ

---

[109] – أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب سورة قل هو الله أحد: (4974)

[110] – الدهرية اسم مشتق من الدهر، وهو الزمان، والمراد هنا جماعة يعتقدون قِدَمَ العَالَمِ، وأنه ليس لِلْعَالَمِ خَالق وإنما أَوْجَدَه الدَّهرُ، وليس له بداية ولا نهاية، ومنهم الدَّوْرِيَّةُ القائلون بِتَكَرُّرِ الْأَكْوَانِ بعد كل ست وثلاثين ألف سنة (36,000)، وأن ذلك قد تكرر مرات كثيرة، عياذا بالله.

آخَرُ مِنَ الدهرية من مُشْرِكِي الْعَرب أَقروا بِالبَدَاءَةِ والْمُبْدِئِ وأنكروا البعث والنشور، وقوم من الجهمية أقروا بذلك لكن لا على ما جاء به النصوص الخبرية، وزعموا أن الأجساد التي تُنَعّمُ بِالْجَنَّة لَيْسَتْ هي الأجساد التي عَمِلَتْ طاعةً في الدنيا، بل هي غيرها، وأن التي تُعَذَّبُ بالنار ليست هي التي عَمِلَتِ الْمَعاصي في الدنيا، ولا أنها تَحَوَّلَتْ مِنْ حال إلى حال، بل هي غيرها، وهناك زَنَادِقة أخرى، وهم الدَّوْرِيَّةُ مِن الدهرية يَزْعُمون أن في كل سِتٍّ وثَلَاثِين أَلْفِ سَنَةٍ (36,000) يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وأن هذا قد تَكَرَّر مَرَّاتٍ لَا تَتَنَاهَى، وكُلٌّ مِن هذه الأصناف قد بالغ القرآن في رد عليهم بأساليب متعددة كما تقدم ذِكْرُ شَيْءٍ من ذلك، والحاصل أنه يجب على المكلف أن يعتقد أن الله يبعث الموتى بعد موتهم وَيُجَازِيهم بأعمالهم، وبالله التوفيق.

تَضْعِيفُ الْحَسَنَاتِ

وقوله: «وَأَنَّ اللّهَ سُبْحَانَهُ ضَاعَفَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَسَنَاتِ، وَصَفَحَ لَهُمْ بِالتَّوْبَةِ عَنْ كَبَائِرِ السَّيِّئَاتِ، وَغَفَرَ لَهُمُ الصَّغَائِرَ بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ، وَجَعَلَ مَنْ لَمْ يَتُبْ مِنَ الْكَبَائِرِ تَحْتَ مَشِيئَتِهِ، إِنَّ اللّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» لفظ ضاعف على وزن فاعل مشتق من الضِعْفِ بكسر الضاد مُفرَدُ أَضْعَافٍ، وهو زيادة مثل الشيء عليه، و«صفح» بفتح الجميع مشتق من الصفح بإسكان الثاني، وهو في الأصل الإعراض عن شيء، والمراد هنا الإعراض عن الذنب، والمعنى أنه من ضِمْنِ ما يجب على المكلف اعتقاده أن الله سبحانه وتعالى بفضله ومَنِّهِ وكَرَمِه يُضَاعَف لعباده جَزاءَ الحسنات، فمن جاء بحسنة واحدة فله عَشرُ أَمثالِها كما قال الصادق المصدوق، وفي قوله: « ضَاعَفَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَسَنَاتِ » محذوف، والتقدير جزاء الحسنات، والحسنات جمع حَسَنَةٍ، وهي كل عمل يُحْمَدُ فَاعِلُه شَرعا، وقد دلت الأخبار على أن الحسنات تُضاعَف، منها قوله تعالى: « مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » الأنعام: (160)

وقوله تعالى: « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » البقرة: (261)

وقوله تعالى: « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسْنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » البقرة: (245)

وروى البخاري في الرِّقَاقِ مِن طريق أَبِي رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيِّ، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: « إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً »[111]

وكل هذه النصوص تدل على أن الحسنة تُضَاعَفُ أضعافا كثيرة بخلاف السيئات فإنها لا تضاعف، وهذا هو ظاهر ما تقتضيه آية سورة الأنعام السابقة الذكر وحديث ابن عباس، وهذا من فضل الله وكرمه ورحمته بعباده، ثم إن هذا التَّضعِيفَ خاص بالمؤمنين دون غيرهم، ولذا قَيَّدَ بِهِم الْمُصنِّف، والله أعلم.

ومما يجب اعتقاده على المكلف أيضا أنه سبحانه وتعالى يُعْرِضُ عن ذنوب عباده إذا تابوا إليه وهو التَّوَّاب الرحيم، وأنه يغفر لهم ما فعلوه من صغائر الذنوب إذا اجتنبوا كبائر الذنوب كما قال تعالى: « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَونَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا » النساء: (31)

---

111 – أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب مَنْ هَمَّ بِحسنة أو سيئة: (6491)

أَهْلُ الْمَعَاصِي فِي مَشِيئَةِ اللهِ

ومِما يَجِب على المسلم اعتقاده أَنَّ مَن لَم يَتُبْ من الكبائر تَحْتَ مَشيئة الله سبحانه، إن شاء عَذَّبَه بقدر ذنوبه، وإن شاء عفا عنه وغفر له، وأن الله تعالى يغفر كُلَّ ذَنْبٍ ما لَمْ يَكُن شِرْكًا، فإنه تعالى لا يغفر الإشراك به كما قال عز من قائله: « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا » النساء: (116)

شُرُوطُ التَّوْبَةِ

ويُشْتَرَطُ في التوبة أَربعةُ شُروطٍ:

أحدها: النَّدمُ على ما سبق من الذنوب والمعاصي، لأن الشُّعورَ بالندم والحسرة على ذلك دليل على صِدْقِ التائب في توبته.

الثاني: أن تَنْوِي أن لا تعود إلى مثل ما قَدَّمْتَهُ من الذنوب والمعاصي فيما يستقبل من عُمرِكَ، وأن تَقْلَعَ من المعصية بالكلية، فإن كُنْتَ تُرِيد أن تعود إليها عِنْدَما تَسمحُ لَك الْفُرْصَةُ فَتَوْبَتُكَ لَيْسَتْ صَادِقة.

الثالث: الْكَفُّ عن المعصية واجتنابها في حالة ارتكابها، فإن كانت في ترك الواجب فَالْإِقْلَاعُ عنها يكون بِفِعل هذا الواجب الْمَتروُك، وإن كانت في ارتكاب ما نهى الله عنه، فالإقلاع عنها يكون بترك هذا المنهي عنه واجتنابه.

الرابع: وإن كانت المعصية فيما يتعلق بحقوق العباد، فلا بُدَّ مِن رَد الْمَظَالِم إلى أهلها، أو طلب عفوهم، والله تعالى أعلم.

لَا يَخْلُدُ أَهْلُ الْكَبَائِرِ فِي النَّارِ مَا لَمْ تَكُنْ مَعْصِيَتُهُمْ شِرْكًا

قوله: « وَمَنْ عَاقَبَهُ بِنَارِهِ أَخْرَجَهُ مِنْهَا بِإِيمَانِهِ فَأَدْخَلَهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ » يعني أن المؤمن إذا ارتكب ما يُوجِبُ عليه دُخولَ النار من المعاصي فَعَذَّبه اللهُ بِنَارِهِ من أَجَل ذنبه فإنه يُخْرِجُه من النار بقدر إيمانه ويُدْخِلُه به الجنةَ، لأن مَنْ عَمِل خَيرا من المؤمنين يَرَهُ ويَنْتَفِعُ به يوم القيامة مَهْمَا قَلَّ هذا الخير، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة سلفا وخلفا، فإنهم أجمعوا على بَكْرِ أَبِيهم على أن أهل الكبائر من أُمَّة محمد ﷺ لا يَخْلُدُون في النار إذا دخلوها، وكلام المصنف هذا رد على الخوارج والمعتزلة القائلين بِتَخْلِيد أهل الكبائر في النار كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

والكبائر جمع كبيرة مُؤَنَّث كَبِير مأخوذ مِنَ الكِبر بكسر الكاف وسكون الباء، وهو ضد الصِغرِ، واخْتَلَفَ العُلماءُ في تحديد الكبائر، وأحسن ما قيل في ذلك أنها كل ذنب تَرَتَّب عليه حَدٌّ، أو تُوُعِّدَ عليه بالنار أو اللعنة أو الغضب، كالشرك، والسحر، وقتل النفس بغير الحق، والزنا، واللواط، والسرقة، وعقوق الوالدين، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، وشرب الخمر، والنميمة، والغيبة والكبر، والكذب، والفِرار من الزَّحفِ، وشهادة الزور، ونحو ذلك، وهذا هو المأثور عن سلف الأمة، فمن ارتكب كبيرة من هذه الكبائر المذكورة حاشا الشرك، ومات قبل أن يتوب إلى الله تعالى مُوَحِّدًا لا يشرك به شيئا فهو داخل في مشيئة الله تعالى، إن شاء عَذَّبه وإن شاء عفا عنه، وإن أدخله النار بذلك لا يَخْلُدُ

فيها وهذا هو مذهب أهل السنة من سَلَفِ الأمة وخَلَفِهِمْ كما تقدم، وذلك لقوله تعالى: « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » النساء:(116)

فَالزِّنَا، والنَّمِيمَةُ، والكِبْرُ، والعُجْبُ، والكَذِبُ، وقَتلُ النفس بغير حق، والْلِّوَاطُ، والسرقة، وشرب الْخَمرُ، والقَذفُ، والفِرارُ من الزَّحفِ، وشهادة الزُّورِ، وعُقُوقُ الوالدين، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، وتأخير الصلاة عن أوقاتها، وهلم جرا، دَاخِلَةٌ في مسمى «مَا دُونَ ذَلِكَ» ولا يَخْلُدُ صاحبُها في النار، وشَذَّ في ذلك بعض الزنادقة من الخوارج والمعتزلة فقالوا: لا بد من خلوده في النار، وهذا باطل مردود وافْتِيَاتٌ على الشارع، فإن الأخبار مُتَوَاتِرَةٌ في إثبات شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر الْمُوَحِّدِين، وسيأتي تَمام البيان عن هذه المسألة في النص الآتي إن شاء الله تعالى، وبالله التوفيق.

إِثْبَاتُ الشَّفَاعَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ

وقوله: « وَيَخْرُجُ مِنْهَا بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ شَفَعَ لَهُ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِهِ » لفظ الشفاعة بفتح الشين والعين مصدر من شَفَعَ يَشْفَعُ مأخوذ من الشَّفْعِ بفتح الشين وسكون الفاء، وهو ضِدُّ الْوِتْرِ، أي الزوج في العدد، وسُمِّيَ الشفيع شفيعا لأنه يصير مع صاحب الحاجة شفعا، ومعنى الشفاعة في الأصل: التَّوَسُّطُ لِلْغَيْرِ بِجَلْبِ مَنْفعةٍ، وهي أنواع:

الأول: الشفاعة الكبرى: وهي شفاعته ﷺ لأهل الموقف في أن يُقْضَى لهم، وهذه الشفاعة خاصة به ﷺ، ودليلها ما أخرجه البخاري في الرِّقَاقِ من طريق قتادة بن دِعَامَة السَّدُوسِي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا عَلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّنَا، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ وَيَقُولُ: ائْتُوا نُوحًا أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي اتَّخَذَهُ اللهُ خَلِيلًا، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، ائْتُوا مُوسَى الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، ائْتُوا عِيسَى فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُقَالُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُ رَبِّي

بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِي، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، ثُمَّ أُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَقَعُ سَاجِدًا مِثْلَهُ فِي الثَّالِثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ حَتَّى مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ»[112] وَكَانَ قَتَادَةُ يَقُولُ عِنْدَ هَذَا: أَيْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ.

الثاني: شفاعته ﷺ في أن يُؤْذَنَ لِجَميع المؤمنين في دُخُول الجنة، وفي حديث الصُّورِ الطَّوِيلِ: « فَآتِي الْجَنَّةَ، فَآخُذُ بِحَلْقَةِ الْبَابِ، ثُمَّ أَسْتَفْتِحُ فَيُفْتَحُ لِي، فَأُحَيَّا وَيُرَحَّبُ بِي، فَإِذَا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَنَظَرْتُ إِلَى رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ خَرَرْتُ لَهُ سَاجِدًا، فَيَأْذَنُ لِي مِنْ حَمْدِهِ وَتَمْجِيدِهِ بِشَيْءٍ مَا أَذِنَ بِهِ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ لِي: ارْفَعْ يَا مُحَمَّدُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، فَإِذَا رَفَعْتُ رَأْسِي قَالَ اللهُ ـ وَهُوَ أَعْلَمُ ـ : مَا شَأْنُكَ؟ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، وَعَدْتَنِي الشَّفَاعَةَ فَشَفِّعْنِي فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَدْ شَفَعْتُكَ وَأَذِنْتُ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ »[113]

هذا قِطعَةٌ من حديث الصُّورِ الطَّوِيل المشهور، أخرجه الإمام الطبراني في الكبير، والطبري في تفسيره، والبيهقي، وأبو يَعْلَى الْمَوْصِلِيُّ في المسند، وغيرهم، لكن إسناده ضعيف، لأنه روي من طريق رافع بن إسماعيلَ الْمَدَنِي عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي زِيَادٍ، وكِلَاهُما ضَعِيفَانِ عند أهل العلم بالحديث، والحاصل أن شفاعته ﷺ في دُخُولِ أهل الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ثابتة في الأحاديث الصحيحة الواردة في وَصْفِ الْمَحْشَرِ، وبالله التوفيق.

112 – أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار: (6565)

113 – أخرجه الطبراني في الكبير برقم: (6117) وهو ضعيف كما تقدم.

الثالث: شفاعته ﷺ في أَقْوَام مِن أُمَّتِه يَدْخُلُون الجنةَ بغير حساب، وروى البخاري عن حُصَيْنٍ قال: « كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْأُمَّةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ النَّفَرُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْعَشَرَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْخَمْسَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ وَحدَهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ هَؤُلَاءِ أُمَّتِي؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قَالَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، وَهَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قُدَّامَهُمْ، لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ، وَلَا عَذَابَ، قُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: كَانُوا لَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، فَقَامَ إِلَيْهِ عُكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ، ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ آخَرُ قَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ »[114]

الرابع: شفاعته ﷺ في رَفْعِ درجات أهل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثَوابُ عَمَلِهم، ووافق المعتزلةُ أهلَ السنة والجماعة على إثبات هذه الشفاعة، وأنكروا ما سواها.

الخامس: شفاعته ﷺ في تخفيف العذاب لِعَمِّه أبي طالب، وقد يقول قائل: هذا مُعَارِض لقوله تعالى: « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » المدثر: (48)

وقد أجاب عن ذلك صاحب التذكرة بأن المراد أي لا تنفعه في الخروج من النار كما نَفَعَتْ عُصَاةَ الْمُوَحِّدِين فَأُخْرِجُوا مِنها إلى الجنة، وهو جيد.

---

114 - أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب: (6541)

السادس: شَفَاعَتُهُ ﷺ في أقوام قد تَسَاوَتْ حَسَناتُهم سَيِّئاتَهم، فَيَشْفَعُ فيهم لِيَدْخُلوا الجنةَ.

السابع: شفاعته ﷺ في أقوام قد أُمِرَ بهم إلى النار، فيشفع فيهم لئلا يدخلوها.

الثامن: شفاعته ﷺ في أهل الكبائر الْمُوَحِّدِين من أمته ممن دخل النار فَيُخْرَجُونَ مِنها، وهي التي عَنَى الْمُصَنِّفُ بِكَلامِه، وقد دل على إثبات هذه الشفاعة حديث أنس رضي الله عنه الذي أوردناه في إثبات الشفاعة الْعُظْمَى، بل، وقد تواترت الأحاديث الصحيحة في ذلك كما تقدم، ومن ذلك ما روى أبو داود عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»[115]

وفي لَفظٍ: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا جُعِلَتِ الشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»[116] أخرجه الآجري في الشريعة.

وأخرج أيضا عن حذيفة بن اليمان أنه سمع رجلا يقول: « اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِمَّنْ تُصِيبُهُ شَفَاعَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُغْنِي الْمُؤْمِنِينَ عَنْ شَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَكِنَّ الشَّفَاعَةَ لِلْمُذْنِبِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ »[117]

وهذه الشفاعة خاصة بِالْمُوَحِّدِين، وذلك لما أخرجه الآجُرِيُّ في الشريعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ

---

[115] – أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب الشفاعة: (4739) وهو صحيح.

[116] – أخرجه الآجري في الشريعة برقم: (783)

[117] – أخرجه الآجري في المصدر السابق رقم: (785)

دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأَتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ لِمَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا »[118]

ثم إن هذه الشفاعة لا تَخْتَصُّ بالنبي ﷺ فقط كَشَفَاعةِ الْعُظمَى، بل يُشارِكُه فيها الْمَلائكةُ، والنَّبِيُّونَ، والْمُؤمِنونَ، وكل هذا لا يكون إلا بإذن الله تعالى، فنسأله تبارك وتعالى أن يجعلنا ممن يُشارك في هذه الشفاعة إنه مجيب للدعوات، والله تعالى أعلم.

---

[118] - أخرجه الآجري في المصدر السابق، الرقم (786)

الْجَنَّةُ وَالنَّارُ مَخْلُوقَتَانِ الْآنَ

وقوله: « وَأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ خَلَقَ الْجَنَّةَ فَأَعَدَّهَا دَارَ خُلُودٍ لِأَوْلِيَائِهِ » يعني أن مما يجب على المكلف اعتقاده أن الله سبحانه وتعالى خلق الجنة حاليا، وجعلها دار البقاء لأوليائه المؤمنين، وأهل السنة والجماعة متفقون على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان حاليا، وخالف في ذلك بعض الزنادقة من القدرية والمعتزلة فأنكروا ذلك، وقالوا: بل يَخْلُقُهمَا الله يوم القيامة، وقالوا أيضا: خَلْقُ الجنة قبل الجزاء عَبَثٌ، لِكَونها تكون مُعَطَّلَةً مُدَدًا مُتَطَاوِلَةً، ونظير ذلك أن يَتَّخِذَ مَلِكٌ دَارًا وَأَعَدَّ فيها ألوانا من الأطعمة والأشربة الذيذة، والآلات، وكل ما يحتاجه الإنسان، ثم يُعَطِّلُهَا من الناس ولم يُمَكِّنْهُم من دخولها أَجْيالًا مُتَطَاوِلَةً، ولا شك أن فِعلَه هذا لم يكن واقعا على وجه الحكمة، وقولهم هذا باطل فاسد مردود، وإنما حَمَلَهُم على ذلك أَصْلُهم الفاسدُ المبني على ظلمة الضلالة والجراءة على الله المولى جل وعلا من اختيارهم لله ما ينبغي له من الأفعال وما لا ينبغي له، وقد تظاهرت النصوص الخبرية الدالة على أن الجنة والنار موجودتان الآن، منها قوله تعالى: « وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى » النجم:(13 ـ 15)

وقال تعالى: « إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَئَابًا » النبأ: (21 ـ 22)

ويُوَضِّح ذلك ما روى البخاري ومسلم من حديث أنس في قصة الإسراء، وفيه: « ثُمَّ انْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ، قَالَ: ثُمَّ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ »[119]

وروى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في الكسوف، وفيه: قال رسول الله ﷺ: « إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُم ذَلِكَ فَاذْكُرُوا اللهَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ، فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَتَنَاوَلْتُ عُنْقُودًا، وَلَوْ أَصَبْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، وَرَأَيْتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ، قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: بِكُفْرِهِنَّ، قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِاللهِ؟ قَالَ: يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ»[120]

وهذا، واستقصاء الأدلة على إثبات وجود الجنة والنار الآن يستدعي مجلدا، بل هذا أمر معلوم من الدين بالضرورة، وبالله التوفيق.

119 – أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ذكر إدريس: (3342) ومسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ: (163)

120 – أخرجه البخاري في كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف جماعة: (1052) ومسلم في كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار: (904)

إِثْبَاتُ رُؤْيَةِ اللهِ لِلْمُؤْمِنِينَ

قوله: « وَأَكْرَمَهُمْ فِيهَا بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ » يعني أنه مما يجب على المكلف اعتقاده أن المؤمنين يَرَوْنَ ربهم يوم القيامة، وهو مذهب أهل السنة والجماعة سلفا وخلفا، وفارق الجهمية والمعتزلة ومن نحا نحوهم من الخوارجِ والْجَعْفَرِيَّةِ الإِمَامِيَّةِ الْجَمَاعةَ في ذلك بِنَاءً على جَهْلِهِم وافْتِيَاتِهِم على الشارع، وقد تواترت الأخبار على إثبات الرؤية، ومن ذلك قوله تعالى: « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » القيامة: (22 23).

وهذه الآية من أظهر الأدلة القرآنية على إثبات رؤية المؤمنين الله يوم القيامة. والناضرة مشتقة من النَّضرِ بفتح النون وسكون الضاد، وهو حُسْنُ الوجه من أَثَرِ النِّعمَةِ والفرح، وإضافة النَّظَرِ إلى الوجوه الذي هو مَحله وَتَعَدِّيهِ بِأَدَاةِ (إلى) الصريحة في نَظرِ الْعَيْنِ، يدل على أن المراد بالنَّظَرِ في الآية نظر العين التي في الوجه إلى المولى جل وعلا حقيقة لا مجازا، كما بَيَّنَهُ شارح الطحاوية ابن أبي الْعِزِّ الحنفي رحمه الله. ومن ذلك قوله تعالى: « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » يونس: (26)

وقد فَسَّرَ النبي ﷺ الزيادةَ المذكورةَ في الآية برؤية المؤمنين الله، كما روى مسلم عن صُهَيْبٍ الرُّومِيّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ: يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا

الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِم عَزَّ وَجَلَّ »[121]

والأحاديث الواردة في إثبات الرؤية تَبْلُغُ حَدَّ التواتر، وقد ذكر شارح الطحاوية أنه روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابيا، ومن هذه الأحاديث على سبيل المثال ما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ أُنَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ إِذَا كَانَتْ صَحْوًا؟ قُلْنَا: لَا، قَالَ: فَإِنَّكُمْ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَتِهِمَا»[122] ومن ذلك ما روى البخاري عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: « كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ قَالَ: إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ »[123]

ومن ذلك ما أخرجه صاحب المعرفة والتاريخ يعقوب بن سُفْيانَ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « يَزُورُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الرَّبَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ جُمُعَةٍ، وَذِكْرِ مَا يُعْطَوْنَ، قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: اكْشِفُوا حِجَابًا،

---

121 – أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم: (181)

122 – أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾ القيامة: (22) برقم: (7437) ومسلم في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية: (182)

123 – أخرجه البخاري في مصدره السابق: (7434)

فَيَكْشِفُ حِجَابًا، ثُمَّ حِجَابًا، ثُمَّ يَتَجَلَّى لَهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ وَجْهِهِ، فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا نِعْمَةً قَبْلَ ذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: "وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ" »[124]

والحاصل أن إثبات رؤية المؤمنين ربهم أمر أجمع عليه المسلمون على بكر أبيهم، ولم يُخالف في ذلك إلا السفهاء من المعتزلة والجهمية، ومن سار على مِنْواهم من الإمامية، وليس لهم دليل على ما ذهبوا إليه يُنْفَق في سُوق الْمُناظَرَة، ومن شُبهَتِهمُ الباطِلةِ قوله تعالى: « لَنْ تَرَانِي » الأعراف: (143)

وقوله: « لَنْ تَرَانِي » دليل على نفي الرؤية في الآخرة، لِأَنَّ (لَنْ) تَقتَضِي النَّفيَ الْمُؤَبَّدَ، وهذا جهل منهم، ولم يقل به أحد ممن يُعْتَمد عليه من أهل العربية، ومما يبطل هذه الدعاوي التخمينية قوله تعالى: « وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا » البقرة: (95) ثم قال في موضع آخر: « وَنَادَوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ » الزخرف: (77)

فأخبر الله تعالى في آية البقرة أنهم لا يَتَمنَّون الموت أبدا لما قَدَّمَتْ أيديهم، وأخبر في آية الزُّخرُفِ أنهم يسألون الله أن يقضي عليهم بالموت، فاقتضى ذلك أن ما ذكروه مِنْ أَنَّ (لَنْ) تُفِيد النفي المؤبد غير صحيح، وأما ما استدلوا به من قوله تعالى: « لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ » الأنعام: (103)

فهو استدلال ضعيف، والآية لا تدل على ذلك، وإنما هو كِنَايةٌ عَن قُصور الأبصار عن إدراك حقيقة ذاته سبحانه وتعالى، والإحاطة به، فَلَنْ يَنْفِ موسى الرؤية، وإنما نفى الإدراك، لأن الله سبحانه وتعالى يُرى في الآخرة، لكن لا يُدْرَكُ كُنْهُه، ولا يُحَاط

124 – أخرجه يعقوب الْفَسَوِي في المعرفة والتاريخ: (3\395) وهو ضعيف.

به عِلْمًا كما تقدم بيان ذلك، فنقول: كل من أنكر الرؤية على علم حَرَّمهُ اللهُ تعالى إياها يوم يَفْرَحُون الْمُؤمنون برؤية ربهم، وبالله التوفيق.

وقد استوفى الحافظ العلامة ابنُ قَيِّمِ الْجَوْزِيةِ الكَلامَ عن هذه المسألة كَعَادَتِه في كتابه «حاد الأرواح»، ومن أراد الزيادة فَلْيُطَالِعْهُ، وإنما أَغْفَلْنَا الإطناب في هذه المسألة خشية التطويل، وبالله التَّوْفِيق وعليه التُّكْلَان.

اخْتِلَافُ الْعُلَمَاءِ فِي الْجَنَّةِ الَّتِي أَسْكَنَ اللهُ فِيهَا آدَمَ وَزَوْجَتَهُ

وقوله: «وَهِيَ الَّتِي أَهْبَطَ مِنْهَا آدَمَ نَبِيَّهُ وَخَلِيفَتَهُ إِلَى أَرْضِهِ بِمَا سَبَقَ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ» لفظ «أهبط» بفتح الهمزة مشتق من الْهُبُوط بضم الهاء والباء وسكون الواو، وهو الْحُدُور، يقال هبط منه إذا انحدر منه، يعني أن الجنة التي أعدها الله لعباده المؤمنين هي الجنة التي أسكنها آدمَ وَحَوَّاءَ كما قال تعالى: « وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ » البقرة: (35) ثم أهبطهما منها كما قال تعالى: « وَقُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا » المصدر السابق: (36)

وقد اختلف العلماء في ذلك على قولين، أحدهما: أنها جنة الخلد التي يُدْخِلُ اللهُ الْمُؤمنين فيها يوم القيامة.

الثاني: أنها جَنَّةٌ أَسْكَنَهُمَا اللهُ تعالى إياها غَيْرَ جَنَّةِ الْخُلدِ، واختلف أصحاب هذا القول هل هي في السماء أو في الأرض، فذهب بعضهم إلى أنها في السماء، وهو قول الحسن البصري، وقال بعضهم: هي في الأرض، حكاه صاحب البَحر الْمُحِيط أبو الْحَيَّانَ الأندلسي عن أبي القاسم البَلْخِي وأبي مُسلم الْأَصْفَهَانِي، واستدل من قال بأنها لَيْستْ جَنَّةَ الْخُلد بقوله تعالى: « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ » الحجر: «4»

فأخبر الله تعالى أَنَّ مَنْ دخل جنة الخلد لا يخرج منها أبدا، وقد أخرج آدَمَ وَحَوَّاءَ منها، فَدَلَّ ذلك على أنها لَيْسَتْ هِيَ هِيَ، ولو كانت هي لم يُخْرَجَا منها، ومن ذلك قوله تعالى: «لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ» الطور: (23) وقوله: « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا » الواقعة: (25)

فأخبر الله تعالى أن أهل جنة الخلد لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما، وقد سمع آدم فيها لغو إبليس وإثمه، فاقتضى ذلك أن الجنة التي أسكنه الله إياها ليست هي جنة الخلد. واستدل مخالفوهم بقوله تعالى: « فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ » البقرة: (36)

فقوله: « اهبطوا » يدل على نُزُولٍ من علو إلى أسفل، فدل ذلك على أنها هي جنة الخلد، وتُعُقِّبَ بأن المراد به الهبوط من أرض إلى أرض، يقال: هبط فلان أرض كذا إذا نَزَلَها، وقوله: «وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ » دليل على أنهما لم يكونا قبل ذلك في الأرض وأن الجنة لم تكن في الأرض، فلو كانت في الأرض لم يكن لِذِكْرِ هذه الجملة فائدة.

وبما روى مسلم من حديث حذيفة رضي الله تعالى عنه في وصف المحشر، وفيه: « يَجْمَعُ اللهُ تَعَالَى النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ»[125] الحديث، فدل الحديث على أن الجنة التي أسكن الله تعالى فيها الأَبْوَينِ هي جنة الخلد التي يَدْخُلُهَا المؤمنون يوم القيامة، واستقصاءُ ذِكْرِ أدلة كُلٍّ مِنَ الْفَرِيقَين وأَجوبته عن أدلة مخالفيه أمر يستدعي صَفحاتٍ كَثِيرَةً، لكن أصح الأقوال

---

[125] – أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها: (195)

في ذلك قول من قال هي جنة الخلد التي في السماء، لأن ذلك هو ظاهر ما تقتضيه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الواردة في ذلك، والله تعالى أعلم.

الْجَنَّةُ وَالنَّارُ باقِيَتَانِ لَا تَفْنِيَانِ

قوله: « وَخَلَقَ النَّارَ فَأَعَدَّهَا دَارَ خُلُودٍ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ وَأَلْحَدَ فِي آيَاتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَجَعَلَهُمْ مَحْجُوبِينَ عَنْ رُؤْيَتِهِ »

وقوله: « خُلُودٍ » بضم الخاء واللام وسكون الواو، وهو البَقاءُ والثَّبَاتُ والْمُلَازمَة، يقال: خَلَدَ بالْمكان إذا أقامه ولازمه.

وقوله: « أَلْحَدَ » بفتح الهمزة وإسكان اللام وفتح الحاء من اللَّحد بفتح اللام، وهو الْمَيْلُ، يقال: ألحد إذا مال عن طريقة الحق، والإلحاد هو الميل عن الحق إلى ضده، والإلحاد في آيات الله هو الميل عن الإيمان بها، ويَدخُلُ في ذلك تَحريفها وتأويلها على غير ظاهرها وما في معنى ذلك، والإلحاد في كُتُبه، عدم الإيمان بها أو تحريفها أو تغيير شيء منها، وفي رُسُلِه، عدم الإيمان بهم وتكذيبهم فيما جاءوا به من الهدى.

وقوله: « مَحْجُوبِينَ » منصوب على المفعولية، جمع مَحْجُوب مِن حَجَبَ يَحْجُبُ حِجَابًا ومَحْجُوبا، والْحَجْبُ في الأصل الْمَنْعُ، فإذا قلت: حجبه كذا عن رؤية كذا فكأنه منعه من رؤيته، والمعنى أي جعلهم ممنوعين من رؤيته أي محرومين.

والمراد أنه يَتَحَتَّمُ على المكلف أن يعتقد أن الله تعالى خلق النار فَأَعَدَّهَا دَارَ الْبَقَاءِ لِمَن كفر به وكَذَّب بآياته، وكُتُبِه، ورُسُلِه، وأَنَّ مَن كان كذلك لا يَتَنَعَّمُ بِرؤية الله

تبارك وتعالى حِينَمَا يَرَونَه المؤمنون يوم القيامة، كما قال تعالى: « كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ » المطففين: (15)

وقد تَوَاترتِ الْأَخبارُ على إثبات خُلُود الجنة والنار، فأما الجنة فقد أجمع المسلمون على بكر أبيهم على أَبَدِيَّتِهَا وعَدمِ فَنَائِها، ولم يخالف في ذلك إلا جهم بن صَفْوَانَ أحد فَرَاعِنَةِ هذه الأمة، وقد كَفَّرَهُ العُلماءُ بقوله هذا، ومن الأدلة على أَبَدِيَّةِ الجنةِ قوله تعالى: « وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » هود: (108)

واختلف العلماء في الاستثناء المذكور في الآية، فقيل: هو في الذين يُخْرَجُونَ مِن النار من أهل الكبائر بعد مَكثِهِم فيها فَيُدْخِلُون الْجنَّةَ، فأخبر الله تعالى عنهم أنهم خالدون في الجنة ما دامت السموات والأرض إلا تلك المدة التي مكثوا فيها في النار التي شاء الله أن يَمْكُثُوها، فكان هذا لمن دخل الجنة بعد الخروج من النار، وهذا مروي عن الضَّحَّاكِ، وقيل: « إلا » بمعنى سوى، أي سِوَى ما شاء ربك من الزيادة على مُدَّةِ دوام السموات والأرض، هذا قول سِيبَوَيْهِ والفَرَّاءِ كما حكى عنهما صاحب الأرواح، وقيل: هذا إعلامهم بأنهم مع خلودهم فيها في مشيئة الله تعالى، فإنهم لا يَخْرُجُون من مَشِيئته، ولا يُنَافِي ذلك جَزمه بخلودهم فيها، ونظيره قوله تعالى: « وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا » الإسراء: (86)

وعلى كل تقدير فهذا الاستثناء من المتشابه، وقد جمع الحافظ العلامة ابن القيم أجوبة علماء السلف عن هذا الاستثناء في الحاد،[126] ثم ذكر أن أقوالهم حول ذلك مُتَقَارِبة ويمكن جمعها بأن يقال أخبر الله تعالى عن خلودهم في الجنة في كل وقت إلا الوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة من وقت كونهم في الدنيا وفي الْبَرْزَخِ وفي الْمَحْشَرِ، وكون بعضهم في النار مدة، ومما يؤيد ذلك قوله تعالى: « لَا يَذُوقُونَ فِيهَا المَوْتَ إِلَّا المَوْتَةَ الأُوْلَى » الدخان: (56) وقوله تعالى: « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ » الحجر: (48)

ومما يدل على أَبَدِيَّةِ الجنة والنار من السنة ما في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ[127] وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، ثُمَّ

---

126 – انظر: (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح) ص: (356-358)

127 – قوله: (فيشرئبون) بفتح الراء والهمزة المكسورة وضم الباء المشددة مأخوذ من اشْرَأَبَّ اشْرِئْبَابًا، وهو النظر إلى الشيء بِمَدِّ العُنُقِ، والفاعل مُشْرَئِبٌ، والمفعول مُشْرَأَبٌ، والمعنى أي يمدون أعناقهم ينظرون، والله أعلم.

قَرَأَ: "وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذَا قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ" وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا. "وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ" »[128]

وأما النار، فقوله تعالى: « فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوْا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ » هود: (106 . 107) والكلام عن الاستثناء فيها كالكلام عن الاستثناء في سابقتها.

وقوله تعالى: « وَنَادَوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ » الزخرف: (77)

وقوله تعالى: « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ » النساء: (56)

وللناس في هذه المسألة ثمانية أقوال، نقلها شارح الطحاوية[129] عن ابن القيم بلفظه، لأنه كان يَنْقُل كَلامَ ابنِ تَيْمِيةَ وتِلْمِيذِه ابْنِ القيم كثيرا، لكن يَسْتَعمِلُ لَفظَه وأُسلُوبَه في ذلك بدون عَزوٍ، وهذه الأقوال هي:

أحدها: أن من دخل النار لا يَخْرُجُ منها أبدا، وهذا قول الخوارج والمعتزلة كما تقدم.

الثاني: أن أهلَها يُعَذَّبون فيها إلى وقت محدود ثم يُخرَجُونَ مِنها ويَخْلُفُهُم فيها قَومٌ آخَرون كما زعمه اليهود بقولهم: « لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً » البقرة: (80)

---

[128] – أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ ﴾ مريم: (39) برقم: (4730) ومسلم في كتاب صفة الجنة، باب النار يدخلها الجبارون: (2849)

[129] – انظر: (شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي) ص: (427)

الثالث: أن أهلها يُعَذَّبُون فيها ثم تَنْقَلِبُ طَبِيعَتُهم، وتَبقَى طبيعة النارية يَلْتَذُّون بها لِمُوافقتها لِطَبعِهم، وهذا قول إمام الاتِّحَادِيَّةِ ابن عربي الْحَاتمي صاحب الأُعْجُوبَاتِ وَالأُضْحُوكَاتِ.

الرابع: أنهم يَخْرُجُونَ منها وتَبْقَى كما هي ليس فيها أحد.

الخامس: أنها تَفنى بنفسها لأنها حادثة، وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه، وهذا قول إمام الإلحادية جهم بن صَفْوَانَ.

السادس: أن أهلها يصيرون جَمَادًا حيث تفنى حركاتهم بالكليات، وهذا قول أبي الْهُذَيْلِ الْعَلَّافِ زَعِيم المعتزلة.

السابع: أن الله تعالى يُخْرِجُ منها من يشاء ثم يُبْقِيهَا شيئا ثم يُفْنِيهَا، فإنه جعل لها عمدا تنتهي إليه، وهذا مروي عن عمر بن الخطاب، وأبي هريرة، وابن مسعود، وأبي سعيد، ونُسِبَهُ إلى تقي الدين ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، والظاهر من كلامهما القول بعدم فنائها كما هو مُقَرَّرٌ في عِدَّةِ مَوَاضِعَ من تصانيفهما.

الثامن: أنها لا تفنى، لَكِنَّه سبحانه وتعالى يُخْرِجُ منها من عِبادِه العُصَّاةِ الْمُوَحِّدِين ويبقى فيها من عداهم من الكفار والمشركين كما تواترت بذلك الأدلة الخبرية، وقد تقدم لك ذِكْرُها آنِفًا، وهذا هو الصحيح المختار الذي عليه جماهير الصحابة والتابعين وتابعيهم، والأئمة الفقهاء، والعلماء العاملين، وإن قُلْتَ بإجماعهم على ذلك فلا حرج عليك، لأن ما روي عن عمر وغيره من الصحابة بفناء النار لا يُعْلَمُ صِحَّتُه،

وأما ما سوى ذلك من بقية الأقوال المذكورة فهو باطل مردود على قائله مخالف لظواهر النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، والله تعالى أعلم.

إِثْبَاتُ صِفَةِ الْمَجِيءِ يومَ الْقِيامَةِ

وقوله: « وَأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْمَلَك صَفًّا صَفًّا لِعَرْضِ الْأُمَمِ وَحِسَابِهَا وَعُقُوبَتِهَا وَثَوَابِهَا » يعني أنه مما يجب على المكلف اعتقاده أن الله تبارك وتعالى يجيء يوم القيامة حقيقة لفصل القضاء بين عباده، ويجيء أيضا ملائكة كل سماء صفا صفا فيُحِيطون بمن دونهم من الخلق خضوعا وتذللا للمولى واحد القهار، فيُحاسِب اللهُ الناسَ على ما عملوا من خير فَيُثِيبُ فَاعِلَه أو من شر فَيُعَاقِب فاعله، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين.

وقيل: المراد بمجيئه مجيء أمره وقضاؤه، وهو منسوب إلى الحسن البصري، وقال الضالون من أهل الإشارة: أي تَظْهَرُ قُدْرَتُه وتَسْتَولَى، لأن الله لا يُوصَف بالتَّحَوُّلِ من مكان إلى مكان، وأنى له التحول والانتقال ولا مكان له، ولا أوان، ولا يجري عليه وقت، ولا زمان، وهذا فاسد باطل مردود مخالف لظواهر النصوص الشرعية، كقوله تعالى: « كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » الفجر: « 22 »

وقوله تعالى: « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ وَالمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ » البقرة: (210)

وأخرج ابن مَرْدُوَيْه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « يَجْمَعُ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ قِيَامًا شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ يَنْتَظِرُونَ فَصْلَ الْقَضَاءِ، وَيَنْزِلُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الْكُرِسِيِّ »

وهذه النصوص دالة على ثبوت صفة الْمَجِيء لله تبارك وتعالى يوم القيامة، وهو على وجه لائق بجلال الله تعالى وكماله، والكلام فيه نفس الكلام في الاستواء، وبالله التوفيق.

الْإِيمَانُ بِالْمِيزَانِ

وقوله: «وَتُوضَعُ الْمَوَازِينُ لِوَزْنِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» الموازين جمع مِيزان، وهو ما يُوزَن به الأشياء لِيُعْلَمَ ثِقلُها وقَدرُها، والمعنى أنه مما يجب على المكلف اعتقاده أن الله تعالى يضع يوم القيامة الموازين لوزن أعمال العباد، وأن من ثقلت موازينه بحيث رجحت أَعْمالُه الصَّالِحَاتُ أَعْمَالَه السَّيِّئَاتُ فهو من عِدَاد الْمُفلحين الناجين، وعكسه العكس، قال العلماء: الظاهر أن وزن الأعمال يكون بعد المحاسبة، لأن الْمُحَاسَبَةَ تكون لتقرير الأعمال، والوزن يكون لإظهار مقاديرها ليكون الحساب بحسبها، والله أعلم.

والإيمان بالميزان واجب حيث لا يصح إيمان المرء إلا بذلك، وقد دلت النصوص الشرعية على إثباته، منها قوله تعالى: « وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » الأنبياء: (47)

وقال تعالى: « فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ » المؤمنون: (102 . 103)

وقال تعالى: « فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَة» القارعة: (6 . 8)

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: « كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ »[130]

وللميزان كِفَّتَانِ حِسِّيَتَانِ كما دلت على ذلك السنة الصحيحة، وروى الترمذي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: « إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ قَالَ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ

---

130 – أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ ﴾ الأنبياء: (47) برقم: (7563)

هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ »[131]

والحاصل أنه لا يصير الإنسان مسلما حتى يؤمن بالميزان، وقد شَذَّتِ الطائفة من المعتزلة كَعَادَتِهِمُ الفاسدة من تكذيب كل ما لم يُوافِق عُقُولَهم السَّاخِفَةَ، فقالوا: الأعمال أعراض لا تقبل الوزن، وإنما يقبل الوزن الأجسام، وهذا جهل منهم، وبالله التوفيق.

الْإِيمَانُ بِإِيتَاءِ الصَّحَائِفِ

قوله: « وَيُؤْتُونَ صَحَائِفَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَأُولَئِكَ يَصْلَوْنَ سَعِيرًا »

وقوله: « صَحَائِفَهُمْ » بفتح الصاد جمع صحيفة بفتحها وكسر الحاء، وهي ما يُكْتَبُ فِيه من الأوراق وغيرها، وأصل الكلمة الانبساط في شيء وسعة.

وقوله: « يَصْلَوْنَ » بفتح الياء وسكون الصاد وفتح اللام وسكون الواو مأخوذ من قولهم صَلَيْتَ العُودَ بالنار إذا أَدْخَلْتَه النَّارَ وجَعَلتَه يَصْلَاها، وصَلَيْتَ اللَّحْمَ إذا شَوَيْتَهُ، والشاةُ مَصْلِيَّةٌ أَي مَشْوِيةٌ.

---

131 – أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله: (2639)

وقوله: « سَعِيرًا » بفتح السين وكسر العين مشتق من السَّعر بالفتح، وهو اشتعال الشيء، سَعَرْتَ النارَ أي اشْتَعلتَها أي تَوَقَّدْتَها، والمعنى يُحْمَوْنَ بنار مُشتَعِلَة، والله أعلم.

والمعنى أن مما يجب على المكلف اعتقاده أن الناس يُؤْتَوْنَ الصَّحَائِفَ المكتوبة فيها أعمالهم، فمن أوتي كتابه وأخذه بيده اليمنى فقد فاز ونجا، وأما من أُوتِيَ كِتابَه فأخذه بيده اليسرى فقد خاب وخسر ووجبت عليه نَارٌ سَعِيرٌ، وهذا مما لا طاقة فيه للبشر ولا هو باختيار منه، بل هو بموافقة الله له على ذلك، وعُبِّرَ عن النَّجاة باليمين لكون اليمين من دلائل الخير والفرح والسرور عند العرب، وبالشمال لكونه عكس ذلك. وقد وردت النصوص في إثبات إِيتَاءِ الصحائف، منها

قوله تعالى: « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُّ اقْرَءُوا كِتَابِيَه * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَه ـ إلى قوله: ـ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَه * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَه * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَه » الحاقة: (19 ـ 27)

وفي حديث عبد الله بن عمرو الْمُتَقَدِّم: « إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ » الحديث، وبالله التوفيق.

الْإِيمَانُ بِالصِّرَاطِ

قوله: « وَأَنَّ الصِّرَاطَ حَقٌّ يَجُوزُهُ الْعِبَادُ بِقَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَنَاجُونَ مُتَفَاوِتُونَ فِي سُرْعَةِ النَّجَاةِ عَلَيْهِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَقَوْمٌ أَوْبَقَتْهُمْ فِيهَا أَعْمَالُهُمْ »

وقوله: « الصِّرَاطَ » بكسر الصاد وبالسين، وهما لغتان مشهورتان، وهو في الأصل الطريق الواضح، والمراد به هنا جِسر مَعروض فوق جهنم يُمَرُّ عليه إلى الجنة.

وقوله: « فَنَاجُونَ مُتَفَاوِتُونَ فِي سُرْعَةِ النَّجَاةِ عَلَيْهِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ » أي ومن الناس من ينجو حيث يَعْبُرُهُ سالما، وهم أيضا متفاوتون في سرعة النجاة من النار بِعُبُورِه، بِقَدر أعمالهم الصالحات، والله أعلم.

وقوله: « أَوْبَقَتْهُم » أي أهلكتهم، وهو مشتق من الْوَبقِ بالفتح، وهو الهلاك، يقال أوبقه الله إذا أهلكه، والله تعالى أعلم.

والإيمان بالصراط مما يلزم كُلَّ مُسلمٍ، وقد تظاهرت النصوص الشرعية على إثبات الصراط، قال تعالى: « وَإِنْ مِنْكُم إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا » مريم: (71 . 72)

وقد اختلف السلف في معنى الْوُرُودِ المذكور في الآية فالجمهور على أنه المرور على الصراط، وهو الصحيح، وبه قال ابن مَسعودٍ، وابنُ عَبَّاس، والْحَسَنُ، والسُّدِّيُّ، وعن ابن عباس أيضا: الدخول في النار، أي وما منكم أحد إلا داخل جهنم أمرا قضاه الله لا بد من وقوعه ولا محالة، لكن ينجو الذين اتقوا بالخروج وعدم الإضرار بحرارتها

حيث تكون لهم بَرْدًا وسَلَامًا كما كانت لإبراهيم عليه السلام، وقد أشار النبي ﷺ إلى ما ذهب إليه الجمهور فيما أخرجه مسلم في الفضائل عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وفيه أَنَّ أُمَّ مُبَشِّرٍ سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: « لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ، الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا، قَالَتْ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، فَانْتَهَرَهَا فَقَالَتْ حَفْصَةُ: "وَإِنْ مِنْكُم إِلَّا وَارِدُهَا" فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: قَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: "ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا" »[132]

فأشار إلى أن الْمُراد بالْمُرور الْمَذكور الْمُرور على الصراط، ومما يؤيد ذلك أيضا أَنَّ الْوُرُودَ في الأصل الوُصُول إلى الماء للاستسقاء، ويُطلق على الوصول مطلقا مجازا شائعا، وأما إطلاقه على الدخول فليس معروفا عند العرب، والله أعلم.

ومما يدل على إثبات الصراط من السنة ما أخرجه البخاري في الأذان من طريق سعيد بْنِ الْمُسَيِّبِ، وعَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ الْلَّيْثِي، عن أبي هريرة من حديثه الطويل، وفيه: «فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ»[133] الحديث

وقد كَذَّبَ الخوارج والمعتزلة بالصراط كَعَادَتهم في تكذيب المعلوم من الدين بالضرورة بِنَاءً عَلى أصلِهم الفَاسِدِ، نعوذ بالله من الجهل واتباع الهوى، ونسأله تعالى أَنْ يَجْعَلَنَا من ضِمْنِ الذين يَمُرُّون على الصراط بِسُرعَةٍ، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

---

132 – أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة: (2496)

133 – أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب فضل السجود: (806)

الْإِيمَانُ بِحَوْضِ النَّبِيِّ ﷺ

قوله: « وَالْإِيمَانُ بِحَوْضِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَرِدُهُ أُمَّتُهُ لَا يَظْمَأُ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ، وَيُذَادُ عَنْهُ مَنْ بَدَّلَ وَغَيَّرَ »

وقوله: « الْحَوْضُ » بفتح الحاء وسكون الواو، وهو مُجْتَمَعُ الماء المعروف، يقال: حاض الْمَاءُ إذا اجتمع، وحَوَّض الماءَ أي حاطه وجمعه، واستحوض الماء أي اتخذ حوضا لنفسه، ويجمع على حِيَاض بكسر الحاء، وأَحْوَاض على وزن أفعال، ومنه حديث أم إسماعيل: « لَمَّا ظَهَرَ لَهَا مَاءُ زَمزَمُ جَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ » أي تجعل له حوضا يجتمع فيه الماء، وحوض النبي ﷺ نَهْرٌ عظيم يُمَدُّ مِن شَرَابِ الجنة، وماؤه أشد بياضا من اللبن وأبرد من الثلج، وأحلى من العَسل، وأطيب ريحا من المِسك، وعدد آنيته التي يُشْرَب بها كعدد نجوم السماء، يسير الراكب من أوله إلى آخره مَسِيرَة شهر، لا يظمأ من شربه أبدا، يَرِدُ عليه أُمَّتُه ﷺ يوم القيامة فَيُطْرَدُ عنه مَنْ بَدَّل ما جاء به النبي ﷺ بحيث تبع غير طريقه، وكل ذلك ثابت بالسنة الصحيحة.

وقوله: « لَا يَظْمَأُ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ » بفتح الياء وسكون الظاء وفتح الميم من الظَّمأ، وهو العطش، وأصله قلة الماء وذُبُول، فَاشْتُقَّ من ذلك، لأن العطش يكون في الغالب لقلة الماء، والله أعلم.

وقوله: « وَيُذَادُ عَنْهُ مَنْ بَدَّلَ وَغَيَّرَ » بضم الياء وفتح الذال مبني للمجهول، وهو من الذَّود بفتح الذال وسكون الواو، وهو تَنْحِيَةُ الشيء عن الشيء أي إزالته، والمراد أي يُطْرَدُ عن الحوض من بدل دينه وغيره بمخالفة سنة النبي ﷺ، والله أعلم.

والإيمان بالحوض مما يجب على المسلم، وقد دل على إثباته النصوص الشرعية حتى بَلَغَتْ حَدَّ التواتر، قال تعالى: « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ » الكوثر: (1) والكوثر على وزن فَوْعَلَ مِنَ الْكَثْرَةِ، والواو فيه زائدة، والجمع كَوَاثِرُ، والكوثر الخير الكثير، وفَسَّرَه بعض المفسرين بالقرآن والنبوة، وفَسَّرَه النبي ﷺ بما تقدم لك من ذِكْرِ حوضه، وهو أعلم الناس بمعنى ما نُزِّلَ إليه، وروى مسلم من حديث أنس رضي الله عنه، وفيه: « "أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ، فَقَرَأَ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. "إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ" ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟ فَقُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُخْتَلَجُ[134] الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ »[135]

ومن الأدلة على إثبات الحوض ما أخرجه مسلم عن سَهلِ بن سَعدٍ السَّاعِدي رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: « أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، مَنْ وَرَدَ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ »[136]

---

134 – قوله: (فيختلج) بضم ياء المضارع وفتح التاء واللام من الاخْتِلَاجِ، وهو جذب الشيء، أي يُجْذَبون ويُطْرَدُون عن الوصول إلى الحوض.

135 – أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب حُجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة: (400)

136 – أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ: (2290)

وقد جَنَح المعتزلة والخوارج الضَّالُّون إلى تَكْذِيب الحوض كَعَادتهم الشَّنِيعة في تكذيب مُعْظَمِ أُصولِ الدين بِنَاءً على أصلهم الفاسد، فَنَقُول: مَنْ كَذَّبَ بالحوض على عِلْمٍ مَنَعَهُ اللهُ الْوُرُودَ إليه، وَجَعلَه مِنَ الَّذِين يُطْرَدُونَ عَنهُ، وبالله التوفيق.

الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ

قوله: « وَأَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ وَإِخْلَاصٌ بِالْقَلْبِ وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ، يَزِيدُ بِزِيَادَةِ الْأَعْمَالِ وَيَنْقُصُ بِنَقْصِهَا فَيَكُونُ فِيهَا النَّقْصُ وَبِهَا الزِّيَادَةُ » وقد تقدم لك الْكَلام الوافي عن الإيمان، وبقي هناك الكلام عن زيادته ونُقصانه، وهذا مَوْضِعُ البيانِ عن ذلك، فنقول وبالله التَّوْفِيق وعليه التُّكْلَانُ.

ومذهب أهل السنة والجماعة سلفا وخلفا أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، يزيد وينقص، يزيد بالإخلاص والأعمال الصالحات من تتبع محاب الله تعالى ومراضيه، وينقص بالأعمال السيئات من ارتكاب المعاصي والمنهيات، وهو مذهب الثوري، وابن أبي ذئب، والأوزاعي، واللَّيْث بن سعد، ومالك، وابن جُرَيْجٍ، وابن الْمُبارك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، ومَعْمَرِ بن راشد، وابن الْمُثَنَّى، وأبي ثَوْرٍ إبراهيم بن خالد الكلبي، وخلق سواهم، وجزم الشافعي بإجماع السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن لَقِيهم على ذلك، وذكر البخاري صاحب الصحيح أنه لقي أكثر من أَلْفِ رَجُلٍ مِن العلماء بالأمصار، ولم ير أحدا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

ولم يخالف في ذلك أَهلُ البِدَعِ والأهواء من الْمُرْجِئة وَمُوَافِقِيهم، فأخرجوا العَمَلَ مِنَ الإيمان، وقد تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة على تأكيد ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، منها قوله تعالى: « إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » الأنفال: (2)

ومنها قوله تعالى: « وَلَمَّا رَأَى المُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا » الأحزاب: (22)

ومنها قوله تعالى: « وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » التوبة: (124)

ومنها قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ» الفتح: (4)

ومنها قوله تعالى: « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُم فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ » آل عمران: (173)

ومِنَ السُّنَّةِ ما أخرجه الشيخانِ عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[137]

[137] – أخرجه البخاري في كتاب المظالم والغصب، باب النُّهْبَى بغير إذن صاحبه: (2475) ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي: (57)

فَنَفْيُ كَمَال الإيمان الواجب بِفِعل أحد هذه الكبائر المذكورات: الزنا، أو شرب الخمر، أو السرقة دليل على نقص إيمان فَاعِلِها بها، لأن الاسم لا يَنْتَفِي إلا بانتفاء بعض أركان الْمُسَمَّى أو وَاجِبَاتِه.

ومِنْ ذلك حديث أبي سعيد الْخُدرِي الطويل الذي في الصحيحين، وفيه: «يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: أَخْرِجُوا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنَ الْإِيمَانِ»[138]

فدَلَّ الحديثُ على أن هذا أَضْعَف الْمُؤْمِنِينَ إِيمانا، فَلَو كان الإيمان لا يزيد ولا ينقص لم يكن في قوله: « مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنَ الْإِيمَانِ » فائدة.

ومن ذلك ما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[139]

فدل ذلك على أن الإيمان يزيد بالأعمال الصالحات وينقص بِعَكسِها، لِأَنَّ النهي عن المنكر من الأعمال الصالحات وترك النهي عن المنكر من الأعمال السيئات، وهو مقتضى ظاهر الحديث، وهذا غَيْضٌ مِنَ الْفَيْضِ من النصوص الشرعية الدالة على زيادة الإيمان ونُقْصانه، وهناك أدلة كثيرة جدا لا يسعنا المحل استقصاءها، والحاصل

---

[138] – أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال: (22) ومسلم في كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة: (183)

[139] – أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان: (49)

أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، ولا ينكر ذلك إلا معند مرتاب كذاب لتواتر الأدلة الشرعية على ذلك، وبالله التوفيق.

وُجُوبُ مُتَابَعَةِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

قوله: « وَلَا يَكْمُلُ قَوْلُ الْإِيمَانِ إِلَّا بِالْعَمَلِ، وَلَا قَوْلٌ وَعَمَلٌ إِلَّا بِنِيَّةٍ، وَلَا قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ إِلَّا بِمُوَافَقَةِ السُّنَّةِ » يعني أَنَّ مجرد التَّلَفُّظ بالشهادتين لا يكفي في الإيمان حيث يكون المرء مؤمنا كَامِلَ الإيمان، بل لا بد من العمل كما تقدم الحديث عن ذلك آنفا، ثم إن القول والعمل لا يَكْفِيَانِ في ذلك أيضا حتى يضاف إليهما النية وهي الإخلاص، ثم إن كُلًّا مِنَ القول والعمل وإخلاص النية لا يكفي في ذلك إلا بموافقة السنة النبوية بأن يكون هذا العمل مُوافقا لما دل عليه الكتاب والسنة الصحيحة وَفْق فَهمِ سلف الأمة، والحاصل أن المسلم لا يصير مؤمنا حقيقيا إلا بالإكثار من الطاعة وتَتَبُّعِ محاب الله تعالى ومراضيه مع إخلاص النية في ذلك كله واتباع سنته صلوات الله وسلامه عليه وفق فهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، فمتى فقد المسلم واحدا من هذه الأشياء الثلاثة لم يكن مؤمنا كامل الإيمان، وقد وردت الأدلة الشرعية على وجوب مُتابعة النبي ﷺ في كل ما جاء به من الهدى وموافقة ما تقتضيه سنته ﷺ في كل عمل من أعمال الطاعات، قال تعالى: « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » النساء: (65) وقال تعالى: « قُلْ إِنْ كُنْتُم تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » آل عمران: (31)

وقال أيضا: « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ » النساء: (59) وقوله: « إِلَى اللهِ » أي إلى كتاب الله، وهو القرآن، وقوله: « والرسول » أي سنته ﷺ.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ »[140]

ومِنْ ذَلك ما روى أبو داود عن أبي نَجِيحٍ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالسَّمْعِ، وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[141]

وأمثال هذه النصوص كثيرة جِدًّا وليس المراد ذِكْرها كُلها، وإنما الْمُراد ذكر ما يُؤَيِّدُ الْمسألة التي نُدَنْدِنُ حَولَها منها، فنسأل اللهَ تبارك وتعالى أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بالاتباع ويُجَنِّبَنَا الابتداع، إنه مِنْ وَرَاءِ القَصدِ وهو يهدي السبيل، وبالله التوفيق.

---

[140] – أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ: (7288) ومسلم في كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر: (1337)

[141] – أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب في لزوم السنة: (4607)

الْمُسْلِمُ لَا يَكْفُرُ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَكُنْ شِرْكًا

قوله: « وَأَنَّهُ لَا يَكْفُرُ أَحَدٌ بِذَنْبٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ » يعني أن عقيدة أهل السنة والجماعة عدم تكفير المسلم بذنب ارتكبه ما لم يكن شركا، والكفر بضم الكاف وسكون الفاء، وهو في الأصل الستر والتَّغطِية، وفي الشرع عدم الإيمان بما جاء به النبي ﷺ من الهدى، سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب، وسواء آمَنَ ببعض ما جاء به أو لم يُؤْمِنْ بشيء من ذلك، أو آمن بجميع ما جاء به وترك الإيمان بشيء من ذلك، ونقيضه الإيمان، وتقدم الكلام المستوفى عنه.

ثم إن الكفر نوعان: كُفْرٌ أَكْبَرُ، وَكُفْرٌ أَصْغَرُ، فالكفر الأكبر هو الذي يُخْرِجُ صَاحِبَه من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر، وهو خمسة أنواع:

أحدها: كفر الإبَاءِ والاستكبار: وهو عدم الانقياد لما جاء به الشارع من الحق مع العلم بأنه حق استكبارا وعنادا كَكُفر إبليس عليه لعنة الله، قال تعالى: « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ » البقرة: (34)

الثاني: كفر التكذيب: وهو تكذيب الرُّسُلِ فيما جاءوا به من الحق، سواء كان التكذيب ظاهرا أو باطنا، إلا أن مَنْ كَذَّب باطنا وأظهر الإسلام ظاهرا أُجْرِيَ عليه أحكامُ المسلمين في الدنيا، ويُوَكَّل سريرته إلى الله تعالى، فإنه يَفْضَحُهُ يوم القيامة على رءوس الأَشْهَاد، قال تعالى: « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ » العنكبوت: (68)

الثالث: كُفر النِّفَاقِ: وهو إظهار الإيمان ظاهرا واعتقاد الكفر باطنا، قال تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ» المنافقون: (3)

أي أظهروا الإسلام في ظاهرهم وأبطنوا الكفر باطنا، وليس المراد أنهم أمنوا أول مرة ثم ارتدوا عن الإسلام ظاهرا، والسياق يَأْبَى ذلك كما يظهر ذلك لمن تتبع السورة، والله أعلم.

الرابع: كفر الإعراض: وهو الإعراض عن دين الله تعالى بالكلية، قال تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ» الأحقاف: (3)

الخامس: كفر الشك: وهو التَّرَدُّدُ وعَدمُ الْجَزم بصدق الرُّسُل فيما جاءوا به من الحق، قال تعالى: « وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا » الكهف: (35 . 37)

فَتَرَدَّدَ في قِيام الساعة مع كونه يَدَّعِي الإيمان بالله، ومع ذلك أَطْلَق عليه مُحَاوِرُه اسْمَ الْكُفرِ، فاقتضى ذلك أن الشكَّ والتردُّدَ في شيء من أصول الدين كفر، والله أعلم.

وأما الكفر الأصغر فهو الكفر دون الكفر، وهو كل ما أُطْلِقَ عليه اسْمُ الْكُفرِ مما لا يُخْرِجُ فَاعِلَهُ من الإسلام من الذنوب والمعاصي، كَالطَّعْنِ في الْأَنْسَاب، والنِّيَاحَة عنِ الْمَيِّتِ، وقِتَالِ المسلم، ونحو ذلك، والله أعلم.

وهذا هو الكفر، ومذهب أهل السنة والجماعة عدم تكفير أهل الكبائر من المسلمين إلا مَنْ ثبت كُفرُه في القرآن أو السنة الصحيحة، وقد انقسم الناس في هذه المسألة إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أهل الغُلوِّ والتَّنَطُّعِ: وهم الذين يُبَالِغون في تكفير المسلمين ويَسْتَحِلُّون دِماءَهم لِسُوء فَهْمِهم وَفَرْطِ جَهْلِهم بالنصوص الشرعية القاضية بالتكفير وعكسه، وهذا أكثر وقوعا من الخوارج ومَنْ في معناهم.

الثاني: أَهلُ التَّنَازُلِ وَالْمُدَاهَنَةِ، وهم الذين يتساهلون في تكفير مَنْ ثَبَتَ كُفرُه بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين كاليهود، والنصارى، ومن في معناهم، وهذا أكثر وقوعا من الذين يفضلون الثّقَافَةَ الْحَدِيثِية مِمَن يُخَالِطون الكُفار ويُظْهِرُونَ لَهُم الْمَوَدَّةَ وَالرَّحمةَ مما لا يُظْهِرُونَهُ لإخواهم المسلمين.

الثالث: الْمُتَوَسِّطُون بَيْنَ الْغُلُوِّ والتَّفْرِيطِ، وهم أهل السنة والجماعة الذين لا يَحْكُمُون بِتَكْفِير أَحَدٍ مِنَ المسلمين إلا مَنِ اتَّضحَ كُفرُه في الكتاب أو السنة الصحيحة، وهذا هو المذهب الصحيح الذي عليه سلف الأمة قَاطِبَةً من الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم، وما عَدَاه باطل مَرْدُود مُخالف للكتاب والسنة الصحيحة، وليس لقائله سلف من المذكورين، وكل ما وَرَدَ من النصوص الدالة على كفر مُرْتَكِبِ كَبِيرَةٍ من الكبائر التي لا تُخْرِجُ صَاحِبَها عَنِ الْمِلَّةِ فهو مَحْمُول على الكفر دون الكفر الذي

لا يُخْرِجُ فَاعِلَه عن الإسلام، كقوله ﷺ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»[142]
وقوله: «اثْنَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»[143]
وقوله: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[144]
وقوله: « سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ »[145] وجميع هذه النصوص وأمثالها من النصوص التي مُقْتَضَى ظاهرها كفر أصحاب الذنوب والمعاصي التي لم تَكُن مَعَاصِيتُهم شِركًا ولا استحلال الحرام أو العكس، فهي محمولة على ما ذكرنا لك آنفا، ومسألة التكفير مَسْألةٌ خَطِيرَةٌ جدا، وقد أكثر العلماء مِنْ إفرَادِها بِالتَّصَانِيفِ لَاسِيَمَا الْمُعَاصِرُون الذين يَعِيشُون في وَقْتِنَا هذا الَّذِي كان التَّكْفِيرُ فيه ضَارِبا أَطنابه في المجتمع الإسلامي، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الذين يَتَّبِعُون مُقتضى كِتابه وسنة رسوله وفق فهم سلف الأمة، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

---

[142] – أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب الإنصات للعلماء: (121) ومسلم في كتاب الإيمان، باب لا ترجعوا بعدي كفارا: (65)

[143] – أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب: (67)

[144] – أخرجه البخاري في كتاب المظالم والغصب، باب النُهْبَى بغير إذن صاحبه: (2475) ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي: (57)

[145] – أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر: (48)

الْإِيمَانُ بِأَنَّ الشُّهَدَاءَ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ

وقوله: « وَأَنَّ الشُّهَدَاءَ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، وَأَرْوَاحَ أَهْلِ السَّعَادَةِ بَاقِيَةٌ نَاعِمَةٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، وَأَرْوَاحَ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ مُعَذَّبَةٌ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ » الشهداء جمع شَهِيدٍ، وهو مَنْ قُتِلَ في سبيل الله تعالى مُؤمِنا، أو مات بالطَّاعُون، أو بِدَاءِ الْبَطْنِ، أو بِالْغَرَقِ في الماء، أو بِالْهَدمِ، لَكِنْ مَنْ قُتِلَ في سبيل الله هو أول من يدخل في مسمى الشهيد ، إذ أنه هو الأصل.

ولفظ: (الشقاوة) بفتح الشين مشتق من الشَّقوِ بفتحها، وهو الْمُعَانَاةُ والْمَشَقَّة، وسمي الشَّقِي شقيا لأنه يَشُقُّ بِعَدمِ الْفَلَاحِ والنَّجاةِ. ولفظ: (السعادة) على وزن الشقاوة، وهو من السَّعدِ بفتح السين وسكون العين، وهو الخير والسرور، وسمي السعيد سعيدا لكونه يَتَبَجَّحُ بِنَجَاتِه وَفَلَاحِه، والله أعلم.

ويَجِب على الْمُكَلَّف أن يعتقد أن الشهداء يُرْزَقُونَ عند ربهم إلى قيام الساعة وليسوا بِأمواتٍ عِنْدَ رَبِّهِم كما قال تعالى: « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » آل عمران: (169 ـ 170)

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمِ الرَّازِيُّ فِي تفسيره عن عبد الله رضي الله عنه، أنه سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ هذه الآية فقال: « أَنَّ الْأَرْوَاحَ جُعِلَتْ فِي طَيْرٍ خُضْرٍ تَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ

بِالْعَرْشِ، فَتَسْرَحُ فِي أَيِّ جَنَّةٍ شَاءَتْ، قَالَ: فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّكَ اطِّلَاعَةً فَقَالَ: هَلْ تَسْتَزِيدُونَ فَأَزِيدُكُمْ؟ قَالُوا: أَلَسْنَا نَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا »[146] الحديث.

وكذا يَجِب اعتقاد أَنَّ أَرْواحَ السُّعَدَاءِ مُنَعَّمَةٌ إلى قِيام الساعة بِخِلاف أرواح الأَشْقِيَاءِ، فإنها مُعَذَّبَةٌ إلى قِيام الساعة، وسيأتي الكلام عن إثبات عذاب القبر ونعيمه إن شاء الله تعالى من غير بَعِيدٍ، فنسأل الله تعالى أَنْ يَجْعَلَنا مِن السُّعداءِ الذين يُرْزَقُون عِند رَبِّهم، وبالله التوفيق.

146 – أخرجه ابْنُ أبي حاتم الرَّازِيُّ في تفسيره رقم: (4539) وَرُوِيَ من طرق صحيحة بغير هذا اللفظ، ومعناه في صحيح مسلم، والله تعالى أعلم.

إِثْبَاتُ عَذَابِ الْقَبْرِ وَسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ

قوله: « وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ وَيُسْأَلُونَ، يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ » يعني أن المؤمنين يُفْتَنون في قُبورهم بِسؤال مُنكر ونكير، لكن الله يُثَبِّتُ الذين آمنون بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وهو: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ) وهذه الكلمة الجليلة هي القول الثابت الذي ذكر الله تعالى في قوله: « يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ » إبراهيم: (27)

والآية نزلت في عذاب القبر، كما روى مسلم من طريق شُعبَةَ عن البَرَّاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « "يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ" قَالَ: نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ »[147]

ويجب على المسلم أن يعتقد في قلبه أن سُؤال القبر وعذابه حق، وأن عذاب القبر يكون للنفس والبَدَنِ، وهو من الأمور الغَيْبِيَّةِ، وقد تظاهرت النصوص الشرعية على إثبات سؤال القبر، وعذابه، ونَعِيمه، ومنها على سبيل المثال قوله تعالى: « فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَونَ سُوءَ العَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَونَ أَشَدَّ العَذَابِ » غافر: (45 ـ 46)

---

147 – أخرجه مسلم في كتاب الجنة، باب عَرض مَقعَد الميت من الجنة أو النار عليه: (2871)

ووجه دلالة الآية على عذاب القبل قوله: « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » لأن هذا العَذابَ الْمَذكُورَ يكون فِي الْبَرْزَخِ بِدَلِيلِ قَولِه تعالى: « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ » فَفُهِمَ مِنَ الآية أن عذاب الأول يكون في الْبَرْزَخِ، والثاني يكون بعد قيام الساعة، والله أعلم.

ومن ذلك قوله تعالى: « مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا » نوح: (25) والفاء في قوله: (فَأُدْخِلُوا نَارًا) للترتيب، فاقتضى ذلك أن دخولهم النار مُباشرة بعد الإغراق.

وأما الدليل من السنة فمن ذلك ما أخرجه الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى قَبْرَيْنِ فَقَالَ: إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَنْزِهُ مِنْ بَوْلِهِ »[148] الحديث.

ومن ذلك أيضا ما روى مسلم عن أنس رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: « لَوْلَا أَلَّا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ »[149]

وروى أيضا من طريق يحي بن سَعِيدٍ الْقَطَّانِ عن أبي أَيُّوبَ رضي الله عنه قال: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ مَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ فَسَمِعَ صَوْتًا فَقَالَ: يَهُودُ تُعَذَّبُ فِي قُبُورِهَا»[150]

---

148 – أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب الجريد على القبر: (1361) ومسلم في كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول: (292) واللفظ له.

149 – أخرجه مسلم في كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه: (2868)

150 – أخرجه مسلم في المصدر السابق: (2869)

وأما ما يدل على إثبات سؤال القبر، فمن ذلك ما روى مسلم عن زيد بن ثَابِتٍ عن النبي ﷺ قال: « إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا »[151] وَفِي رِوَايَةٍ: «تُسْأَلُ»

فنسأل الله تعالى أن يُثَبِّتَنَا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وبالله التَّوْفِيق وعليه التُّكْلَان.

[151] – أخرجه مسلم في كتاب الجنة، باب عَرْضِ مَقْعَدِ الْمَيِّتِ من الجنة أو النار عليه: (2867)

الْإِيمَانُ بِالْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلِينَ بِحِفْظِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ وَأَقْوَالِهِمْ

قوله: « وَأَنَّ عَلَى الْعِبَادِ حَفَظَةٌ يَكْتُبُونَ أَعْمَالَهُمْ، وَلَا يَسْقُطُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَنْ عِلْمِ رَبِّهِمْ » يعني مما يجب على المكلف اعتقاده أن هناك ملائكة كراما كاتبين وَكَّلَهُم بحفظ أعمال العباد، وأقوالهم، وكتابتها، مع أن ما يفعله العباد لا يخفى على الله تعالى، بل، هو أعلم بأحوال العباد ولا يَحتاج إلى أَنْ يُخْبَرَهُ عن ذلك، وإنما وَكَّلَهُمْ بذلك إِلْزَامًا لِلْحُجَّةِ.

قال تعالى: « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ » الانفطار: (12 . 10)

وقال تعالى: « إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » ق: (17 . 18)

وهُمَا مَلَكَانِ وَكَّلَهُمُ اللهُ تعالى بِكُلِّ إِنْسانٍ أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، فلا يَلْفِظُ بقول إلا كَانَا حَاضِرَيْنِ لَدَيْهِ، والله أعلم.

وروى مسلم وأحمد عن عبد الله قال: قَال رَسُولُ اللهِ ﷺ: « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: وَإِيَّايَ، لَكِنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ »[152] والأدلة على إثبات الْحَفَظَةِ على العِباد كَثِيرَةٌ جِدًّا لَا يَسَعُنَا الْمَحَلُّ ذِكْرَهَا، وبالله التوفيق.

---

152 – أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس: (2814)

الْإِيمَانُ بِالْمَلَكِ الْمُوَكَّلِ بِقَبْضِ الْأَرْوَاحِ بِإِذْنِ اللهِ

وقوله: « وَأَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ يَقْبِضُ الْأَرْوَاحَ بِإِذْنِ رَبِّهِ » يعني مما يجب على المكلف اعتقاده أن ملك الموت يتولى قبض أرواح العباد واستخراجها بإذن ربه كما قال تعالى: « قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ المَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ » السجدة: (11) وظاهر هذه الآية مُعارض لظاهر قوله تعالى: « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ » الأنعام: (61)

وقوله تعالى: « اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلَ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّى » الزمر: (42)

فذكر في آية السجدة أن الذي يَتَولَّى قَبْضَ الأرواح ملك الموت، وفي الأنعام عدد من الملائكة غير مُعَيَّن، وفي الزُّمَرِ أَضَاف التَّوَفِّيَ إِلَى نَفسه تعالى، قلت: ولله الحمد لا تعارض بين كل من هذه الآيات، ففي سورة السجدة يُخْبِرُ اللهُ تعالى بأن مَلَكَ الموت هو الْمُوَكَّل بِقَبض الأرواح، غير أن ذلك لا يستلزم أن يكون هو الذي يقوم بِقَبضِها مُباشرة، بل له أعوان من الملائكة يَقْبِضون الأرواح بأمره، فبين ذلك في آية الأنعام، ثم بَيَّنَ في سورة الزُّمَرِ أَنَّ ذلك كلَّه بإذن الله تعالى ومشيئته، فتبين من ذلك أن إِضَافَةَ التَّوَفِّي إلى كُلٍّ بِحَسْبِه، فَانْدَفَع التَّعَارُضُ الْمَذْكُورُ، وقد اختلف العلماء في حقيقة النفس، ولا حاجة لذكر أقوالهم في هذا الكتاب خشية التطويل فيما لا جدوى له، والله تعالى أعلم.

أَفْضَلِيَّةُ الصَّحَابَةِ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ حَاشَا الْأَنْبِيَاءَ

وقوله: « وَأَنَّ خَيْرَ الْقُرُونِ قَرْنُ الَّذِينَ رَأَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَآمَنُوا بِهِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » الْقُرُونُ جَمع قَرْنٍ بفتح القاف وسكون الراء، وهو في الأصل جمع الشيء إلى الشيء، والمراد به هنا الْأُمَّةُ من الناس، ويجب على المسلم أن يعتقد أن خير هذه الأمة وأفضلها على الإطلاق الذين عاشوا مع النبي ﷺ، وهم أصحابه، وقد أجمع العلماء على ذلك كما حكاه النووي في المنهاج شرح مسلم، وقد ثبت في الكتاب والسنة ما يدل على ذلك كقوله تعالى: « كُنْتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ » آل عمران: (110)

لا شك ولا ريب أن الصحابة هم أول من يدخلون في مُسَمَّى خير أمة، وإضافة خير إلى أمة من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي كنتم أمة خير أمة أخرجت للناس، كذا أفاده صاحب التَّحْرِيرِ والتَّنْوِيرِ ابْنِ عَاشُور، ثم قال: لا شك أن الصحابة كانوا أفضل القرون التي ظهرت في العالم، لأن رسولهم أفضل الرسل، ولأن الهدي الذي كانوا عليه لا يُمَاثِلُه هَدْيُ أَصحابِ الرُّسُلِ الذين مَضَوْا.[153] انتهى كلامه.

وفي الصحيحين عن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَال: «إِنَّ خَيْرَكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدُهُمْ

153 – انظر: (التحرير والتنوير) لمحمد الطاهر بن عاشور، ج: (4) ص: (48)

قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يَسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ وَلَا يُوفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ»[154]

وروى مسلم من طريق الْحُسَيْنِ بنِ عَلِيٍّ الْجُعْفِي عَن عائشة رضي الله عنها قالت: سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «الْقَرْنُ الَّذِي أَنَا فِيهِ، ثُمَّ الثَّانِي، ثُمَّ الثَّالِثُ»[155]

وقد اتفق شُرَّاحُ السنة على أن المراد بِقَرْنِه ﷺ الصحابة، وبه جزم صاحب الْمِنْهاج شَرح صحيح مسلم، وصاحب الفتح وغيرهما من الشراح، وهذا أمر مُجْمَعٌ عليه لا خلاف فيه، فيجب على المسلم أن يعتقد أن الصحابة هم خير الناس وأفضلهم على الإطلاق بعد الأنبياء، وأنه ليس هناك أحد كَائِنًا مَنْ كان يُقَارِب أَدْنَاهُم في الفضل والدرجة فضلا عن أن يُسَاوِيَهُ، فَأَدنَى طَبَقَةٍ مِنْ طَبَقَاتِ الصحابة أَفْضَلُ مِنْ أَعْلَى طَبَقَةٍ من طبقات التابعين.

ثُمَّ إن التابعين هم الذين يلون الصحابة في هذا الفضل المذكور كما استفيد ذلك من الحديث، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، فنسأل الله تعالى أن يَزِيدَنَا حُبَّهُم، ويوفقنا لاقتفاء آثارهم، وبالله التوفيق.

---

154 – أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ: (3650) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة: (2535)

155 – أخرجه مسلم في مصدره السابق: (2536)

أَفْضَلِيَّةُ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ عَلَى سَائِرِ الصَّحَابَةِ

وقوله: « وَأَفْضَلُ الصَّحَابَةِ: الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْمَهْدِيُّونَ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ » الصحابة جمع صحابي، مشتق من الصُّحْبَة بِضم الصاد وسُكون الحاء وفتح الباء، وهي مُقارنة الشيء ومُقاربتُه، والصحابي هو من لقي النبي ﷺ وآمن به ومات على ذلك على الصحيح المشهور، ولا يُشْتَرَطُ في ذلك طُول مُصاحبته أو رُؤيته بالْعَيْنِ، لأن هناك من لم ير النبي ﷺ بعينه قط، مع طول مُصاحبته كعبد الله بن أم مَكْتُومٍ وغيره.

والْخُلَفَاء بِضم الخاء وفتح اللام جمع خَلِيفة، من الْخَلْفِ بفتح الخاء وسكون اللام، وهو أن يَجِيء الشَيْء بَعد الشَيء يقوم مَقامه، والخلفاء الراشدون هم الذين قاموا مقام النبي ﷺ في إمضاء حكمه، وهم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله عن الجميع، وقد أجمع العلماء على أن الخلفاء الأربعة هم أفضل الصحابة على الإطلاق، ولهم ما ليس لغيرهم من الفضائل والمناقب، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، ثم إنه لا خلاف بين العلماء في تفضيل أبي بكر عَلَى عُمرَ بنِ الخطَّاب، وعُمرَ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، وإنما اختلفوا في تفضيل عُثمانَ عَلَى عَلِيٍّ أو عَلِيّ عَلَى عُثمَانَ، لَكِنَّ الصحيحَ المختار الذي عليه جماهير العلماء تفضيل عثمان عَلَى عَلِيٍّ، وهذا بعد البحث والتَّتَبُّعِ الآثار الواردة في فضائلهما ومَناقِبِهما والمقارنة بين ذلك، خلافا للإمامية الْجَعْفَرِيَّةِ وغيرهم من الرافضة قَبَّحَ اللهُ وجوههم وملأ قلوبهم غَيْظا وحُزنًا حتى يموتوا بغيظهم، فيجب على المسلم أن يعتقد ذلك كله، والله تعالى أعلم وأحكم.

تَحْرِيمُ سَبِّ الصَّحَابَةِ وَالْخَوْضِ فِيمَا وَقَعَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْاخْتِلَافِ

وقوله: « وَأَنْ لَا يُذْكَرَ أَحَدٌ مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَّا بِأَحْسَنِ ذِكْرٍ وَالْإِمْسَاكِ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَأَنَّهُمْ أَحَقُّ النَّاسِ أَنْ يُلْتَمَسَ لَهُمْ أَحْسَنُ الْمَخَارِجِ وَيُظَنُّ بِهِمْ أَحْسَنُ الْمَذَاهِبِ »

قوله: « شَجَرَ » بفتح الشين والجيم، مِن الشَّجر بفتح الشين، وهو في الأصل تَدَاخُل الشيء بَعضُه في بعض، ويُطلق على ما فيه علو وارتفاع، وسمي الشَّجَرَةُ شَجَرَةً لتداخل أغصانها بعضها في بعض وارتفاعها، ثم اتسع فصار يُطْلَقُ على ما وقع من الاختلاف والتنازع فيما بين الْمُتخاصمين، لتداخل كلامهم بعضه في بعض، يقال: تشاجر القوم إذا تنازعوا واختلفوا في أمر، وشجر بينهم كذا، أي وقع بينهم اختلاف وتنازع.

والمعنى أنه لا يجوز لأحد أن يذكر واحدا من أصحاب رسول الله ﷺ على جهة التنقيص والذم إلا على جهة المدح والاعتراف بما لهم من الفضائل والمناقب، وأنه يجب على من جاء بعضهم أن يجتنب الْخَوْضَ فيما وقع بينهم من الاختلاف، فإن التنازع فيما بين الاثنين فأكثر أمر لا بد منه، لأنه فِطرَةٌ فَطَرَ اللهُ الناسَ عليها، فيجب على المسلم أن يلتمس لهم أحسن المخارج في ذلك، وهذا رد على الزنادقة الضالين الرافضة والنواصب الذين يَسُبُّونَ الصحابة ويَنْتَقِصُونَهم حيث يَصِفُونَهُم بِنَقِيض مَا وَصَفَهُمُ الله تعالى به في كتابه، وقد أثنى الله عليهم في كتابه في عِدَّةِ مَوَاضِعَ، وَوَعَدَهُم بالجنة، وَرَضِيَ عنهم، وكذلك رسوله ﷺ في سنته المطهرة، ومن ذلك على سبيل المثال

قوله تعالى: « وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ » التوبة:(100)

وقوله تعالى: « لِلْفُقَرَاءِ المُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ » الحشر: (9.8)

وقال تعالى: « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » محمد: (29)

و«من» في قوله تعالى: « مِنْهُمْ مَغْفِرَةً » لبيان الجنس لا للتبعيض، أي وعد الله الذين آمنوا من هذا الجنس، خلافا لما ذهب إليه بَعضُ الزَّنادِقة أعداء الرحمن من الرافضة،[156]

---

[156] – أي يُرَجِّحُون القولَ بأن (من) للتبعيض، بناء على مذهبهم الباطل من تفريق بين الصحابة حيث يُعَدِّلُونَ مَنِ اعتقدوا أنهم هم الصحابة عندهم، وهم أقل من القليل بالنسبة إلى من فَسَّقُوهُم، ويُكَفِّرُونَ بَعضَهُم حيث يَنْسِبُونَهم إلى النِّفاق، وهم مُعظم الصحابة كأبي بكر، وعمر، وعثمان أفضل

وهذه الآيات تكفي في الدلالة على إثبات فضائل الصحابة، ومَناقبهم، وثناء الله عليهم، ومغفرته لهم، وأن الله سبحانه وتعالى إنما جعل لهم الصفات المذكورة في آية الفتح لِيَغِيظَ بهم الكفار برؤيتهم، وقد اختلف العلماء في كفر من سب واحدا منهم بُغْضًا، فذهب جماعة منهم إلى تكفيره، وبعضهم إلى تَفْسِيقه وهم جماهير العلماء، والصحيح المختار أَنَّ مَنْ سَبَّ واحدا من أصحاب رسول الله ﷺ بُغْضًا على عِلْمٍ، فقد كفر، وهو مقتضى ظاهر آية الفتح السابقة، لأنه مُكَذِّبٌ لله ورسوله حيث عدَّلهم الله تعالى وأثنى عليهم، وكذلك رسوله ﷺ، فَوَصَفَهُم بِنَقِيض ما وَصَفَهُمُ اللهُ وَرَسُوله ﷺ به، فكأنه كَذَّبَ اللهَ ورسوله ﷺ بلسان حاله، ولَا فَرْقَ بَيْنَ هذا وقَوْلِك ليس هناك في القرآن سورة تُسَمَّى فَاتِحةً أو بَقَرَةً أو يُوسُفَ أو مَرْيَمَ أَوِ النَّاسَ، وهذا كفر بإجماع الأمة، وهو المذهب الصحيح المختار، ويؤيده ما أخرجه الشيخان عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال في الأنصار: « لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللهُ »[157]

وفي حديث أبي هريرة عند مسلم: « لَا يُبْغِضُ الْأَنْصَارَ رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»[158]

الصحابة عند جميع علماء الإسلام الْمُعتَمَدين، نسأل الله تعالى أن يزيدنا حُب الصحابة بِرُمَّتِهِم، إذ أنه لا يحبه إلا مؤمن كما لا يبغضهم إلا منافق زيديق عدو الله ورسوله ﷺ.

[157] – أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب حب الأنصار: (3783) ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنهم من الإيمان: (75)

[158] –أخرجه مسلم في مصدره السابق: (77)

وفي حديث أنس عنده: «آيَةُ الْمُنَافِقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ، وَآيَةُ الْمُؤْمِنِ حُبُّ الْأَنْصَارِ»[159] ومقتضى ظواهر هذه الأحاديث نَفْيُ الإيمان عمن أبغض واحدا من الصحابة رضوان الله عليهم، وَرَوَى أَبو عُرْوَةَ الزُّبَيْرِيُّ أنهم كانوا عند الإمام مالك بن أنس رحمه تعالى، فَذَكَرُوا رَجُلًا يَنْتَقِصُ أَصْحَابَ رَسُولِ الله ﷺ فقرأ مالك آية الفتح السابقة الذكر حتى بلغ إلى قوله: « يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ » فقال مالك: من أصبح في قلبه غَيْظٌ على أَحَدٍ مِن أصحاب النبي ﷺ فقد أَصَابَتْهُ هذه الآية، أي دخل في قوله: «لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ» فَفَهِمَ مَالِكٌ مِنَ الْآيةِ كُفْرَ مَنْ أَبْغَض واحدا من الصحابة رضوان الله عليهم، قال نَاقِلُ الْقِصَّةِ عَنِ الْخَطِيبِ الْقُرْطُبِيُّ صاحب الجامع: لقد أحسن مالك في مَقَالَتِهِ وأصاب في تأويله، فَمَنْ نَقَصَ واحدا منهم أو طعن عليه في روايته فقد رد على رب العالمين وأبطل شرائع المسلمين.[160] انتهى كلامه، ولذا كان المشهور من مذهب مَالِكٍ قَتْلُ مَنْ سَبَّ أحدا من الصحابة خلافا لمذهب الجمهور، ومذهبه أقوى وأرجح في هذه المسألة من حيث الأدلة، والله أعلم.

والأحاديث في النهي عن سب الصحابة كثيرة جدا ذكرنا لك طرفا منها، ومنها أيضا ما روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كَانَ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ شَيْءٌ، فَسَبَّهُ خَالِدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»[161]

---

[159] – أخرجه مسلم في المصدر السابق.

[160] – انظر: (الجامع لأحكام القرآن) ج: (16\8) ص: (297)

[161] – أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم: (2541)

وإنما وَجَّهَ النَّبِيُّ ﷺ الْخِطَابَ لِمَنْ يأتي بعدهم لِئَلَّا يَتَّخِذُوا صَنِيعَ خَالِدٍ هَذَا بَابًا لِسَبِّ الصَّحَابَةِ رِضوان الله عليهم أجمعين.

ورَوَى الطَّبَرَانِيُّ في الكَبِيرِ عن عُوَيْمِ بْنِ سَاعِدَةَ قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ اخْتَارَنِي، وَاخْتَارَ لِي أَصْحَابِي، فَجَعَلَ لِي مِنْهُمْ وُزَرَاءَ، وَأَخْتَانًا،[162] وَأَصْهَارًا، فَمَنْ سَبَّهُمْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ، وَالْمَلَائِكَةِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا»[163]

وهذا الحديث أخرجه الطَّبَرَانِيُّ في الْمُعْجَمِ الْكَبِيرِ مِن طريق الْحُمَيْدِيِّ عن مُحمد بن طَلْحةَ التَّيْمِي، عن عبد الرحمن بن سالم بن عبد الرحمن بن عُوَيْمِ بْنِ سَاعِدَةَ عن جَدِّهِ عُوَيْمِ بنِ سَاعِدة رضي الله عنه (349) وهو أَبْلَغُ في الزَّجْرِ عَن سَبِّ الصحابة رضوان الله عليهم، والله تعالى أعلم.

162 – قوله: (أختانا) بفتح الهمزة على وزن أفعال، جمع خَتَنٍ بالفتحتين، وهو كل شخص من جهة زوجتك كأبيها وأخيها.

163 – أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم: (349) وإسناده ليس بجيدا، لكن معناه صحيح تؤيده النصوص الشرعية.

وُجُوبُ الطَّاعَةِ لِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ

وقوله: « وَالطَّاعَةُ لِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ وُلَاةِ أُمُورِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ، وَاتِّبَاعُ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وَاقْتِفَاءُ آثَارِهِمْ، وَالْاسْتِغْفَارُ لَهُمْ » لفظ السلف بفتح السين، وهو في الأصل التَّقَدُّمُ والسَّبْقُ، والسَّلَفُ هم الذين مَضَوا، والسلف الصالح هم الذين تَقَدَّمُوا من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم، وهم الذين عَبَّرَ عنهم النبي ﷺ بقوله: « خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ »

وقوله: (وَاقْتِفَاءُ آثَارِهِمْ) بسكون القاف وكسر التاء مِنَ الْقَفَا بفتح القاف، وهو مُؤَخَّرُ الْعُنُقِ، يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ، يُقال قَفا أَثَرَهُ إِذَا اتَّبَعهُ، وأما الآثار فجمع أثر، بفتح الهمزة والثاء، وهو بَقِيَّةُ ما يُرَى من كل شيء، والمعنى أي اتباع ما خَلفُوه من الهدى، والله أعلم.

والطاعة لأئمة المسلمين من وُلَاةِ أُمورهم من الأمراء، والْحُكَّام، وعُلمائهم الذين يُعَلِّمُونَهُم أُمُورَ دِينِهم مما يَتَحَتَّمُ على كل مسلم، وقد دلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة على وجوب طاعة ولاة الأمور ما لم يأمروا بالمعصية، ومنها على سبيل المثال قوله تعالى: «وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ» النساء: (59)

وروى البُخاري في الأحكام مِنْ طَرِيق الزُّهْرِيّ عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: « مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي »[164]

ويُلْحَقُ بِأُولِي الأمر العُلماءُ، والقُضَاةُ، وَكُلُّ مَن كان أميرا ولو على أهل بيته، فيجب على المسلم طاعة وُلَاة الأمور في المعروف، ولا يَجُوز الْخُرُوجُ عليهم ولو لُوحِظَ منهم ما يُكْرَهُ، لِأَنَّ مَا يَتَرَتَّبُ على الخروج من طاعتهم من المفاسد أكثر مما يَحْصُلُ من جَوْرِهم، بل، يجب علينا أن نَصْبِرَ على ما رأينا منهم من المكروه، وفي الصحيحين عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال لنا رَسُولُ اللهِ ﷺ: « إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثرَةً وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا، قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ وَسَلُوا اللهَ حَقَّكُمْ »[165]

وفيهما عنه عن النبي ﷺ قال: « مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً »[166]

---

164 – أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: ﴿ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ النساء: (59) برقم: (7137)

165 – أخرجه البخاري في كتاب الفِتَنِ، باب قول النبي ﷺ: سَتَرَوْنَ بَعدِي أُمُورًا تُنْكِرُونَهَا: (7052) ومسلم في كتاب الإمارة، باب الوفاء بِبَيْعَةِ الْخُلَفَاءِ: (1843) واللفظ للبخاري.

166 – أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن مَعصيةً: (7143) ومسلم في الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة: (1849 ـ 56)

وقد ذَكَرَ العُلماءُ أَنَّ الْجَوْرَ الذي يَحْصُلُ مِن وُلاة الأمور غالبا يكون لفساد أعمال الرعية، لِأَنَّ الجزاء من جِنس العمل، فكما تكونوا يُوَلَّى عليكم، فَالْتَجْتَهِدُوا في الاستغفار وبَادِرُوا إلى إصلاح أعمالكم فَيُصْلِح اللهُ وُلَاةَ أُمُورِكُمْ، وَيَكُفُّوا عَنِ الْجَوْرِ، وهذا جيد، غير أن صلاح الرعية ليس شرطا في صلاح ولاة الأمور، كما أن فساد الرعية لا يستلزم فساد ولاة الأمور، وهذا هو التحقيق فتنبه، وبالله التوفيق.

ثم إنه يجب على المسلم السَّيْرُ على دَرْبِ الْمُتَقَدِّمِين من سلف الأمة، لأنه لا يصلح هذه الأمة شيء إلا ما صلح سَلَفَها من الكتاب والسنة الصحيحة، فنسأل الله تعالى أن يُوَفِّقَنَا للسَّيْرِ على مِنْوَالِهِم والاستغفار لهم، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

تَحْرِيمُ الْجِدَالِ وَالْابْتِدَاعِ فِي الدِّينِ

قوله: « وَتَرْكُ الْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ فِي الدِّينِ، وَتَرْكُ كُلِّ مَا أَحْدَثَهُ الْمُحْدِثُونَ » الْمِراء بكسر الميم، وهو الْجِدال، تقول: مَارَيْتُهُ أُمَارِيهِ مِرَاءً أي جَادَلْتُهُ، وأصله مِنْ قَوْلِهم: مَرَيْتُ الشَّاةَ إذا حَلَبْتُها واسْتَخْرَجْتُ لَبَنَها، لأن الرجل يستخرج من مُنَاظِرِهِ كَلَامًا ومعاني الخصومة وغيرها، فيجب على المسلم أن يكف عن الْمِراء والجدال في الدين، بأن يُخَاصِمَ أَهلَ الحق بإلقاء شُبُهاتِ أهل الباطل والأهواء عليهم الْتِمَاسًا لِمَيْلِهم عن الحق ودفع الشك في قلوبهم، لأن هذا من تأييد الباطل والدعاء إليه، وتلبيس الحق بالباطل، وقد نهى الله تعالى نَبِيَّهُ ﷺ عن الْمُجادلة في أصحاب الكَهفِ فقال: « فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا » الكهف: (22) أي لا تُجادِل فيهم إلا بما أَوْحَيْنَاهُ إليك من عندنا.

وكذلك يجب على المكلف أن يجتنب البِدعةَ وأهلَها، فإن كل بدعة ضلالة كما قال الصادق المصدوق وليس هناك بدعة حسنة أو مستحبة في الدين، وليس لقائل ذلك دليل يُنْفَقُ فِي سُوقِ الْمُنَاظَرَةِ، فهو مما لا محل له من الاعتبار، وقد أَطْلَق الشَّارِعُ الْحَكِيمُ الضَّلالةَ على البِدعَةِ بِرُمَّتِها، ولم يقل هذه حسنة، وهذه مستحبة، وهذه مباحة، وهذه مكروهة، كما ذهب إليه صاحب الذَّخِيرَةِ القَرَافِي المالكي تَبْعًا لِعِزِّ الدِّينِ ابْنِ عَبد السلام عَفا الله عنهما وكان معهما، فيجب على المسلم أن يجتنب البدعة كلها.

والبدعة في وَضعِهَا اللُّغَوِي: الاختراع على غير مِثال سابق، يقال بَدَعَهُ يَبْدَعُهُ بَدْعًا إذا اخْتَرَعَهُ ولَمْ يُسْبَقْ به، ومنه قوله تعالى: «بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» البقرة: (117) أي الذي اخترعهما على غير مثال سَبَقَ مِنْ قَبْلُ، وقوله: «قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ» الأحقاف: (9) أي ما كنت أول من جاء بالرسالة من الله إلى العباد، بل هناك مَنْ سَبَقَنِي بذلك من الرسل. ومعناها شرعا: طَرِيقَةٌ فِي الدِّينِ مُخْتَرَعَةٌ تُضَاهِي الشَّرْعِيَّةِ، يُقْصَدُ بِالسُّلُوكِ عَلَيْهَا الْمُبَالَغَةُ فِي التَّعَبُّدِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ»[167] كذا عرَّفها صاحب الاعتصام الشاطبي، وهو أجود التعريف.

ومن خلال دراسة هذا التعريف يُعْلَمُ أَنَّ الطُّرُقَ الْمُخْتَرَعَةَ، والأشياء الحديثة التي لم يُقْصَدْ بها التقرب إلى الله تعالى، بل إنما اخْتُرِعَتْ وَفْقًا لِلتَّطَوُّرَاتِ العَصْرِيَّةِ وَالْمُتَطَلَّبَاتِ البشرية، لا دَخْلَ لها في مُسَمَّى البدعة كما يَزْعُمُه أهل البِدَعِ حيث يُشَوِّشُونَ على العوام عقولهم بضرب الأمثال بما في معنى ذلك من ركوب السيارة، وتفريش المساجد بالبلاط والبساطات الجميلة، وإنشاء المدارس، وما في معناها، وهذا جهل منهم ودليل على عدم معرفتهم حقيقة البدعة، أو إيثَارهم الْهَوى على الحق، لأن من عرف حقيقتها يعلم أن هذه الأشياء وما في معناها ليس لها أي رابطة بالبدعة الدينية التي أطلق عليها النبي ﷺ أنها ضلالة، إذ أنها لا يُقصَدُ بها وَجهُ اللهِ تعالى وحُصولُ الثَّوابِ بِفِعلِها، وإنما تُسَمَّى بِدعةً لُغَوِيَّةً باعتبار وَضْعِهَا اللُّغَوِي، والحاصل أن الابتداع في

---

167 – انظر: (كتاب الاعتصام للشاطبي) ص: (25)

الدين ضلالة مطلقا، وقد تواترت الأدلة الشرعية على الأمر باجتناب البدعة، وذَمِّهَا وأهلها، ومن ذلك قوله: ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[168]

ومن ذلك أيضا ما روى أبو داود في السُّنَّةِ مِن طريق الوليد بن مُسلم عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رضي الله عنه قال: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[169]

وهناك شُبُهاتٌ وأَباطِيل يَتمسك بها أهل البدع والأهواء تأييدا لأباطيلهم وخِرافاتهم حيث يَتأَوَّلُون الأحاديث الواردة في ذم البدع بتأويلات باطلة فاسدة لا أساس لها، ولا تنفق في سوق المناظرة، ومن ذلك حَمْلُ (كُلُّ) في قوله: « كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ » على التَّبْعِيض، وهذا باطل مردود على قائله، فَإِنَّ كَلَامَ الشارع يُحْمَلُ على حَقِيقَتِه وَإِطْلَاقه حتى يقوم الدليل على خلافه، وليس هناك دليل على ما ذهبوا إليه إلا مُجرد الدعاوي التَّخْمِينِيَّةِ الافتراضية في مقابلة النصوص الشرعية، وغير ذلك من الأَبَاطِيلِ والشُّبُهَاتِ التي لا أساس لها، ولا يسعنا المحل ذكرها كلها، على أي حال لا شك أَنَّ

---

[168] – أخرجه البخاري في كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود: (2697) ومسلم في كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور: (1718)

[169] – أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب في لزوم السنة: (4607)

الْخَيْرَ كُلَّهُ فِي اتِّبَاعِ ما جاء به رسولُ اللهِ، فنسأل الله تعالى أَنْ يُوَفِّقَنَا لاتِّبَاعِ سُنَّة نَبِيِّهِ ﷺ.

الْخِتَامُ بِالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ

وقوله: « وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا » ثُم خَتَمَ الْمُصَنِّفُ هذه الْمُقَدَّمَةَ الذَّهَبِيَّةَ التي اسْتَحَقَّتْ أَنْ تُكْتَبَ بِمَاءٍ ذَهَبِيٍّ وبِقَلم ذَهَبِيٍّ على وَرَقَةٍ ذَهَبِيَّةٍ، ثُمَّ تُخْزَنُ فِي خِزَانَةٍ ذَهَبِيَّةٍ، مُصلِّيًا على سيدنا محمد ﷺ ومُلْحِقًا بِآلِهِ الطَّاهِرِينَ وصَحبِهِ الْأَمْجَادِ الْمَأْثُولَةِ، وأزواجه أُمَّهاتِ الْمُؤمنين الْمَيْمُونَاتِ، وذُرِّيَّتِهِ الطَّيِّبِينَ، وقد أَبْسَطْنَا الْكَلَامَ عَن مَعنَى الصلاةِ والسَّلامِ على النبي ﷺ في عِدَّةِ مَوَاضِعَ مِنْ تَصَانِيفِنَا، ولِلَّهِ الْحمدُ والْمِنَّةُ.

الْخَاتِمَةُ

هذا ما أَرَدْنَا جَمْعَه مِن شَرحِ هذه الْمُقدَّمةِ النَّفِيسَةِ، واخْتَرْنَا طريق الاختصار والإيجاز لِكَونِ ذلك أَسهل لطلبة العلم قِرَاءةً وشِرَاءً، ومن المعلوم أَنَّ مُعظَمَ طلاب العلم اليوم لا يَهْتَمُّونَ بقراءة الكتب برمتها لاسيما إذا طَالَت وَكَبُرَ حَجْمُها كسلا، ولذا اختصرنا هذا الشرح اختصارا مُتَوَسطا غَيْرَ مُخِلٍّ بالمعنى لِيَنتَفِع به الطلاب على اختلاف مُسْتَوَيَاتِهِمُ الْعِلْمِيَّةِ.

وقد شَرَعْتُ لهذا العمل يوم السبت اليوم الخامس والعشرين (25) من شهر جمادى الآخرةِ (6) سنة (1442) الموافق (23) من شهر (1) سنة (2021) وانْتَهَيْتُ منه يوم الخميس (24) من شهر رمضان (9) في نفس السنة (1442) الموافق (6) من شهر (5) سنة (2021) وَسْتَغْرَقْتُ أَربَعةَ أَشْهُرٍ، وذلك لكثرة الأعمال التي أَشْتَغِلُ بها في ذلك الوقت.

وبما سبق من دراسة هذه المقدمة النفيسة يَتَبَيَّنُ للقارئ أن الْمُصنِّفَ أبا محمد عبد الله بن أبي زيد القَيْرَوانِي كان سَلَفِيًّا عَقِيدَةً حيث يُقَرِّرُ مَذهب سَلف الأمة في ذلك ويُدِينُ اللّهَ به، وأنه لا يقول بشيء من أقوال الأشاعرة والْمَاتُرِيدية في باب الأسماء والصفات وسائر المسائل الاعتقادية، وِفَاقًا لِمَالِكٍ وَكِبَارِ عُلَمَاءِ الْمَالِكيةِ المتقدمين خلافا للمتأخرين، فإن معظمهم يُقَلِّدُون مَالِكًا في المسائل الفقهية ويُقَرِّرُونَ مذاهب الأشاعرة والماتريدية كما يَتَبَيَّنُ ذلك لكل من يَتَتَبَّعُ الكُتُبَ الفقهية لِلْمَالكية التي كَتَبها مُتَأَخِّروهم.

فكل من تتبع هذه المقدمة الذهبية النفيسة يجد أن المصنف قد أثبت لله جل وعلا صفة الاستواء على العرش بذاته على الوجه الذي يليق بجلالته وكماله تعالى، مع أن هذه المسألة هي أكبر المسائل الاعتقادية التي يُنْكِرُها الْمُتكلمون ومن نحا نحوهم من الأشاعرة والْمَاتُرِيدِيَّةِ، فقد أثبتها المصنف لله المولى جل وعلا على الوجه اللائق به، وكذلك أثبت له غيرها من الصفات التي وردت بها النصوص الشرعية، فنسأل الله تعالى أَنْ يُثَقِّلَ بِها مِيزَانَ الْمُؤَلِّفِ ويُجْزِيَهُ بِها الْجَزَاءَ الْأَوْفَى، وأَنْ يَنْفَعَ الإسلامَ والمسلمين بهذا الشرح ويُسَجِّلَهُ في مِيزَانِ حَسَنَاتِنَا، إنه مِنْ وَرَاءِ الْقَصْدِ وهو يَهدِي السَّبيلَ، وصلى اللهم وسلم وبارك على حبيبنا محمد سيد ولد آدم وصاحب المقام المحمود، وعلى آله وصحبه ومن سار على دَرْبِهِم بإحسان إلى يوم المعاد.

أخوكم في الإسلام

أَبُو زَكَرِيَّا الرِّغَاسِيُّ

قَائِمَةُ الْمَرَاجِعِ وَالْمَصَادِرِ

1- القرآن الكريم

مُتُونُ الْحَدِيثِ

2- صحيح البخاري.

أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن الْمُغِيرَةِ البُخاري – دار الفجر للتراث – ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.

3- صحيح مسلم.

أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القُشَيْرِي – دار الفجر – الطبعة الثانية – تخ: 1434هـ.

4- سنن أبي داود.

سليمان بن الأَشْعَثِ السِّجِسْتَاني – دار ابن الهيثم.

5- سنن الترمذي.

أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرَةَ الترمذي – دار الفجر للتراث – الطبعة الثانية – تخ: 1434هـ.

6- سنن النَّسائي المجتبى.

أحمد بن شُعَيْب النَّسائي – المكتبة التوفيقية – الطبعة الثانية – تخ: 2014م

7- سنن النسائي الكبرى.

المؤلف السابق – تحقيق حسن عبد المنعم سلبي – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى – تخ: 1421هـ

8- سنن ابن ماجه.

أبو عبد الله محمد بن يَزِيدَ بن مَاجَه القَزْوِينِيِّ – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي – دار إحياء الكتاب العربي.

9- موطأ الإمام مالك.

أبو عبد الله مالك بن أنس بن أبي عامر الحِمْيَرِي المدني – شركة القدس القاهرة

10- سنن الدارمي.

أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهْرَام الدارمي – تحقيق حسين سليم أسد الداراني – دار المغني – الطبعة الأولى – تخ: 1412هـ

11- سُنَنُ الدَّارَقُطْنِي.

أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مَهدِي الدَّارَقُطْنِي – تحقيق شعيب الأرنؤوط – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى – تخ: 1424هـ

12- السنن الكبرى.

أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الْخُراساني البيهقي – تحقيق محمد عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية – الطبعة الثالثة – تخ: 1424هـ

13- المستدرك على الصحيحين.

أبو عبد الله الحاكم بن محمد بن عبد الله بن حَمْدُوَيْه النَّيْسَابوري – تحقيق مصطفى عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى – تخ: 1411هـ.

14- صحيح ابن حِبَّانَ.

محمد بن حبان بن أحمد بن حبان البُسْتِي – تحقيق شعيب الأرنؤوط – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى – تخ: 1408هـ

15- صحيح ابن خُزَيْمَةَ.

أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري – المكتب الإسلامي

16- المعجم الكبير.

أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطَّبَرَانِي – تحقيق حمدي بن عبد المجيد – مكتبة ابن تيمية – الطبعة الثانية.

17- مسند الإمام أحمد.

أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هِلَال الشَّيْبَانِي – تحقيق شعيب الأرنؤوط – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى – تخ: 1421هـ

كُتُبُ التَّفْسِيرِ

18- تفسير ابن أبي حاتم.

أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرَّازِي ـ تحقيق أسعد محمد الطيب – مكتبة نزار مصطفى الباز – الطبعة الثالثة – تخ: 1419هـ

19- البحر الْمُحِيط.

أبو حَيَّانَ محمد بن يوسف بن علي بن حَيَّانَ الأَنْدُلُسِي – تحقيق صدقي محمد جميل – دار الفكر بيروت لبنان

20- الجامع لأحكام القرآن – أبو عبد الله محمد بن أحمد القُرْطِبّي – دار الحديث القاهرة.

21- الْمُحَرَّرُ الوَجِيزُ.

أبو محمد عبد الحق بن غَالِب بن عبد الرحمن بن عَطِيَّةَ الأندلسي – تحقيق عبد السلام عبد الشافي – دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى – تخ: 1422هـ

22- تفسير القرآن العظيم – أبو الْفِدَاءِ إسماعيل بن كَثِير الدِّمَشْقِي – تحقيق طه عبد الرؤوف – دار الاعتصام

23- فتح القدير – محمد بن علي بن محمد الشَّوْكَانِي – دار ابن كثير – الطبعة الأولى – تخ: 1414هـ

24- روح المعاني.

شِهَابُ الدين محمود بن عبد الله الْحُسَيْنِي الْأَلُوسِي – تحقيق علي عبد الباري عطية – دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى – تخ: 1415هـ

25- التحرير والتنوير – محمد بن الطاهر بن محمد عاشور التُّونُسِي – الدار التُّونُسِيَّةُ.

26- أضواء البيان – محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الشَّنْقِيطِي – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

27- تيسير الكريم الرحمن – عبد الرحمن بن ناصر السعدي – شركة القدس للتصدير – الطبعة الأولى – تخ: 1429هـ.

شُرُوحُ الْحَدِيثِ

28- فتح الباري.

الحافظ أحمد بن علي بن محمد بن حجر العَسْقَلَانِي ـ دار مصر للطباعة ـ ط (1) 1421هـ.

29- المنهاج شرح صحيح مسلم.

أبو زكريا يحي بن شرف النووي ـ مؤسسة المختار ـ ط (1) 2001م.

30- إكمال المعلم بفوائد مسلم.

القاضي عياض بن موسى بن عمرو الْيَحْصَبِي المالكي ـ تحقيق د يحي إسماعيل ـ دار الوفاء ـ ط (1) 1419هـ.

31- تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي.

أبو العَلَاءِ محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم الْمُبَارَكْفُورِي ـ دار الكتب العلمية.

الْفَتَاوِي

32- مجموع الفتاوي.

الشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تَيْمِيَةَ الْحَرَّانِي ـ جمع عبد الرحمن بن قاسم النجدي ـ دار الكتب العلمية ـ ط (1) 1408هـ.

33- مجموع الفتاوي ـ للعلامة النِّحْرِيرِ الْمُتَفَنِّنِ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

كُتُبُ الْعَقِيدَةِ

34- شرح العقيدة الطحاوية.

محمد بن عَلَاءِ الدين بن محمد بن أبي الْعِزِّ الْحَنَفِي ـ مكتبة الهدي المحمدي ـ ط (1) 1435هـ.

35- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ـ للحافظ أبي القاسم هِبَةَ الله بن الحسن بن المنصور الطَّبَرِي.

36- الإبانة.

أبو الحسن علي بن إسماعيل بن علي بن أبي بشر الأشعري ـ دار الأنصار القاهرة ـ ط (1) 1397هـ.

37- الرد على الجهمية.

للإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد الدَّارِمِي ـ تحقيق أبي عاصم الشوامي ـ المكتبة الإسلامية ـ ط (1) 1431هـ.

38- الرد على الزنادقة والجهمية.

للإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني رواية ابنه عبد الله بن الإمام أحمد ـ تحقيق صبري بن سلامة شاهين ـ دار الثبات ـ ط (1)

39- السنة ـ للإمام محمد بن نصر الْمَرْوَزِي الشافعي.

40- الشريعة ـ للإمام أبي بكر محمد بن الحسين الآجُرِي.

41- القضاء والقدر ـ للإمام البيهقي.

42- أسماء الله الحسنى في الكتاب والسنة . للدكتور محمود عبده عبد الرزاق الرضواني.

43- إثبات صفة العلو . للإمام موفق الدين ابن قدامة المقدسي.

44- العلو للعلي الغفار.

شمس الدين محمد بن عثمان بن قَايْمَازَ التُّرْكمَاني الذَّهَبِي ـ تحقيق أبي محمد أشرف بن عبد المقصود ـ مكتبة أضواء السلف ـ ط (1)

45- شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة . للدكتور سعيد بن علي بن وَهفِ القَّحْطَاني ـ مطبعة سفير الرياض.

46- شرح العقيدة الطحاوية . لفضيلة الشيخ الدكتور سَفَرُ بن عبد الرحمن الْحَوَالِي.

47- شرح منظومة الإيمان . لأبي محمد عصام البشير الْمراكِشِي.

48- نواقض الإيمان . لأبي حسام الدين الطرفاوي.

49- نواقض الإيمان القولية والعملية . للدكتور عبد العزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف.

50- النونية القَحْطانية . لأبي محمد عبد الله بن محمد الأندلسي القحطاني المالكي ـ مكتبة السنة.

51- شرح الرسالة القَيْرَوانية.

للقاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي ـ دار ابن حزم ـ ط (1) 1428هـ.

52- الفواكه الدواني ـ للعلامة أحمد بن غُنَيْمِ بن سالِم النَّفْرَاوِي ـ دار الفكر.

53- أشراط الساعة.

عبد الله بن سليمان الغفيلي ـ وزارة الشؤون الإسلامية ـ ط (1) ـ 1422هـ.

54- كتاب أصول الإيمان ـ لنخبة من العلماء ـ دار السلف الصالح ـ ط (1) 1440هـ.

55- الاختيارات العقائدية للإمام الألباني ـ لإبراهيم صادق أبي شادي ـ دار الغد الجديد ـ ط (1) 1434هـ.

56- القواعد الْمُثْلَى.

لفضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح آل عُثَيْمِين ـ دار أضواء السنة ـ ط (1) 1433هـ.

57- تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد.

لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب النجدي التميمي الحنبلي آل الشيخ ـ مكتبة الرياض الحديثية.

58- فتح المجيد ـ لعبد الرحمن بن الحسن آل الشيخ ـ شركة القدس ـ ط (1) 1427هـ.

59- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح.

الحافظ العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قَيِّمِ الْجَوْزِيَّةِ ـ تحقيق خالد محمد ـ مكتبة الصفا ـ 1427هـ.

60- مَعارِجُ القَبول ـ للمؤلف السابق ـ مكتبة الكوثر ـ ط (5) 1418هـ.

61- اجتماع الجيوش الإسلامية على غَزوِ الْمُعَطِّلَةِ والجهمية.

للمؤلف السابق ـ تحقيق زائد بن أحمد النشيري ـ دار عالم الفوائد ـ ط (1) 1431هـ.

62- الروح ـ للمؤلف السابق ـ دار الكتب العلمية.

63- الصواعق الْمُرسَلَة ـ للمؤلف السابق ـ تحقيق علي بن محمد الدخيل ـ دار العاصمة ـ ط (1) 1408هـ.

64- القصيدة النونية في انتصار الفرقة الناجية المنصورة ـ للمؤلف السابق ـ مكتبة ابن تيمية ـ ط (2) 1417هـ.

65- نَصْبُ الْقَنَابِلِ الْمُدَمِّرَةِ على جاحد استواء الله على العرش.

للمؤلف أبي زكريا أحمد بن أبي بكر الصديق بن محمد المصطفى الرغاسي، مخطوط.

66- الاعتصام

للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي الغرناطي ـ تحقيق سيد إبراهيم ـ دار الحديث ـ 1432هـ

67- الإيمان ـ لمحمد نعيم ياسين ـ مكتبة المدينة.

68- لا إله إلا الله ـ لأبي عبد الله محمد بن رسلان ـ مكتبة الهدي المحمدي ـ ط (1) 1430هـ.

69- الْمُحَلَّى.

لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حَزمٍ الظاهري الأندلسي ـ دار الفكر.

كُتُبُ الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ وَالتَّخْرِيجِ

70- مِيزَان الاعتدال.

الحافظ شمس الدين محمد بن عثمان بن قَايْمَاز الذهبي ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ دار المعرفة ـ ط (1) 1382هـ.

71- لِسَان الْمِيزَان.

الحافظ أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، وهو ذيل لميزان الاعتدال ـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ ط (2) 1390هـ.

72-التَّلْخِيصُ الْحَبِيرُ . للمؤلف السابق ـ دار الكتب العلمية ـ ط (1) 1419هـ.

كُتُبُ اللُّغَةِ وَالْغرِيبِ

73- جَمْهَرَةُ اللغة.

أبو بكر محمد بن الحسن بن دُرَيْدٍ الأَزدِي – تحقيق رمزي منير بعكي – دار العلم للملايين – الطبعة الأولى: (1987)

74- تَهْذِيبُ اللُّغة.

أبو منصور محمد بن أحمد الأَزهَرِي الْهَرَوِي – دار إحياء التراث العربي – الطبعة الأولى: (2001)

75- الْمُحكم والْمُحيط الأعظم.

أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سِيدَه الْمُرْسِي – دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى: (1421)

76- كتاب العَيْن.

أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي – تحقيق د مهدي المخزومي – دار مكتبة الهلال.

77- أساس البلاغة.
أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جَار الله الزَّمَخْشَرِي – دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى: (1419)
78- لسان العرب.
محمد بن مُكَرَّمٍ بن علي بن مَنْظُورٍ الإفريقي – دار صادر بيروت – الطبعة الثالثة – تخ: 1414هـ
79- تاج العروس.
محمد بن محمد بن عبد الرزاق الزُّبَيْدِي – تحقيق جمع من المحققين – دار الهداية
80- مقاييس اللغة.
أحمد بن فارس بن زكريا القَزْوِينِي الرازي – تحقيق عبد السلام محمد هارون – دار الفكر
81- القاموس المحيط.
مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الفَيْرُوز آبَادِي – شركة القدس – الطبعة الأولى – تخ: 1430هـ
82- مختار الصحاح.
زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي – المكتبة العصرية – الطبعة الخامسة – تخ: 1420هـ
83- الْمِصباح الْمُنِير في غريب الشرح الكبير.
أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الْحَمَوِي – المكتبة العلمية.
84- المعجم الوسيط – د إبراهيم أَنِيس وآخرون – الطبعة الثانية – تخ: 1392هـ

85- النِّهَاية في غريب الحديث والأثر.
مجد الدين أبو السَّعادات الْمُبارك بن محمد بن عبد الكريم بن الْأَثِيرِ – تحقيق طاهر أحمد الزاوي – المكتبة العلمية.

86- غريب الحديث.
أبو عبيد القاسم بن سَلَّامٍ بن عبد الله الْهَرَوِي – تحقيق د محمد عبد المعيد خان – مطبعة دار المعارف العثمانية – الطبعة الأولى: (1384)

87- غريب الحديث.
أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الْحَرْبِي – تحقيق سليمان إبراهيم محمد – جامعة أم القرى – الطبعة الأولى: (1405)

88- الفائق في غريب الحديث.
أبو القاسم الزمخشري – تحقيق علي محمد البِجَاوي – دار المعرفة – الطبعة الثانية.

89- الْمُفْرَدَاتُ في غريب القرآن.
أبو القاسم الحسين بن محمد بن الْمُفَضَّل الرَّاغِب الأَصْفَهاني – المكتبة التوفيقية – الطبعة الثالثة: (2013)م.

وهناك مراجع كثيرة غير التي ذكرنا، وإنما أَغْفَلْنَا ذِكْرَهَا خَشيةَ الإِطنابِ، وبالله التوفيق وعليه التُّكْلَانُ، وحسبنا ونعم الوكيل.

فِهْرِسُ الْمَوْضُوعَاتِ